المدينة المفتوحة

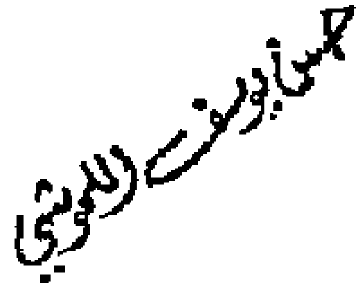
قصص من بنغازي

أحمد محمد العنيزي

مجلس الثقافة العام

المدينــة المفتوحة

قصص من بنغازي



إصدارات

مجلس الثقافة العام

المدينة المفتوحة

قصص من بنغازي

أحمد محمد العنيزي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب: المدينة المفتوحة (قصص من بنغازي)
اسم المؤلف: أحمد محمد العنيزي
سنة النشر: 2008 م
رقم الإيداع: 385 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقيم الدولي: 978 - 9959 - 38 - 855 - 1

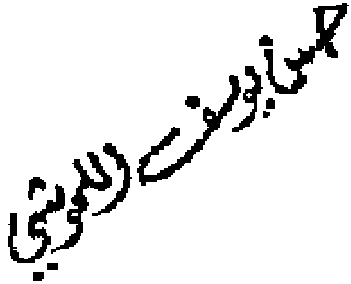
تصميم الغلاف: علي العباني
لوحة الغلاف: مباركة المغربي
التنفيذ الفني: دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت
هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161
فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني
هاتف 00218612241577 - 00218612241578
بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca



تنبيه

جميـــع الأسماء الواردة في هذه المجموعة القصصية (المدينة المفتوحة) ليست أسماءً لأشخاص معيّنين، وإذا صادف تطابق في الاسم بين شخصية حقيقية وإحدى شخصيات هذه المجموعة فإن ذلك قد ورد مصادفةً وعن غير قصد.

المؤلف

الإهــداء

إلى أطفالنا الذين يحملون على ظهورهم (رزمة) ثقيلة من المناهج التي تنوء بحملها ظهور الرجال ، ويحلمون بإطلالة مستقبل مشرق تتحقق فيه طموحات الأجيال ...

إليهم جميعاً أهدي هذه الصفحات التي تصور نمط الحياة التي عاشها الآباء والأجداد وهم يواجهون تقلبات الزمن ...

المؤلف

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الرتبة العسكرية

مـــن أضـــيق شوارع المدينة مدخلاً شارع الحمـام الذي يتفـــرع من سوق الجريد، والذي لا يزيد عرضه عن خطوتين كما كان يقيس مساحته الأجداد، يمشي الداخل إليه مسافة ستين خطـــوة كأنـــه يقطع ممراً ضيقاً بين جبلين، ثم يبدأ في الاتساع عـــندما يبلغ المار مبنى جامع المكحل المعروف بذلك الشارع، ومن أبرز البيوت في ذلك الممر بيت مشيد على الطراز العربي يقـــع على يمين الداخل والذي يُرى مدخله المرتفع يعلوه قوس مقـــسم إلى مربعات صغيرة تنحدر من جانبيه حتى تصل العتبة العالـــية ولـــه بابان مقسم كل منهما إلى ثلاثة أضلاع متساوية مزخرفة بالنقوش المحفورة على الخشب وبكل باب حلقة نحاسية مثبتة في وسطه تستعمل للطرق عليه يسمونها (الدقاقة)، وأعلى البابـــين يوجد الشباك الحديدي الذي يتوسط القوس والذي يسمونه الـــضواية، ويقابـــل ذلـــك البيت العريق مبنى الحمام القديم ذي الجدران البيضاء الذي تعلوه قبة صغيرة، وهو الذي أطلق اسمه علـــى ذلـــك الشارع. كان ذلك المبنى يبدو من الداخل معتماً لقلة

الإضـــاءة؛ إذ لا تــوجد به سوى نافذة واحدة صغيرة بها شباك حديـدي تبدو كأنها كوة في حصن قديم، وكان مدخله واطئاً ولا يرى المار ما بداخله، وإن كان يسمع صوت (حميدان) المشرف على العمل وهو يدلك جسم أحد الزبائن من التجار المنبطح على لـوحة المرمـــر الساخنة ويردد أغنيته المفضلة والمعروفة في المدينة « في زنقة الحمام زوز اغزله، واحد خدا عقلي والآخر سلّه »، ومـــا إن يجتاز الداخل ذلك الممر الضيق حتى يرى البـــيوت القديمـــة ذات الارتفاعات المختلفة الممتدة على جانبي الـــشارع الـــصغير حتـــى العطفة التي تؤدي إلى شارع سيدي الـــشريف، وفـــي هذه العطفة توجد خمسة بيوت مقابلة لضريح ذلـــك الولي المعروف أشهرها بيت سي معتوق الراضي وسي مـــسعود القاشـــط وهما الجاران القديمان في شارع الحمام وقد جمعهمـــا جوار العمر. كان سي معتوق يعمل نجاراً وقد اقتطع جزءاً من بيته جعله ورشة عمل يصنع فيها (القباقيب وصفرات الأكـــل والمعاصد والمغارف)، وغير ذلك من الأدوات الخشبية التي تُستعمل في البيوت، وكان يعول زوجته وابنه الوحيد وبناته الـــثلاث بما يتوفر له من الدخل القليل. أما سي مسعود فقد كان يـــستأجر دكانـــاً في سوق الجلادة لصناعة الأحذية المحلية مثل الـــبلغة الليبيـــية والرقعة والسبابيط والبوتيل، كما عرف أنه من

أمهـــر مـــن يصنعون السروج المنقوشة بخيوط الحرير والفضة وغيـــر ذلـــك مـــن المصنوعات، وكان دخله طيباً يوفر لعائلته المكونة من زوجته وابنيه الاثنين وبناته الأربعة حياة مقبولة ..

❋❋❋

كانـــت حقـــبة العـــشرينيات من أشد السنوات وطأة على المواطنـــين؛ حـــيث ســـادت حالة الكساد بسبب تدهور الحالة الاقتصادية، وكانت جميع منافذ المدينة محاطة بالأسلاك الشائكة ومغلقة بالبوابات فلا سبيل إلى الخروج منها إلا بتصريح كتابي من سلطات الاحتلال الإيطالي، وقد أصبح المواطنون مشغولين بمطالـــب الحـــياة اليومـــية التي ضاعفت من همومهم في تلك السنوات العجفاء التي صعد فيها الفاشست إلى الحكم في إيطاليا، كانـــوا في لقاءاتهم وسهراتهم لا همَّ لهم سوى الحديث عن حالة البلاد وما آلت إليه من تدهور، وكانوا يتحدثون بأصوات خافتة خلف الأبواب المغلقة خشية أن يصل كلامهم إلى مسامع أعوان (بولـــيس المـــستعمرات)، وهـــي قوة الشرطة السياسية التي ابـــتدعها الحكـــم الفاشـــي للتحري عمن لهم أقارب في حركة المقاومة الوطنية، حتى يمكن إبعادهم إلى معسكرات الاعتقال.

كان سي معتوق كلما التقى بجاره مسعود وجده يشكو من ضيق المعيشة ويتحدث عن الكساد الذي أصاب صناعته وسوء الحالة التي جعلته عاجزاً عن توفير لقمة العيش لعائلته، ولا يجد سـي معـتوق سوى الرثاء لحالة جاره الذي ضاقت به السبل، فيحاول تخفيف وطأة القلق عليه بجبر خاطره وتهدئة روعه بكل مـا لديه من الأقوال المأثورة عن استحالة دوام الأحوال، وعن الصبر الذي هو مفتاح الفرج بعد الشدة .

❋❋❋

كان مقهى (الحدَّادة) الذي يقع في ركن الميدان المسمى باسمه من أكثر المقاهي حركة نظراً لموقعه وسط السوق، وكان يـرتاده القادمـون للتـسوق إلـى جانب زبائنه الدائمين ممن يستمتعون بتدخين (الرقيلة) التي يملأ دخانها ذلك الجانب من الميدان، لم يعد المقهى كما كان في أيام الرخاء؛ من جراء حالة الكـساد التي ألقت بظلالها عليه حتى أصبح سي يحيى مضطراً إلـى البـيع بالدين تسهيلاً على الزبائن وتسجيل الديون حسب طريقته الخاصة، فهو يخط بالطباشير أسماء المدينين على لوحة سـوداء معلقـة بالجدار حتى إذا امتلأت تلك اللوحة عمد إلى الكتابة على ظهر الباب، كان يكتب اسم المدين ويظل يخط تحته

عـــدد المشروبات التي تناولها بخطوط أفقية وعمودية وحلقات تـــشبه الـــرموز التي يستعملها لاعبو الورق لمعرفة عدد النقاط التـــي أحـــرزوها خلال جولات اللعب، وهكذا يظل سي يحيى يـــسجل الديون وينتظر عملية التسديد التي لا يعرف متى يحين مـــوعدها، وفـــي أحـــد تلك الأيام فوجيء رواد المقهى بالمدعو خميس العاقب الذي كان معروفاً (بالبراح)؛ لأنه يحترف المناداة على المسروقات والأشياء الضائعة وعلى مكافأة من يعثر عليها أو يدل على من كانت بحوزته، جلس البرَّاح وسط المقهى وأخذ يحـــدث الرواد عن رغبة الحكومة في تجنيد متطوعين للخدمة العسكرية نظير مكافأة تدفع مقدماً وراتب شهري مغرٍ ..

- هـــذا هـــو الخبـــر اللي جابك لنا يا سي خميس، قال أحد الحاضرين.

- والله هذا اللي اطلبت مني الحكومة انبلغه لكم .. اللي يريد يركب عسكري ايقدم علم وخبر من إمام المحلة ..

ولـــم يـــتكلم أحد لا بالنفي ولا بالقبول، وخرج خميس وهو يقول:

- أنا درت اللي علي يا جماعة وشوفوا اللي يصلح بيكم .

❋❋❋

كان خبر تجنيد المتطوعين الذي أعلن عنه قد انتشر في المدينة بسرعة البرق، وفي اليوم التالي لذلك الإعلان كان سي معتوق في زيارة لدكان جاره مسعود الذي قرر أن يستفسر عن حالـــته بعد ذلك اللقاء الذي انزعج فيه من سوء حالته، ولاحظ ســـي معتوق أن جاره مسعود لايزال مهموماً، يضج بالشكوى حتـــى يكـــاد يبكـــي بالدموع من سوء الحالة وعدم قدرته على الإيفـــاء بمطالب العائلة اليومية، كان يخشى أن تتعرض عائلته للجوع، أشد ما يصاب به الناس من كوارث، وظل سي معتوق يـــستمع إليه ساكناً وقد بدا على وجهه التأثر، حتى تطرق بهما الحـــديث عما جرى في المقهى بشأن تجنيد المتطوعين للخدمة في عسكر الطليان وفاجأ مسعود جاره قائلاً :

- كان دامت هذي الحالة حتى انا نركب عسكري !!

وانذهل سي معتوق من هذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، إذ كـــيف يفكـــر رجل عاقل مثل مسعود في الخدمة مع الطليان وفـــي جيشهم بالذات، أليست هذه الخدمة إعانة لهم على ضرب المقاومـــة الوطنية وإنهاء حركة الجهاد ؟!! ولم يجد ما يرد به علـــى جـــاره في تلك اللحظة، كان شعوره مزيجاً من الغضب والـــرأفة، الغضب مما يريد مسعود الإقدام عليه والرأفة بحالة

عائلـــته ومعاناتهـــا التي تدعو إلى القلق والخوف، ولما لم يجد مسعود تجاوباً من جاره الذي ظل صامتاً وقد أطرق برأسه إلى الأرض قال بصوت مرتعش :

- خلينا أنا وإياك انقيدو في العسكرية خير من هالقعدة ..

وعلى الفور انتفض سي معتوق وقام من مكانه قائلاً :

- مازالـــت غير هدي، تبيني نركب عسكري مع الطليان هذا حد عقلك ؟

- مـــا هـــو معـــاش اقدرنا على المعيشة . ايش اندير يا سي معتوق ؟

- دير اللي اتريده كان هذا ايساعدك، انا خليني عنك ..

- كلا انا نبي انقيد في العسكرية وانت على كيفك .

- والله مـــا تـــسمى علـــي ايقولوا معتوق ركب عسكري مع الطليان ..

- وكيف انديرو في المعيشة، كيف نلقوا قوت العيال .

- ديـــر كيف ما يصح لك، انا إن شاء الله انموت وما حطيت على اكتوفي خرقة طليان .

وصمت مسعود إذ لم يعد في إمكانه إقناع جاره بما يريد الإقـــدام عليه، وخرج معتوق من الدكان وقد تملكه الغضب مما طرأ على جاره الذي كان يكن له الود والاحترام ..

❋❋❋

وفـــي مقر قيادة جيش المستعمرات دخل مسعود إلى ذلك المبنى لأول مرة في حياته؛ فهو لم يتعود التردد على المصالح الحكومية، ولم يكن يعرف سوى مبنى البلدية الذي كان يحضر إلـــيه لتسجيل أسماء أبنائه في سجل المواليد، وهناك تمّ التحقق من شخصيته بواسطة شهادة (العلم والخبر) الصادرة عن أمام المحلـــة، وتمـــت إجراءات قيده بسرعة ثم اقتيد إلى مخزن في حديقـــة المبنـــى وسلمت له البدلة العسكرية المخصصة لجنود المـــستعمرات ولفت نظره أنهم لم يسلموا له حذاء وإنما أعطوه (صندلاً) لأنه لا يسمح لأمثاله من المواطنين بانتعال الأحذية المخصصة للإيطاليين، وعندما كان في طريقه إلى الخروج من مقـــر القيادة صادفه أحد المجندين من أبناء أريتريا يحمل على ذراعيه رتبة شمباشي، وهي عبارة عن قطعة قماش سوداء بها ثلاثـــة خطـــوط حمـــراء على شكل مثلث منحنٍ، وهي عكس الخطـــوط الذهبية التي يحملها الإيطاليون والتي تتجه خطوطها

إلـــى الأعلى، ونظر هذا المجند إلى مسعود وهو يشير بيده إلى رتبـــته العـــسكرية المـــربوطة إلى ذراعيه وقال بلهجة عربية تشوبها لكنة بلاده :

ـ توا انت يمشي يضرب (فلاقة) ياخد شمباشي ..

وأدرك مسعود ما يقصده ذلك المجند الآتي من بعيد، فقد كـــان يعنـــي أن مـــن يحـــارب المجاهدين الذين يطلق عليهم الأريتريون (الفلاقة) يحصل على رتبة شمباشي مماثلة لرتبته التي يزهو بها ..

❋❋❋

كانـــت جـــبهات القـــتال المتعددة بتعدد أدوار المجاهدين المنتـــشرة في الجبال والوديان لا تهدأ فيها الحركة ليلاً ونهاراً، فالمعارك المتتالية جعلت القوات الإيطالية في حالة استنفار دائم، تترصد حركات المجاهدين الذين يباغتونها بغاراتهم في كل حين وينزلون بها الخسائر في الأرواح والمعدات ويغنمون الأسلحة، وفي تلك الساحات الملتهبة التي تدوي فيها الانفجارات وتتصاعد فـــيها أعمدة الدخان السوداء كان مسعود يتنقل بين المواقع مع جحافـــل الطلـــيان والمجندين من مستعمرات إيطاليا في القرن

الأفريقـــي وغيرهم من المرتزقة وهو يحمل المعدات العسكرية علـــى كتفيه ويعمل في حفر الخنادق وإنشاء المتاريس ويساعد جـــنود المدفعـــية فـــي جر عربات المدافع الثقيلة في المسالك الصعبة وقد أنهكه العمل اليومي المضني، وظل هاجس العائلة يطـــارده فهو لا يعلم ماذا حلّ بها منذ أن تركها في سبيل توفير أسباب المعيشة لها، وأخذت الخواطر تتزاحم في رأسه كلما أراد استجلاب النوم لعينيه ليرتاح من عناء يومه، في هذه الميادين لا تـــوجد مراســـلات يمكن أن تبعث الطمأنينة في القلوب، وهكذا ليس في مقدور أحد معرفة أي شيء عن حالة أهله، وما إذا كان يُـــصرف لهـــم معـــاش منتظم أم لا، وهذا ما يدعو إلى القلق والتوتـــر، حتى كلمات جاره معتوق كانت تمر بذهنه فتزيد من أسباب معاناته: " انموت ولا حطيت على اكتوفي خرقة طليان"، ويظل الليل يمضي بطيئاً وهو جالس وسط الخيمة الصغيرة التي تهـــزها الـــرياح بين حين وآخر حتى يداهمه النوم بعد انتظار طويل فيستلقي مهموماً .

***

وفي إحدى المعارك العنيفة التي شهدتها ساحات القتال في فتـــرة اشـــتداد المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر فوجئت القوة

الإيطالـــية التي توغلت في أحد الوديان لتتعقب الثوار الوطنيين بمقاومة عنيفة، فقد انهال عليها رصاص الثوار من عدة جهات، ووجـــدت نفـــسها محاصرة في ذلك الوادي العميق وفي مرمى القناصـــين المتحصنين في الكهوف والغابات، ورغم أن القيادة الإيطالـــية قـــد حـــشدت لـــتلك المعركة قوة كبيرة من المشاة والمدفعية والمصفحات إلا أنها فشلت في تقديراتها، فقد أذهلتها المفاجـــأة بمـــا أوقعـــت في صفوف عساكرها من خسائر في الأرواح، حـــيث ســـقط العديد من الطليان والمجندين وغيرهم، وأخذتها نوبة من الغضب فأمرت بإطلاق نيران المدافع في كل اتجـــاه دون تركيز حتى أشعلت النار في أشجار الغابة التي ظل دخانهـــا يتصاعد ويغمر ذلك الوادي باللهيب والضباب الأسود، وظـــنت القيادة الإيطالية أنها حققت نصراً على أعدائها، إلا أن استمرار الثوار في إطلاق الرصاص بعد توقف المدفعية قد زاد في ارتباكها ودفعها إلى إصدار الأمر بالانسحاب، وأخذت فلول قواتها المندحرة تخلي الموتى والجرحى وهي تتراجع في حالة مـــن الفوضى، وفي ذلك الجو المشحون بالاضطراب والخوف، كـــان بعض المجندين يجرون عربات المدافع الثقيلة في طريق صـــاعدة ومـــن بيـــنهم مسعود القاشط الذي كان يحادي إحدى العـــربات وهـــو يتعثـــر فـــي خطاه وقد أرهقه التعب، وفجأة

اصـــطدمت العـــربة التي كان يحاديها بحجر كبير في الطريق فتراجعت منحدرة إلى الخلف ودهست رجله اليمنى فصرخ من الألـــم ووقع على الأرض، كانت رجله قد تهشمت والتصق بها الصندل المنقوع في الدماء، فقد كانت وطأة العجلة الخشبية التي يحـــيطها شريط حديدي قوي جعلته يواصل الصراخ حتى ألقي بـــه فـــي عربة شحن مع بعض الجرحى لتتجه بهم إلى المدينة حيث يوجد المستشفى الوحيد الذي ما زال في مرحلة البناء .

❋❋❋

كان مسعود قد بدأ يفيق من تأثير المخدر عندما سمع أحد الجـــراحين الإيطاليـــين يحـــدث زميلاً له باللغة الإيطالية وهما واقفان بجوار السرير الذي يتمدد عليه، وتفرس فيهما ملياً وهو يمسح عينيه بيده كأنما يريد إزاحة الغشاوة عنهما، كان أحدهما مسناً طويل القامة بينما الآخر يبدو شاباً نحيل البنية ينصت إلى محدثه باهتمام، وأخذ مسعود يحاول الجلوس في السرير إلا أن الجـــراح الكبير الذي انتبه إلى حركته منعه من ذلك طالباً منه البقاء متمدداً ليكون في وضع مريح، ثم سأله :

– ما هو اسمك أيها الجندي ؟

ـ مسعود بن سعيد القاشط .

ـ ماذا كنت تعمل قبل التحاقك بالجندية ؟

ـ صانع أحذية في سوق المدينة .

ـ هذا أحسن لن تعوقك الإصابة عن ممارسة عملك .

قال الجراح ذلك ولم يذكر له أنه اضطر إلى بتر رجله عند نهاية الساق، وأراد الجراح الصغير أن يخفف هول الصدمة عليه فقال :

ـ أنت بطل شجاع كما يبدو عليك ..

وهمَّ مسعود أن يقول له إنه كان بطلاً رغم أنفه وأنه شهد عدة معارك ولم يطلق خلالها رصاصة واحدة، وهو مرتاح إلى ذلك لأنه لم يكن سوى حمال ينقل المعدات على كتفيه إلا أنه خشي أن يسخر منه الجراح فأمسك عن الكلام، ثم سأله الجراح الكبير :

ـ هل لك عائلة وأبناء ؟

وتنهد مسعود وكاد ينفجر بكاءً، لقد مسّ السؤال شغاف قلبه؛ أليست العائلة هي سبب ما حلّ به من متاعب؟ ولولا هموم العائلة ما كان في هذه الحالة، وتنهد مرة أخرى وقال :

- نعـــم يـــا ســـيدي، لي عائلة كبيرة لم أرها منذ زمن، إنني مهموم بأمرها ومشتاق إلى رؤيتها.

وصمت قليلاً ثم أردف :

- إنني أتعجل الزمن وانتظر اللحظة التي تجمعني بها ..

ورد عليه الجراح مواسياً :

- لا تبتئس ستعود إليها قريباً، وستحصل على رتبة عسكرية مناسبة،

وفـــي تلـــك اللحظـــة تذكـــر مسعود كلمات ذلك المجند الاريتـــري الذي قابله في مقر القيادة عندما حضر للتطوع في الخدمة العسكرية، هذه الكلمات التي لن تمحى من ذاكرته ..

« توا تمشي تضرب الفلاقة وتاخذ رتبة شمباشي » .

❋❋❋

عـام الصابـة

في صبيحة أحد أيام الصيف التي أعقبت موسم الحصاد، كـــان ســـالم بن خليل تاجر الغلال المعروف جالساً أمام دكانه المطل على ساحة الفندق القديم، كان منهمكاً في احتساء القهوة وتدخـــين ســـجاير طـــرابلس ذات التـــبغ الفاخـــر المـــسماة اكـــسترا والتـــي يحـــرق منها سجارة إثر الأخرى دون توقف، ويتـــرك دخانهـــا يتبدد في جو الساحة الكبيرة، لقد بدا في تلك الجلـــسة منشغلاً بالتفكير العميق، وقد استبد به القلق، فقد كانت مـــشكلة ابنه البكر هي المسيطرة على اهتمامه، فهذا الابن الذي كـــان يعول على صلاح أمره، وقد وفّر له كل ما يشتهيه شاب فـــي ســـنه كي يحقق ما يريده منه وهو تهيئته للعمل بالتجارة كعـــادة أهلـــه، فهـــو بـــدلاً من أن يتفرغ للدراسة ويجتهد في التحـــصيل تـــرك المدرسة الابتدائية التي تعثر في الدراسة بها ورسب عدة مرات، وظل يتسكع في شوارع المدينة ويسهر في دور السينما، ويعود إلى البيت في ساعات متأخرة من الليل ..

لقد طغى التفكير على ذهن سالم رغم حركة ساحة السوق

التـــي تـضج بالنشاط وضوضاء باعة الخضروات التي تختلط بنهيق حمير المزارعين الذين يحضرون الخضروات من القرى القــريبة ورغـــاء الجمـــال المحملة (بغراير) القمح والشعير والقابعة عند نهاية الساحة في انتظار تفريغ أحمالها التي ترغى تحـــت وطـــأة ثقلها، كان من الممكن أن يكون السيد سالم أكثر الـــتجار سعادة بما حققه من أرباح في هذه السنة التي كانت من الأعوام النادرة، وقد سميت بعام الصابة، وهو من الأعوام التي تبقى أحداثها عالقة بالذاكرة؛ لأن المواطنين كانوا يؤرخون بها أعمـــار المواليد، ولكنه ظل رغم الضجة المحيطة به غارقاً في همـــومه حتى نما إلى مسامعه صوت شقيقه صالح الذي انتشله من دوامة التفكير وهو يطلق عليه تحية الصباح ويجلس بجانبه، كـــان صـــالح هو الآخر تاجراً إلا أنه يزاول تجارة الأصواف والجلـــود التـــي شـــهدت رواجاً تلك السنة بسبب نشاط حركة التـصدير إلى الخارج، لقد لاحظ صالح وهو يرتشف القهوة أن شقيقه سالم يبدو منقبض النفس وأدرك السبب الذي دعاه لطلب حضوره عندما أرسل له نادل المقهى ليستدعيه؛ فلابدّ أن يكون ســـالم قـــد تعرض لمشكلة من مشاكل التجارة يريد إشراكه في حلهـــا، فأخذ يستدرجه ليعرف منه ما دعاه للقلق ولم يلح عليه كثيراً، فقد كان سالم محتاجاً إلى من يجلس معه ليفضي إليه بما

يعتمل في صدره، فاندفع يحدث أخاه بكل ما يلاقيه من متاعب بســبب تصرفات ابنه عامر التي سبق أن حدثه عنها من قبل، وتأســف صالح كثيراً لأن مثل هذه التصرفات تسيء إلى سمعة عائلة آل خليل المعروفة بالاستقامة، وتبادل الشقيقان الرأي في كيفــية تقويم سلوك عامر حتى توصلا إلى فكرة رأيا فيها الحل لمشكلتهما، هذا الحل الذي سيقوم سلوك عامر هو الزواج، ولما كــان لــصالح ثلاث بنات أكبرهن حليمة التي تقارب عامر في السن فهي أصغر منه بسنتين، فقد اقترح سالم أن يجمعا بين ابنه وابــنة شقيقه صالح، ولما كان هذا الأخير يحبذ هذه الفكرة التي ســبقه إلــيها شقيقه فقد وافق على ذلك مبتهجاً وأبدى استعداده للمــساهمة فــي هــذه المناسبة التي كان يتمناها، وهكذا اتفق الــشقيقان علــى الإســراع في إقامة العرس للجمع بين عامر وحليمة؛ فبذلك يمكن تقويم سلوك عامر والمحافظة على تماسك عائلتيهما وحصر الزواج بين أبنائهما ..

❋❋❋

أقــام سالم بن خليل عرساً كبيراً لابنه عامر ظل الجيران يتحدثون عنه مدة طويلة، فقد كان عرساً مشهوداً في تلك السنة التــي عرفت بـــ (عام الصابة) والتي تعددت فيها الأفراح، إذ

أحييت لياليه المطربة المعروفة نجمة، تلك المرأة الكفيفة التي لا تغـيب عـن أفراح المدينة والتي كانت أغانيها تطرب النسوة فيـصفقن ويرددن معها مطلع كل أغنية ويرقصن على نقرات الدربوكة التي برعت نجمة في الضرب عليها بأناملها الغليظة، فقد كانت هذه المرأة بدينة، وكان صوتها العذب يطرب كل من يستمع إليها وهي تشدو بالألحان الشعبية الموروثة وتردد أغانيها المحببة إلى النسوة من أمثال الأغنية المشهورة التي يقول مطلعها: « نا يا بوي إجميلي جاء، عليه نورد ونجيب الماء »، والأغنـية المعروفة التي يقول مطلعها « شينك قبلي صرهادي، حازك يا الغالي في الوادي »، إلى جانب (غناوي العلم) ذات المعاني الجميلة التي تؤدى في الأفراح وتقابل بوابل من الزغاريد ...

❋❋❋

لسوء الحظ لم تدم فرحة آل خليل طويلاً، فقد أطلت عليهم مشكلة جديدة أكثر تعقيداً من المشكلة السابقة التي ظنوا أنهم وجدوا لها حلاً وارتاحوا من معاناتها، لقد عاد عامر إلى سيرته الأولى بعد الزواج بمدة قصيرة، إذ ظل يواصل سهراته خارج البيت ويعود في أواخر الليل مخموراً فيشتبك مع زوجته في

مشادات كلامية وينعتها بأقذع الصفات ثم يعتدي عليها بالضرب ويلعـــن أهلها، ويردد على مسامعها أبغض الكلمات التي تجري علــــى لسانه في سهولة دون مبالاة بما تؤدي إليه من عواقب، كلمات سهلة في نطقها خطيرة في مفعولها (عدي راك مطلقة) لقـــد ظلت هذه الكلمات تتكرر على لسان عامر كلما حضر إلى البــيت فـــي حالة سكر حتى بلغ عدد الطلقات ثلاثة إن لم تكن أكثـــر من ذلك لأن هذا ما أمكن لوالد عامر حصره، وقد وجد حلاً للطلاق الأول ثم حلاً للطلاق الثاني إلا أنه ظل عاجزاً أمام الطلاق الثالث الذي كان حداً فاصلاً بين الزوجين، لقد أصبحت الـــزوجة محرمة على زوجها شرعاً، وخيم الحزن على عائلتي آل خلـــيل بعـــد عـــودة حلـــيمة إلى بيت أهلها، وتحت ضغط الظـــروف القاسية التي عصفت باستقرار هاتين العائلتين اللتين كانـــتا تعيشان حياة هانئة وفرها لهما دخل التجارة التي يزاولها الـــشقيقان، وبعـــد مشاورات استقر رأي كل من الشقيقين على ضـــرورة إيجـــاد حل لمشكلتهما بأية طريقة حفاظاً على رابطة الـــزواج بـــين أبنائهما، وهداهما التفكير إلى أن الحل يكمن في زواج التحليل، وأن عليهما أن يجدا من يقبل الزواج من ابنتهما بـــصفة مؤقـــتة، ولهذا قررا البحث عمن يقبل بأن يكون محللا فيتـــزوج مـــن حليمة ثم يطلقها بعد مدة قصيرة؛ وبذلك تصبح

عــودتها إلـــى زوجهـــا الـــسابق شرعية، ولكن من يقبل بهذه المغامرة؟ وكيف يتم ذلك؟ لابدّ أن يكون من يقبل مثل هذا رجلاً فقيــراً لم تتوفر له فرصة الزواج، وتذكرا أن جارهما المبروك الأزرق لازال عازباً، وهو في نحو الثلاثين من العمر كما هو معــروف بين الجيران، فهو يعمل ساعياً للبريد يرونه كل يوم يطوف الشوارع بدراجته لتوزيع البريد على البيوت والمحلات التجارية، وبعد أن استعرضا حياة جارهما مبروك وسلوكه رأيا أنه خير من يمكن التعويل عليه في حل هذه المشكلة المستعصية إذا قبل القيام بهذه المهمة .

❋❋❋

كان الوقت عشاءً عندما جاء سالم بن خليل إلى ذلك البيت القديم القابع في نهاية الشارع والذي كان مدخله مقوساً وله باب كبيــر يتوســطه بـــاب آخـــر صـــغير من الطراز المعروف بـ (البَخُوخَه) والذي يكتفى بالدخول إليه من الباب الصغير المـــستعمل لهـــذا الغرض لأن الباب الكبير لا يفتح إلا إذا أريد إدخـــال عربة أو حيوانات كما هي عادة الأجداد، وبعد تأمل مد سالم يده إلى الحلقة الحديدية العالقة بالباب الصغير وطرق عليه طرقات خفيفة تحسباً لما يثير القلق كما هو معروف في طارق

الليل غير المرغوب فيه، وسرعان ما قام المبروك بفتح الباب ليجد أمامه جاره سالم الذي بادره بإلقاء تحية المساء بصوت خافت ليبعث الطمأنينة في قلبه، ورد مبروك تحية زائر الليل مستغرباً تلك الزيارة المفاجئة ودعاه إلى الدخول، وفي المربوعة بدأ سالم يمهد لفكرته بكلمات رقيقة ثم أخذ يسرد على مسامعه ما جاء من أجله وهو البحث عمن يحل مشكلة الطلاق الذي أدى إلى تحريم زوجة ابنه وقال له إنه لم يجد أصلح منه لحل هذه المشكلة، وظل المبروك ينصت إليه باهتمام وتوجس من هذا العرض المفاجئ، بينما استمر سالم في كلامه بقصد تبديد مخاوفه من الإقدام على هذه المهمة التي لا تكلفه شيئاً سوى الموافقة بأن يكون محللاً فيتزوج المطلقة بصورة مؤقتة ولمدة محددة، وانتظر المبروك حتى توقف سالم عن الكلام وقال وهو مرتاب :

- لكن أنا رجل فقير ومعاشي طق دوب الحنك !

- أنا عارف حالتك رقيقة ما اتخمم على شيء .

ولاحظ سالم أن المبروك يبدو متردداً فواصل كلامه كي يطمئنه بأنه هو الذي سيتولى مصاريف الفرح وما عليه إلا أن يقبل هذا العرض الغريب، وهكذا تمكن سالم من إقناع المبروك

بالـــزواج المـــؤقت، فقـــبل الأخير ما عرضه عليه سالم وتعهد بطـــلاق المرأة بعد إنهاء مهمته، وتمّ الاتفاق بينهما على تحديد مـــوعد الـــزفاف والإعداد للعرس في أقرب وقت، وخرج سالم وهو مطمئن إلى نجاح مهمته الصعبة وظل طوال الطريق إلى بيـــته مفكـــراً في إعداد العرس المقبل عليه والذي لم يكن هذه المـــرة مـــن نـــصيب ابنه وإنما هو عرس آخر فرضته عليه ظروف لم يكن يحسب لها حساباً .

❋❋❋

كـــان قـــد مرّ على زواج مبروك من حليمة ثلاثة شهور عاشتها تلك العائلة الصغيرة في سعادة، فقد مرّت بها أيام جميلة لـــم تكن تحلم بها ولم يذكر مبروك أنه رأى يوماً واحداً مماثلاً لهـــذه الأيـــام منذ أن فتح عينيه على الدنيا، إذ لم يكن يحلم بأن تكـــون لـــه زوجـــة مثل حليمة التي ملأت حياته بهجة برقتها وحنانها حتى أنسته أيام المعاناة، ولم يكن هو أقل منها حناناً فقد أحسن معاملتها وبادلها شعور المودة، حتى أخته رابحة الأرملة التـــي أوقفت حياتها على رعايته والعناية بشؤونه قد وجدت في حليمة من يؤنس وحدتها فغمرتها بحبها وحنانها مما جعل حليمة

تتعلق بها وترى فيها أماً حنونة أنستها متاعب الأيام التي لم ترَ فيها الراحة ولم تذق فيها طعم السعادة في زواجها بابن عمها،

لقد مرّت الشهور الثلاثة على تلك العائلة ولم ترَ فيها مـــا يكدر صفوها حتى حدث ذات مساء ما كان متوقعاً، لقد عـــاد المبـــروك إلـــى البيت في حالة غير طبيعية فقد كان مهموماً وما كاد يصل إلى حجرته حتى استلقى على السرير وهو شارد البال، ولما كانت حليمة لم تشهده في هذه الحالة مـــنذ وطأت قدماها أرض ذلك البيت القديم، فقد لجأت إلى شـــقيقته رابحـــة تستنجد بها لترى ما حلّ بشقيقها، وعندما جلست المرأتان بقرب المبروك وهو مستلقٍ على الفراش في حالة استرخاء كمن كان يقوم بعمل شاق أخبرهما بما أزعجه وطيـــر صوابه وهو الخبر الذي زفه إليه أحد الجيران الذي قـــال له إن سالماً عم حليمة سيحضر إليهم لإنهاء موضوع الـــزواج المـــؤقت، وقـــد أوقع هذا الخبر الخوف في قلبي المـــرأتين اللتـــين ســـرعان ما تساقطت دموعهما وأجهشتا بالبكاء، فهما تعلمان أن السيد سالم لن يأتي إليهم في زيارة ودية، ولابدّ أنه يريد مطالبة المبروك بإنهاء علاقة الزواج الـــذي نعما في ظله بالسعادة، وبينما استمرت المرأتان في

النحـــيب، أخذ المبروك يفكر في كيفية التصرف حيال هذه المـــشكلة التي تواجهه لأول مرة فهو يدرك جيداً أن زواجه من حليمة مقيد بشروط سبق له أن وافق عليها، وأنه لابدّ أن يأتـــي اليوم الذي يطالب فيه بالإيفاء بوعده وتسريح زوجته لـــتعود إلى أهلها، فليس في الأمر مفاجأة له، إلا أن الأيام التـــي مرت به خلال فترة الزواج القصيرة التي شعر فيها بـــسعادة لم يألفها جعلته يترك موضوع التخلي عن زوجته للظـــروف، ولكن ها هو الآن يواجه امتحاناً عسيراً، كيف يمكـــنه التخلي عن زوجته بسهولة؟ هل يذعن لإرادة أهلها ويطلقهـــا كما يريدون؟ إن مجرد التفكير في الطلاق يصيبه بـــدوار، وتـــتابعت التساؤلات في ذهنه وأحس كأن كابوساً يـــضغط على قلبه ويكاد يخنق أنفاسه، لقد قطع عهداً على نفسه ولا يعرف كيف يمكنه التنصل من هذا العهد المقيت، لكـــن رغم ما في الطلاق من تضحية بسعادته وما يشعر به من ألم عند ذكر هذه الكلمة البغيضة، إلا أنه قرر بينه وبين نفـــسه أن يـــذعن لمشيئة أهل حليمة إذا ما ألحوا عليه في طلبهم، فهو لا يريد أن يقال عنه إنه تمسك بالمرأة طمعاً في ثراء أهلها ..

وبيـــنما المبروك غارق في أفكاره قطعت حليمة الصمت الذي ران على البيت وأسلمهم للحزن وهي تعلن عن رأيها في صراحة :

- أنا ما نبيش نعاود لهلي، ما نبيش نفارق !

وشعر المبروك كأن أحداً انتشله من بئر عميقة أُسقط فيها عنوة، واعتدل في سريره جالساً وقال مستفسراً :

- كان زروا علينا هلك شنو انقول لهم ؟

وهنا انبرت رابحة قائلة بلهجة حادة :

- قول لهم حليمة ما تبيش لفراق وما نقدرش انطلقها .

- مادام حليمة ما تبيش افراقنا حتى انا مش هاينة علي .

- اماله دير كيف ما قلت لك طردهم !

ولم يعلق المبروك على كلام شقيقته واكتفى بالتمدد على السرير صامتاً، ليفكر كيف سيلاقي أهل حليمة، الآن عليه أن يستعد لرفض طلبهم بعد أن اطمأنّ إلى أنها تفضل البقاء معهم ولا تـــريد الإذعان لرغبة أهلها، لقد كان رفض حليمة العودة

لأهلهـــا حافزاً له على الاستعداد للمواجهة الحاسمة مهما يكن الأمر ...

في مساء اليوم التالي، الذي أعقب ما حدث في ذلك البيت القـــديم وعكر صفو العائلة الصغيرة، سمع المبروك طرقاً على بـــاب البيت الذي يلفه السكون، ذكره بطرقات خفيفة حدثت منذ ثلاثة شهور، وأدرك أن الطارق لابدّ أن يكون سالم عم زوجته فهـــو لـــم يعرف أحداً سبق له الاهتمام بزيارتهم ليلاً ولا حتى نهاراً، وقام مسرعاً ففتح الباب ليجد أمامه السيد سالم كما توقع، غيـــر أن هذا الأخير لم يكن وحده هذه المرة فقد كانت تصحبه امـــرأة بديـــنة عرف المبروك أنها الحاجة جميلة والدة زوجته فـــرحب بالقادمـــين غير المرغوب في حضورهما ودخل وهما يتـــبعانه إلى وسط الحوش، وبينما جلس المبروك مع عم حليمة أمـــام مـــدخل حجـــرة النوم وقامت رابحة بإعداد الشاي دخلت الحاجـــة جمـــيلة مع ابنتها إلى الحجرة التي أخذت تتفرس في جـــدرانها الشهباء التي تبدو أنها لم تمر عليها فرشاة طلاء منذ أمد بعيد، ثم قالت :

– هابا عليك دار اتحشم يا ابنيتي !!

– أنا ما القيت راحة إلا في هالدار .

ـ راحتك مش هنا عاودي لهلك خيرلك ..

ـ أنا ماعنديش دار انعاودلها، هضوم هم هلي .

كانت حليمة تتكلم بصوت مرتفع وكان عمها يستمع إليها فـــي اســـتغراب وهو يهز رأسه أسفاً على ما تفوهت به، بينما المبروك يجلس صامتاً وهو يشعر بصدق حليمة في إبداء رأيها دون مبالاة بكلام أمها وتحريضها ..

ـ لو كان ما تاخذي كلامي معاد تبقي لي بنت ..

ولـــم تـــرد حلـــيمة على كلمات أمها فقد أجهشت بالبكاء وبينما خرجت أمها غاضبة انتفض عمها واقفاً ووجه كلامه إلى المبروك الذي كان يدخن في صمت :

ـ الكلام معاك أنت يا سي المبروك ليش ما اطلقها ؟

ورنــت كلمة الطلاق في أعماق المبروك فأحسّ برعشة تسري في أوصاله فلم يسبق لـه أن تعرض لموقف مثل هذا، وظـــلّ برهة صامتاً يفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق ثم قال في نبرة حادة :

ـ أنا كنت ناوي انوفي بعهدي لكن توا معش نقدر ..

- ليش ما تعطيها كلمتها وتريحنا من هالحصلة ؟

- ما نقدرش لأجل حليمة ما تبيش الفراق كان تفهم ..

- العتب مش عليك علي أنا اللي نحساب عندك كلمة !

وشـــعر المبروك بالإهانة من كلام السيد سالم إلا أنه لم يـــرد علـــيه خشية أن يتطور الموضوع إلى معركة تلفت نظر الجيران وتثير ضجة في الشارع ..

وخرجت الحاجة جميلة وهي تلعن اليوم الذي وافقوا فيه علـــى زواج ابنـــتها من هذا الرجل الذي أخلّ بوعده وخذلهم، وقالت موجهة كلامها لسالم :

- البنت ما تبيش تعاود لدارها هذا هو قداها .

وضـــرب ســـالم كفاً بكف متحسراً على فشل مسعاه في عملية التحليل التي خطط لها ولم تنجح، وقال :

- هيا اطلعي فكينا من هالساعة .

ثم خرج تتبعه السيدة جميلة وهما في حالة غضب شديد وفـــي إثرهما المبروك يمشي صامتاً حتى إذا غادرا البيت شعر

كأن كابوساً انزاح عن كاهله فأوصد الباب بالمزلاج وقال يحدث نفسه :

- قالك طلقها، هذه طرشه وهذي ما تسمع !

❋ ❋ ❋

الجيران

كان شارع بوخمسين أحد شوارع المدينة القديمة الذي لم تصل إليه الكهرباء، لأنَّ شبكاتها كانت مقتصرة على إضاءة شوارع الحي الغربي حيث تسكن العائلات الإيطالية وتوجد دوائر الحكومة والمؤسسات التجارية، أما الأحياء الشعبية في شرق المدينة وشمالها فقد كانت تُضاء بواسطة فنارات الكيروسين الموزعة على الشوارع بمعدل فنار واحد لكل شارع يُثبت في جدار البيت الذي يتوسطه ويُكلَّف أحد عمال البلدية بمهمة إضاءته في المساء وإطفائه في الصباح الباكر، وكان سي فرج فضل هو المكلَّف بهذه المهمة في شارع بوخمسين باعتباره أحد سكانه ومن العاملين في البلدية، فكان يخرج من بيته كلَّ مساء يحمل سلَّماً صغيراً على كتفه وبيده (تناكة) مليئة بالكيروسين وفي جيب سترته بعض الخرق الخاصة بالتنظيف، فيقوم بإسناد السلَّم على الجدار المثبت به الرف الحديدي الذي يحمل الفنار ثم يصعد عليه، فيُنزل الفنار ويقوم بتعبئته بالكيروسين ويمسح زجاجه ثم يفتح بابه ويوقد طرف

الفتـــيلة بعود ثقاب، وبعد هذه العملية يقوم بإغلاق بابه وإعادته إلى مكانه تاركاً إياه مضيئاً، ولا يعود إليه إلاَّ مع انبلاج أضواء الصباح ليقوم بإطفائه بعد الاستغناء عن ضوئه الشاحب.

❋❋❋

كـــان كل شيء في ذلك الشارع يسير على وتيرة واحدة لا تتغيـــر فيه طريقة المعيشة ولا تتبدل فيه عادات سكانه الذين ألفوا حـــياة الفقـــر وتكـــيفوا معهـــا، هكذا كانت الحالة حتى أُقيم فرح (آل الـــسعداوي)، ودام مدة الأيام المعتادة ثم انتهى قبل أن تنتهي طقـــوس (العراسة) الذين وجدوا أنفسهم بلا مكان يواصلون فيه سهراتهم حتى نهاية الأسبوع، فقد طلب منهم ميلاد صاحب البيت، الـــذي قـــضوا فيه أيام الفرح الثلاثة، أن يقوموا بإخلائه بعد انتهاء المدة التي يستعان فيها ببيوت الجيران طيلة أيام الفرح، كما جرت العـــادة، فاضطر العراسة إلى البحث عن مكان آخر يواصلون فيه سهراتهم حتى يوم الأسبوع، فمازالت لديهم الرغبة في الترفيه عن أنفسهم بمواصلة ليالي الأنس، رغم أنه في كثير من الأحيان تنتهي هـــذه الليالـــي بالـــشجار وتبادل اللكمات ويطلع عليهم الصبح وقد تـــورمت وجـــوههم مـــن آثار اللكمات واحمرّت عيونهم وثقلت رؤوســـهم من تأثير الخمر، وبعد تفكير اهتدى جماعة العراسة إلى

بـــيت صغير تملكه امرأة تُدعى طامية هي سليلة العائلة التي أُطلق اسـمها على الشارع، كانت هذه المرأة قد خصصت بيتها للإيجار وأوكلــت مهمــة تأجيره إلى جارها سي الفرجاني بعد أن ذهبت للإقامة مع أقاربها في حي بوزغيبة؛ لأنها لم تعد تطيق الإقامة فيه وحدها، وظلَّ المستأجرون يتداولون على ذلك البيت فتؤجره عائلة لفتــرة من الزمن ثم تغادره لتحل مكانها عائلة أخرى، وهكذا حتى أصـــبح شـــاغراً في تلك الفترة التي تزامنت مع ذلك الفرح الذي انــتهت مدتـــه، وكانـــت الفرصة مواتية لجماعة العراسة الخمسة المقيمـــين فـــي الـــشارع بعد ذهاب الرجال القادمين من الأحياء الأخـــرى، فقامـــوا باقـــتحام ذلك البيت الشاغر بعد تكسير القفل، وأحـــضروا لوازم السهرة من الخمر وتوابعه، كما أحضروا امرأة كانـــت معـــروفة بملازمـــة سهرات العراسة لتقوم بدور الساقي وإضـــفاء جو من المرح عليها، غير أنه عندما دخلوا البيت خلسة بعـــد الغـــروب وجـــدوه مظلماً، فليست به وسيلة إضاءة، وانقلبت فرحتهم بالعثور على المكان إلى قلق وتفكير في كيفية التغلب على هـــذه المـــشكلة التـــي لم يحسبوا لها حسابًا، وفجأة خطرت لمفتاح الجطـــف، وكان أكبرهم سناً وأضخمهم جسماً، فكرة جعلته يصفق بيديه فرحاً ويُطلق صيحة :

- راحت والقيناها يا كوازي !

وهتفوا في صوت واحد مستفسرين :

- شنو قلت يا مفتاح شني اللي القيتها ؟

- الفنار، فنار الشارع هذا اللي القيته ..

ورغم أن هذه الفكرة قد راقت لهم إلاَّ أنهم ظلوا يتناقشون في كيفية إنزال الفنار من مكانه وليست لديهم وسيلة يصعدون عليها، فالمسألة تتطلب خبرة في إنزاله حتى لا يتعرض للكسر ويُفتضح أمرهم ..

كان الرف الذي يُوضع عليه الفنار مرتفعاً عن الأرض بمقدار أعلى من قامة أطول الرجال، وبعد تفكير اقترح مفتاح، باعتباره أطولهم قامةً، أن يركب على كتفيه أخفهم وزناً وأحسنهم ذكاءً لكي يتمكن من إنزال الفنار بسهولة، ووقع الاختيار على محمد باعتباره لائقاً لهذه المهمة، فصعد على ظهر مفتاح ثم جلس على كتفيه العريضين ومدَّ يديه حتى تمكن من الإمساك بالفنار الذي كان حامياً فأنزاله بسرعة ويداه ترتعشان من الحرارة ..

❋❋❋

وهكـــذا تمَّت إضاءة الحجرة التي اختاروها لوجود بعض (الحـــصران) القديمة بها، وبدأوا السهرة التي بذلوا جهوداً في سبيل إعدادها فتحلقوا حول المرأة التي تصدرت المائدة وأخذت تـــوزع علـــيهم كـــؤوس (الانيزيتا) حسب العادة المألوفة في الأفراح، فكان كلما جاء دور أحدهم مدَّت له الكأس وطلبت منه أن يغنـــي علـــى كأسه وعملاً بطاعة أمر الساقية يقوم صاحب الكأس بإطلاق العنان لصوته ويصدح بأغنية (علم)، يقاطعها الحاضرون بالصياح في حالة استحسانهم لمعانيها كما يقال عادةً جاءت على (الفاهق)..

❋❋❋

كانـــت أضـــواء الصباح قد بدأت تزيح عتمة آخر الليل عـــندما خـــرج سي فرج فضل من بيته يحمل السلم على كتفه كعادتـــه كل صباح ليقوم بإطفاء ضوء الفنار الذي تنتهي مهمته بعد ظهور النهار، وما كاد سي فرج يخطو خطوات في الشارع حتـــى اعتـــرته الدهشة وهو ينظر إلى موضع الفنار الذي بدا خالـــياً، لقد فوجئ باختفاء الفنار واستغرب ما حدث، فهذه أول مـــرة يُنـــزع فيها من مكانه، فمن تراه تجرّأً على سرقته؟ ومن يمكنه القيام بهذه الفعلة الشنيعة؟ فالسرقة تكاد تكون معدومة في

المديـــنة التي يسودها الأمن ولا يوجد بها مجرمون محترفون، ولكن يبدو أن أموراً غريبة طرأت عليها !! وفيما كان سي فرج يتمـــشى فـــي الـــشارع حائراً طرق سمعه غناء وضجيج فتتبع مصدره وتبين له أنه ينبعث من بيت طامية، وأدرك أنَّ في الأمر ســـرًّا، فـــتوجه إلى بيت سي الفرجاني الذي وجده يتهيَّأ لصلاة الـــصبح وأخبـــره بما حصل في الشارع وأسرعا معاً إلى ذلك البيت الذي تقام فيه حفلة غنائية في غفلة من الجيران، وما كادا يـــصلان إلـــيه ويـــدفعان بابه حتى انفتح بسهولة؛ إذ يبدو أن الجماعة في غمرة فرحتهم بذلك المكان نسوا إقفال الباب، فدخلا وتـــوقفا فـــي الـــسقيفة الطويلة يتنصتان، كان الجماعة في تلك اللحظـــة يـــرددون أغنية معروفة لدى العراسة يقول مطلعها: (يا ريم الجليبه كيف اندير، الخفّة عيب والعشق مصيبة ـ كيف انديـــر)، كانوا يجلسون في ضوء الفنار الموضوع على حافة الـــسدّة الخشبية وهم في حالة انسجام وطرب، وفي ذلك الضوء المنبعث من الفنار تمكن سي فرج وسي الفرجاني من معرفتهم، مفـــتاح الجطف ومحمد وصالح وعطية ورمضان، كانوا هؤلاء الخمـــسة من سكان الشارع، ولم يكن بينهم غريب سوى المرأة التـــي كانـــت تدلـــق لهم الخمرة في الكؤوس وتمررها بينهم، وفوجـــئ الجماعـــة بصوت سي الفرجاني يتنحنح فتوقفوا عن

الغناء وقد أذهلهم الموقف الحرج وران عليهم الصمت، فلم يعد يسمع منهم سوى بعض التأوهات والزفرات، وصرخ فيهم سي فرج وهو في حالة غضب شديد :

- ويـــن تعرفوا العيب اللي اتغنوا عليه يا سكّاره .، يا سراقة الفنار ؟!

وقال سي الفرجاني وهو يحوقل متأسفاً :

- مـــش عـــيب عليكم تعتلوا حوش الجيران هكي حشمتوا بهلكم ؟!

وقال سي فرج متوعداً :

- تـــوا اتـــشوفوا شـــنو اندير لكم ياللي ماتستحوش على وجوهكم ...

وهـــنا تحرّك مفتاح الجطف بصعوبة، وقال في كلمات مـــتقطعة، فهـــو كـــان معروفاً عنه أنه يعب من الخمر في كل مناسبة حتى يفقد وعيه ويبول في سرواله :

- شنو تقدر، ادير لنا، يا عنتر، يا بن شداد ..

وردَّ عليه سي فرج مهدداً في سخرية :

- توا نعدي نشكي فيكم، وانحطك في دار خالتك يا افتوحه !

قـــال سي فرج ذلك ردّاً على تهكم مفتاح الجطف وخرج مـــسرعاً ليأخذ طريقه متوجهاً نحو مركز البوليس للإبلاغ عمّا حـــدث، وليكن ما يكون، وأدرك سي الفرجاني بفطنته خطورة الأمر إذا وصل الخبر إلى البوليس، ففي هذه الحالة يتم القبض علـــى الجماعة الخمسة وصاحبتهم وتقديمهم إلى المحكمة التي لابـــدّ تدينهم وتحكم بسجنهم، ويترتب على ذلك ضرر بالغ بهم وبعائلاتهم، إضافةً إلى حدوث فضيحة تُسيء إلى سمعة الشارع الـــذي عُرِفَ سكانه، رغم فقرهم، بأنهم أناس طيبون ولم يحدث أن ظهـــر من بينهم لص يزاول مهنة السرقة أو الاعتداء على حرمات البيوت، وإذا لم يحسم هذا الموضوع بطريقة ودية فإن عواقـــبه ســـتكون وخيمة على الجميع، كانت هذه هي الخواطر التـــي دارت برأس سي الفرجاني ودعته إلى اللحاق بسي فرج لإثـــنائه عـــن قـــصده وإقناعه بالعدول عن الشكوى التي تهدد علاقـــات الجوار الطيبة بالانفصام، ولم يدع سي الفرجاني هذه الفرصة تفلت من بين يديه فأسرع يركض في إثـــر سي فرج الذي انعطف إلى الطريق الغربي يحث خطاه مسرعاً، وأخذ سي الفرجاني ينادي على سي فرج وهو يركض خلفه وصوته يبدد

هدوء الصباح، إلاَّ أن الأخير لم يسمعه، كان قد ابتعد، وزاد سي الفرجانـــي مـــن ســـرعته وهـــو يكرر النداء الذي لفت أنظار الجـــزارين الـــذين بـــدأوا يـــتوافدون علـــى (سوق السعي) و(المجزرة القديمة) في ذلك الصباح الباكر، وبعد مجهود شاق تمكّـــن ســـي الفرجاني من إدراك سي فرج الذي كان قد وصل بمحـــاذاة محطـــة توزيع المياه، وهكذا فوجئ سي فرج بيد سي الفرجانـــي القـــوية تمسك بذراعه وتوقفه عن السير، كان سي الفرجاني يلهث من أثر المجهود الذي بذله في العدو السريع ولم يـــستطع أن يـــتكلّم، ونظر إليه سي فرج وأدرك بقوة ملاحظته ماهية الأمر الخطير الذي دعا سي الفرجاني إلى الجري وراءه مسافة طويلة دون توقف، ولهذا لم يجادل أو يحاول الإفلات من يديـــه، وهكذا سحبه سي الفرجاني من ذراعه فانقاد له صامتاً، وعادا معاً يحثان الخُطى في طريقهما إلى شارع بوخمسين .

❋❋❋

مولد يوم جديد

كانـــت الـــشمس لـــم تـــشرق بعد عندما علت بين مخيم المعتقلـــين صرخات مولود أيقظت بعض النزلاء، ولم تلبث أن تـــبدد صداها في فضاء الصحراء الشاسعة، وكان من بين من طـــرقت ســـمعه تلـــك الصرخات الحارس الإريتري الذي كان يـــرابط قـــريباً من الخيمة التي شهدت ذلك المولود، لقد أرهف الـــسمع لعل تلك الصرخات تتكرر إلا أنه لم يعد يسمعها، وأخذ يفـــرك عينيه ويهرش جلده في تكاسل، وبينما بدا الصمت يلف المخـــيم بعد تلك الصرخات كان هو لايزال يشعر بوقعها على نفـــسه، وما كادت الشمس تشرق على تلك التلال الرملية حتى التقط البندقية التي كانت مسندة إلى عمود خيمة الحراسة وانحدر نحـــو الخيمة التي انبعثت منها صرخات مولود جديد، وتوقف قلـــيلاً يـــستمع إلى الأنين الصادر عن جسم واهن قبل أن يرفع (الـــرواق) بـــرفق ويطل بوجهه الأسمر داخل الخيمة، حيث كانـــت هـــناك امـــرأة هـــزيلة ذات وجه ضامر تكسو وجنتيه الـــشاحبتين جـــدائل الشعر الأسود المفتول بخيوط من الصوف

المصبوغ بلون الشعر الذي يسمونه (العقوص)، كانت تلك المرأة تمسك الطفل الذي لم يمر على مولده سوى ساعة وتلصقه بصدرها وهي تعصر ثديها الهزيل تبحث له عن قطرات من الحليب تسكت صراخه الواهن، بينما جلست بجوارها عجوز ترفع يديها المعروقتين إلى السماء وتتمتم ببعض الأدعية، وأخذ الحارس يجيل النظر في زوايا الخيمة، ورأى رجلاً عجوزاً كفيف البصر يحتضن طفلة صغيرة كانت ترقد في حجره وقد بدا عليه الاهتمام وهو ينصت إلى صراخ الوليد بكل جوارحه، وتفوّه الحارس بعبارات لم يفهم منها أهل الخيمة سوى قوله: (الله كريم، الله كريم،)، ثم أسدل رواق الخيمة ومضى إلى مكانه، ورغم ما في كلمته من معنى الشفقة والرحمة إلا أن حواء انتفضت من وقعها على نفسها لصدورها عن شخص لم تعرف سوى أن لهجته تدل على أنه (مسوعي) واحتضنت وليدها بقوة .

عندما جلس ذلك الحارس في مكانه أخذ ينظر إلى أبراج المراقبة والأسلاك الشائكة التي تحيط بذلك المعسكر المقام وسط بحور من الرمال، ومع أضواء الصباح التي بدأت تغمر الآفاق بدأت تتداعى في رأسه صور تتلاحق لقرية صغيرة في إريتريا

وســـرح بخـــياله بعـــيداً، حـــيث تـــراءى لـــه منظر كوخ من (البوص)، وقد جلست بداخله امرأة سمراء ذات تقاطيع دقيقة ترضـــع طفلاً متعلقاً بصدرها وقد غرز أنامله الدقيقة في ثديها، ثم منظر فرس حمراء وإلى جوارها بجانب الكوخ أدوات حراثة ملقـــاة علـــى الأرض، حيث تركت هناك مهملة ليأكلها الصدأ، وتـــتابعت فـــي رأســـه صور الوادي الكبير المحيط بقريته، ثم تخـــيـل نفسه يركب سفينة تمخر عباب البحر وسط الأمواج المتلاطمة في طريقها إلى بلاده حيث تنتظره زوجته وابنه الذي وُلِـــد يـــوم استدعائه للالتحاق بقوة عسكر إريتريا التي جندها الطلـــيان لـــيأتوا بهـــا إلى هذه البلاد التي يجلس فوق ترابها، ويـــشاهد مـــا يفعـــل بأهلها دون أن يدرك مغزى وجوده فيها، ومضت فترة لا يعرف مداها وهو يفكر في أشياء كثيرة مختلفة حتـــى دوّى صـــوت (الـــبوق) ليبدد الصمت الذي ران على المعـــسكر، ويعلن عن بداية يوم جديد كالأيام المتكررة بما فيها من مشاهد القهر والتعذيب، وأمال طربوشه الأحمر على جبينه وهـــرش مؤخرة رأسه ثم زفر بشدة وانطلق إلى نقطة المراقبة ليـــسجل انـــتهاء نوبة حراسته، كانت الحركة قد بدأت تدب في جميع أنحاء المعسكر وأخذت فرق العمل المكونة من المعتقلين الذين قُسِّموا إلى مجموعات تسمى كل واحدة (الفيلة)، ويشرف

عليها أحد أفراد شرطة الكرابينيري من المواطنين تباشر عملها اليومي المعتاد، دفن الموتى الذين يزداد عددهم بين المعتقلين مع مطلع كل شمس بسبب الأمراض الفتاكة، تجميع القمامة وردمها في حفر معدة لها، تنظيف المراحيض، نقل المياه من السيارات إلى الأحواض المنتشرة بين الخيام، وكانت كلما ارتفعت الشمس ازدادت حرارتها شدةً على أجسام الرجال الذين أنهكهم العمل المضني فيتسرب إليهم الملل وتفتر همتهم، وسرعان ما يلاحظ المشرفون ما حلّ بالرجال من تعب فيقومون بمهمة الجلد وترتفع السياط لتهوي على الأجسام في قسوة وفظاظة ويختلط أنين الرجال الذين تتصبب جلودهم عرقاً بأصوات السعال الحاد الذي يمزق صدورهم، وتظل الرمال تمتص بصاق المصدورين وتبتلع في جوفها جراثيم الأوبئة، ويظل الذباب يعشش على الوجوه التي غيرت ملامحها الأمراض ..

***

منذ أن أُحضر المعتقلون من نجوعهم وقراهم إلى هذه الصحراء القاحلة وحُشِروا في هذا المعتقل الذي تحيط به الأسلاك الشائكة، ويتداول على حراسته عساكر من إريتريا مدججون بالسلاح، كان المواطنون يُطلقون عليهم اسم

(المسوّعة) نسبة إلى اسم مدينة في إريتريا يتردد ذكرها بين أولئك العسكر، منذ ذلك الحين والحالة تسير من سيئ إلى أسوأ، فقد انتشرت الأمراض وأدت إلى حصدّ الأرواح بسبب سوء التغذية والجوع وأعمال السخرة، هكذا كانت تمر الأيام شديدة الوقع على النفوس، حتى سرت ذات يوم إشاعة بأن هناك خبراً مهماً سيصدر عن إدارة المعتقل، وظل المواطنون يترقبون ذلك الخبر بحذر شديد، فهم منذ أن جُلِبوا إلى هذا الحبس لم يسمعوا خبراً مهماً يخفف عنهم المعاناة، ولم يطل الانتظار فقد أشرقت الشمس على يوم لم يكن في الحسبان، فمنذ الصباح أعلن عن صدور أمر من الحاكم العام في ليبيا يفيد بأن الحكومة الإيطالية بعد أن قضت على حركة التمرد في الجبل الأخضر وفرضت السلام في جميع أنحاء برقة قررت إغلاق جميع معسكرات الاعتقال وإطلاق سراح جميع المعتقلين، واستقبل المعتقلون هذا الخبر بالارتياح وهم يتطلعون إلى العودة لأراضيهم وممتلكاتهم، كانت أكثر العائلات فرحاً عائلة (سي غيث) وفي مقدمتها حواء التي أخذت تضم ابنها (مراجع) إلى صدرها وقد انبعث من عينيها بريق الأمل بعد يأس طال مداه، ثم أعطت الطفل إلى جده الضرير الذي احتضنه وأخذ يتحسس ملامحه بيده وقد غمره شعور من الراحة، وأدركت (حواء) ما يجول بخاطر عمها

غيث الذي فقد بصره إثر مقتل ابنه صالح، وأخذت الذكريات تمر تــباعاً فـــي رأسها، بدأت بذلك اليوم المشؤوم الذي داهمت فيه قوات الاحتلال نجوع الجبل الأخضر وقامت بترحيل القبائل إلى المعـــتقلات التي أعدتها لحبسهم، كان الوقت ظهراً وكانت هي تعـــد طعام الغداء لزوجها الذي عاد لتوه من الغابات بعد أن قام بتـــسليم المؤن التي جمعها سكان النجع إلى قيادة المجاهدين في معاقـــل الجبل عندما داهمتهم قوات السواري المؤلفة من سلاح الفرســـان والمدعـــومة بطابور من المشاة من عساكر إريتريا وبعض المرتزقة، وفي لمح البصر أحاطت تلك الجحافل بالنجع وتقدّم القائد الإيطالي بجواده حتى اقترب من البيوت وأخذ يتكلم باللغة الإيطالية، قال كلمات كثيرة ترجمها ملخصة أحد المرتزقة كـــان فحـــواها أن حكومة صاحب الجلالة ملك إيطاليا المتوج بعناية الله قررت وضع حد نهائي لتمرد العصاة بهذا الجبل وفي سبيل تحقيق هذا الهدف رأت أنه من الضروري ترحيل النجوع إلى أماكن بعيدة لحرمان أولئك العصاة من الدعم الذي تقدمونه لهم، ونزل هذا القرار الجائر على نفوس المواطنين كالصاعقة، لم يستطع أحد أن يحتج، وليس في إمكان أحد أن يعترض وهم محاطون بقوة لا قِبل لهم بمواجهتها. وأمر ذلك القائد المواطنين بالخـــروج من البيوت والوقوف في صف بالعراء، ثم أشار إلى

عــساكر المــسوّع بتفتيش (بيوت الشعر) وسرعان ما اقتحم أولــئك العــساكر هــذه البــيوت وأخذوا يعتدون على الرجال بالــضرب ويخلعــون الحلي من آذان النساء ويسلبون الأمتعة، وظلت بيوت الشعر تتهاوى تحت سنابك الخيل التي باشرت قوة الخــيالة في هدمها، هذه ذكريات ذلك اليوم المشؤوم الذي تــمّ فــيه تــرحيل النجوع إلى عدة معتقلات من بينها هذا المعسكر الذي يسمى بــ(حبس العقيلة) والذي شهد مقتل زوجها ظلماً، وما كادت تصل إلى هذه الواقعة حتى تداعت في ذهنها ذكريات الفاجعــة الثانية التي أعقبت عملية الترحيل والتي كانت بالنسبة لهــا أعمق تأثيراً في نفسها لأنها تذكرها بزوجها، كان زوجها (صــالح) قــد أراد ذات يــوم أن ينزع السوط من يدي أحد عــساكر (المسوّعة) الذي كان منهمكاً في ضرب المواطنين الواقفين في طابور أمام خيمة التموين انتظاراً لأخذ حصتهم من الشعير، لقد حاول صالح انتزاع السوط غير أن قواه المنهكة لم تــساعده علــى ذلــك، حيث استطاع العسكري أن يدفعه بعيداً ويــنهال عليه ضرباً بالسوط الغليظ ولم يتركه حتى سقط مغشياً علــيه، وعندما نقل إلى الخيمة لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة بــين يدي والده الذي فقد ما تبقى في عينيه من نور البصر إثر تلك الحادثة، كانت هاتان الفاجعتان قد تركتا رواسب عميقة من

الحـــزن في قلب حواء، رواسب أثارتها الذكريات في ذلك اليوم الذي أُعلن فيه خبر الإفراج عن المعتقلين، ذكريات مريرة ظلت تتداعـــى في ذهنها حتى أيقظها صوت عمها الضرير الذي كان يحتـــضن حفيده الذي يرى فيه امتداداً لابنه صالح والذي أطلق عليه اسم (مراجع) يوم مولده ..

– ردِّي بالك من مراجع يا حواء، هذا ما خلّى الزمان يا بنتي

والتفتت حواء إلى داخل الخيمة بعد أن كانت تجيل النظر لترى ما يجري وسط المعسكر، فرأت عمها يمرر يده المعروقة علـــى عينيه كأنه يبحث عن دموع لم تسعفه في تلك اللحظات التـــي اهتـــزّ فيها قلبه وهو يحتضن حفيده في حنان، كما رأت عمتها التي كانت هي الأخرى تحتضن حفيدتها التي تنظر إليها فـــي اســـتغراب وهـــي ترى الدموع التي تسيل على وجنتيها المغـــضنتين، وبيـــنما لم تعرف الطفلة سبب تفجر الدموع من عيني جدتها، كانت حواء قد أدركت أن العجوزين تذكرا ابنهما الوحـــيد الـــذي لقـــي حتفه على أيدي الجلاد المتوحش، وطافت بذهنها صورة زوجها صالح وساورها شعور بأنه لم يمت وأنه لا يمكـــن أن يختفـــي من حياتهم، كانت تشك في موته رغم علمها بذلك، واستسلمت للأوهام وقد غطت عينيها ضبابة من الدموع ..

***

كانـــت الحــركة تجري على قدم وساق يوم الإفراج عن المعتقلـــين، وقد بدأ النشاط يدب بين الرجال الذين لازالت بهم بقية من العافية ولازالت قواهم البدنية متماسكة بعد أيام المعاناة الطــويلة التي أكلت جهدهم، وتمّ تحميل السيارات بما تبقى من أمــتعة قلـــيلة لا تعدو بعض الملابس القديمة والأغطية البائدة وأدوات الطـــبخ، لقد كانت أحاديث الرجال والنساء متباينة في ذلك اليوم، وكانت مشاعرهم متناقضة، منهم من كان يعصر قلبه الحــزن على الأقارب الذين أودعوهم المقابر الجماعية في تلك الفيافـــي، ومنهم من غمره شعور بالارتياح وهم يرون في نجاة القلـــيل من الرجال وبقائهم على قيد الحياة ما يعوّض المفقودين فـــي تلـــك المأساة، وانتهت عملية الإجلاء وتحركت السيارات بحمـــولاتها مـــن الـــرجال والنساء والأطفال وهي تغادر ذلك المعتقل الذي بدأت الرياح تعبث بما بقي فيه من خيام كانت منذ ســـاعات تعج بالحركة ثم أصبحت خاوية كأنها لم يسبق لها أن استضافت أناساً أُجبروا على سُكناها بالقوة، الشيء الذي لم ينتبه إليه أحد من ركاب تلك السيارات الكبيرة وهي تغادر بوابة ذلك المعتقل الرهيب الذي سمي (حبس العقيلة) هو الجندي الواقف

أمـــام نقطـــة الحراســـة وقد بدت على وجهه الأسمر علامات الارتـــياح، وانفرجت أسنانه البيضاء عن ابتسامة عريضة وهو ينظـــر إلـــى الأطفال الجالسين في أحضان أمهاتهم كأنه يبحث بيـــنهم عـــن طفـــل أسمر تركه في بلاده البعيدة، ولم يكن ذلك الجندي سوى الحارس (المسوّعي) المسلم الذي أيقظه صراخ الصغير (مراجع) في ذلك الفجر الذي شهد مولده .

***

أبو سعدية

لازلــت أذكر ذلك الحي الشعبي الذي يقع خارج السور القــديم في الطرف الشمالي من المدينة، وهو الحي المعروف باســم (زرايــب العبــيد)، والذي يكوّن مجموعة من أكواخ الصفيح التي تسكنها جماعات من القبائل المنحدرة من أصول سودانية وأفريقية، كان لابدَّ لكل من يريد دخول ذلك الحي أن يجــتاز القوس الحديدي العالي الذي يتوسط جدار السور الذي شيده الطليان، وكان بعد المدخل الرئيسي للمدينة أيام المقاومة الوطنــية قــبل أن يــتآكل باباه الكبيران بفعل الصدأ المتراكم علــيهما ويفقد قيمته مع مرور الزمن وتطور أحوال المدينة، كــان هذا الحي يتكوّن من عدة صفوف متراصة من الأكواخ المعــدة من صفائح (الزينقو) تفصل بينها ممرات ضيقة لها أبــواب من نفس الصفيح تقفل بسلاسل حديدية تتوسطها أقفال كبيــرة كــل لــيلة ولا تُفتح إلاَّ في الصباح الباكر، وأمام هذه الأكواخ توجد ساحة كبيرة يقع في شمالها سوق صغير مكوّن مــن الأكــشاك الخشبية التي تُباع فيها المواد الغذائية والخبز

والتبغ، وتقع في جنوبها البناية الوحيدة المشيدة بالطوب والإسمنت والتي تتصدر بطلائها الأبيض غابة من الأكواخ التي صبغها الصدأ بلونه البني الداكن، كان يسكن تلك البناية أحد الإيطاليين الذي أقام بها حانة تحمل اسمه (حانة كورّادو) ظلّت لا تخلو يوماً من الرواد، ففي كل مساء يرتادها الحمالون وعمال النظافة وبعضِ العاطلين عن العمل الذين يقدم لهم السنيور كورّادو الخمر مجاناً لاتقاء شرهم والاستعانة بهم في إخراج المشاغبين من الحانة وإبعادهم عنها، كان ذلك الحي الذي يبدو معزولاً عن بقية أحياء المدينة لا يمكن لأحد من الغرباء الدخول إليه من جهة الغرب إلاَّ إذا كان مدعوًّا لحضور عقد زواج أو ختان ومشاهدة العروض الفنية التي تُقام في ساحة تقع عند نهاية صفوف الأكواخ في جهة الشرق كلما حلّت مناسبة شعبية أو دينية ففي تلك المناسبات تقوم كل قبيلة بعرض فنونها التقليدية فتصطف حلقات الرقص على إيقاعات (الدنقه) والتصفيق المصاحب لحركات الراقصين والراقصات كما تنطلق الأصوات الجماعية بالغناء، كانت الحفلات في المناسبات الدينية تُقام عادةً في فترة ما بعد الغذاء وتنتهي عند الغروب، أما حفلات الزواجِ فإنها تُقام داخل

الأكـــواخ وتستمر حتى ساعات متأخرة من الليل تحييها فتيات ذوات أصوات جميلة يجدن أغاني الفن المزركاوي منها أغنية يقـــول مطلعهـــا: « لو يضربوني بالجريد وسلّه، ولو يكتفوني بالحديـــد انحلّـــه »، كـــان يتعذر على الغرباء الاستمتاع بتلك الأصـــوات العذبـــة التي يتردد صداها وسط ذلك الحي الغني بالفـــنون المتعددة، وكان بعض المحبين لذلك الغناء يسترقون السمع من وراء الأكواخ، كانت هذه طريقة أهل حي الزرايب فـــي حفلاتهم الدينية والتقليدية، أما حياتهم اليومية فكانت تبدأ عندما تفتح الأبواب في الصباح الباكر وتدب الحياة بين السكان فيخرج الحمالون في طريقهم إلى الميناء، وتخرج بعض النسوة اللائـــي يتجهن إلى داخل المدينة، منهن من تحمل على رأسها (قفّـــة) مليئة بالفول الساخن مغطاة بعناية حتى يحتفظ الفول بسخونته، ويقبل على شرائه تلاميذ المدارس، ومنهن من تحمل علـــى رأســها (قفـــة) معبّأة بالأعشاب الطبية ذات الأسماء المتـــنوعة لبـــيعها فـــي سوق الجريد، حيث يتواجد باعة تلك الأعشاب الذين تعوّدوا الجلوس أمام ضريح سيدي بالخير الذي يتوسط السوق.

❋❋❋

مـــن هـــذا الحي الشعبي المعروف بالزرايب كان يخرج عجـــوز اشتهر بلقب (بوسعدية)، لا يعرف أحدٌ اسمه الحقيقي ولـــم يفكر أحد في معرفة سيرته الذاتية، كان رجلاً قصير القامة نحـــيل الجسم تزين وجهه البشوش لحية بيضاء خفيفة وابتسامة مـــشرقة توحي بطيبة قلبه، وكان يرتدي ملابس مرقّعة تحيط بها عقـــود مـــن العلب الفارغة منها علب (البويّة) و(السردين) و(الطمـــاطم) مـــن مختلف الألوان والتصاميم، تغطي صدره وتلـــتف حول ذراعيه وساقيه، كما كان يحيط خصره بحزام من الجلد الأحمر تتدلى منه عدة أنواع من عظام الأغنام، منها عظم الفكين والكتف وغيرهما تظلّ تتأرجح وتُحدث خشخشة كلما أتى بحـــركة، وكان يغطي رأسه بطربوش من الخيش مثبتة به قطع مستديرة من زجاج المرايا تظل تلمع تحت شعاع الشمس، أما أهم أدواتـــه فهي (القيثارة) البدائية التي تشبه (الربابة) بها أربعة أسلاك معدنية، هكذا كانت هيئة بوسعدية بخصوصيتها التي يطل بهـــا علـــى السوق في شارع بن عمران فيزدحم حوله الصبيان يـــتابعون حـــركاته باهـــتمام وإعجاب كلما حضر وأخذ يداعب القيثارة فترسل الأنغام التي يشرع في الرقص على إيقاعاتها وهو يـــضرب الأرض بِخُفّه المرقّع ويغني ويدور حول نفسه بحركة بطيئة، فيختلط صوت القيثارة مع خشخشة العظام وقرقعة العلب

الفارغة، كان يحضر أغلب الأحيان في أيام الجمع وكان مواظباً على الحضور في أيام الأعياد والمواسم (الكبائر) التي يجد فيها إقــبالاً شــديداً على ما يقدّمه من فن يدخل السرور إلى النفوس خاصــة عندما يندمج في الغناء بعفوية وهو يهتز بجسمه النحيل، رغــم اختلاط كلماته مع ما تصدره بقية الأدوات وتعذر فهمها، وهكــذا تعــود الناس على رؤيته والاستمتاع بما يقدّمه من الفن الــشعبي الأفريقــي الــذي أطربهم وأجلى عن نفوسهم الأكدار وأنساهم متاعب الحياة ومشاكلها، فكان أصحاب الدكاكين يعطونه الــنقود المعدنية من فئة (النيكل) و(الصولدي) الكبير فيتلقّفها ويلقــيها فــي جوف القيثارة وهو يغني: (مولاي سلّم اسيادي، مــولاي نجّي أولادي)، ويدور حول نفسه بسرور بين الصبيان والأطفــال الــذين كانــوا يصاحبونه بالتصفيق الذي ينسجم مع موسيقاه وهم في أحسن حالات الطرب .

❊❊❊

هكــذا ظلَّ بوسعدية محافظاً على ظهوره لا يغيب عن مشاركة الصبيان والأطفال في أفراحهم ولهوهم وحتى الكبار ممــن كانوا يتابعون شطحاته كانوا يرون فيما يقدمه لهم نوعاً مــن التــسلية تُبعد عنهم الملل الذي يملأ حياتهم التي تتشابه

أيامهـــا وتمر ساعاتها مشحونة بالقلق، وأخذت الأيام تمر في رتابـــة والـــناس ينتظرون إطلالة بوسعدية للاستمتاع برقصه وغـــنائه، وكما كانوا ينتظرون حضوره كان هو الآخر يفرح بلقـــائهم كلما التفوا حوله في ساحة السوق أو بأحد الشوارع، كان الشيء الوحيد الذي يزعجه هو ما تقوم به بعض الأمهات اللائي يخوّفن أبناءهن بالنداء عليه ليحضر إليهم ويأكلهم إذا لم يطيعوا أوامرهن، فهو لا يحب أن يظهر بصورة الوحش أمام الـــصغار الـــذين تعوّدوا الاستئناس به، وهذا ما حاول بعض الكـــبار إبعـــاده عـــن تفكير بوسعدية لأنهم لاحظوا اطمئنان الأطفال إليه كأنَّ شيئاً خفياً يجذبهم إليه، فقد كان مقبولاً لديهم لِمـــا يتـــسم بـــه مـــن بـــشاشة تضيء ملامحه وتوحي بالود والمؤانـــسة، فهـــو حتـــى عندما يحاول أحد الأطفال المساس بأدواتـــه كـــان يبتسم ويعاتبه بقوله: (رد بالك يا حمرة وذن، بوســـعدية يقـــرص الـــوذن)، وعند ذلك كان جميع الأطفال يـــضحكون ويـــصفقون طـــرباً وحبوراً فيجعلونه أشد حماساً لإطـــرابهم، وهكـــذا ظلّت الأمور تسير على هذه الوتيرة بين الناس الذين أنساهم بوسعدية هموم الحياة وتقلباتها حتى حدث مـــا لـــم يكـــن في الحسبان، لقد اختفى بوسعدية فجأة، لم يعد يحـــضر إلـــى السوق والشوارع كما اعتاد أن يفعل، واحتار

الـــناس في سر اختفائه، منهم من قال لقد عجز بوسعدية عن الحضور بسبب تقدمه في السن، ومنهم من قال لابدّ أن يكون داهمـــه المـــرض فألزمه الفراش، وقيل حتى إن بوسعدية لقي وجه ربه، ولم يجد أحد من المسؤولين ما يؤكد صحة أقواله، لقـــد تحسّر الناس على فقدانه وظلّ سر اختفائه غير معروف لـــدى الجميع، وإن ظلّت ملامح شخصيته الفارقة التي ظهرت فـــي فترة من فترات الزمن وزاحمت الأحداث تشغل حيزاً من ذاكرة المدينة العريقة.

***

الاختيـــار

مفاجأة غريبة الوقع تمثلت في خبر غير مسبوق لم يخطر بـــبال أحد من سكان شارع باله الذين تلقوا هذا النبأ بين مصدّق ومكـــذّب، خاصـــة جماعة (الشوكة) الذين تعودوا الجلوس في زاويـــة الـــشارع المحاذية لشارع السوق، وهم الثلاثي المعروف باســـم (قـــيادة الأحوال)، لقد انتشر الخبر في الليل بعد صلاة العـــشاء، ولما لم تتح الفرصة لجماعة الثلاثي بالتحقق من صحة ذلـــك الخبر فقد ظلوا يترقبون طلوع الصباح بفارغ الصبر حتى يهرعوا إلى الشارع لتقصي الخبر ومعرفة ما إذا كان صحيحاً أم أنه مجرّد إشاعة أطلقها أحد ظرفاء الحي، وفي الصباح أخذ كل من حمد الفحام وأبوعقيلة وأبو الصادق، وهم الثلاثي المتخصص فـــي تتـــبع أخـــبار الحي يستفسرون من الجيران ومن أصحاب الدكاكـــين والمقاهي وحتى من المارة الذين لا علاقة لهم بالخبر ولا يـــربطهم بـــذلك الـــشارع سوء قضاء حاجاتهم من الدكاكين لقـــربها من مساكنهم، كان ما سمعه سكان الشارع لا يعدو خبر زواج حمـــودة بن عبدالله الذي كان مضرباً عن الزواج دون أن

يعــرف أحــد سبباً لذلك التصرف المستهجن في المجتمع، وبعد تقصي الحقائق التأم شمل الثلاثي في المكان المعتاد ..

- هــذا يا سي حمد اللي كنت اتقول عليه يموت وما يجوز، آهو دارها !

- مازلت عند قولي والله ما هو حاق وليه يا الصادق ..

- أنــا خبّرنــي أخــوه الدوّة صحيح مش كذب الراجل وتى وصار منه ..

- ارفس يا بوعقيلة كان صار منه اضرب في هذين مقص !

قــال هذه الكلمة في إصرار وهو يمسك بشاربه الطويل ويفتله ..

- بالكــي هذا وين سخّر له ربي ما اتعجب في شيء يا سي حمد ..

- لو جرى ما جرى ماني امصدّق هالخبر يا بوالصادق ..

- أنــا انقــول كل مر الراجل يسير منه ما يبيش يقعد ديمه اشكابلي ..

- نبقـــى ما نيش حمد الفحام كان اسمعتو زغروده في حوش حموده يا بوعقيله .

❋❋❋

ها هي قد هلّت ليالي الفرح وانطلقت الزغاريد في بيت آل بـــن عـــبدالله الـــذي ازدان بعناقيد الأضواء، وبدأت حفلة العـــزومة التـــي دُعِـــيَ إليها الضيوف تُقام وسط ذلك الحوش الفـــسيح المفروش بالحصران الملونة، والحاضرون يلتهمون الطعام المكوّن من الرز المغطى بالحمص والزبيب، ويتبادلون الأحاديث التي لا تخلو من الاستغراب والتعجب، تارة همساً، وتـــارة أخـــرى جهـــراً، هكذا كان أغلب الحاضرين بما فيهم الطاقم الثلاثي المعروف بأصحاب الشوكة عدا واحد منهم هو سي حمد الفحام الذي ظلّ صامتاً لا يعلّق بشيء ولا يتكلم كما اعـــتاد في كل المناسبات التي تُقام بذلك الشارع الذي يقيم فيه مـــنذ وعي على الدنيا، كان يسيطر عليه شعور بالكآبة نتيجة لإخفـــاق توقعاته باستحالة زواج حمودة بن عبدالله الذي كان على مدى سنوات طويلة يرفض الزواج رغم تجاوزه الثلاثين عامـــاً، والـــذي كـــان هو الأعزب الوحيد بين زملائه سائقي القطارات الذين يعملون في مصلحة السكة الحديدية، كان سي

حمد الفحام لا يدرك أن حمودة قد أقسم أن لا يتزوج إلاَّ الفتاة التـــي يـــراها بعينيه ويرتضيها زوجة له، وظلَّ مصراً على رفــض الزواج بالطريقة المتبعة في المجتمع، اقتناعاً منه بأن الزواج عن طريق الخاطبات عادة عقيمة أوقعت بعض الناس فـــي مشاكل انتهت بفشل الزواج بسبب سوء اختيار الخاطبات اللائـــي لا يـــثق في سلوكهن لِما فيه من محاباة أحياناً وإيثار للأقارب أحياناً أخرى، حتى الأهل والأقارب لم تفلح مساعيهم فـــي إقـــناعه بالعدول عن رأيه، لكن أنى له أن يحقق رغبته ورؤيـــة الفتاة قبل الزواج؟! هو أمر محظور فرضته عادات أهلـــنا التي توارثوها جيلاً عن جيل؟، هكذا كانت حالة حمودة بـــن عبدالله حتى هذه المناسبة التي تُقام فيها حفلة العشاء، فما الذي حدث وجعله يقرر الزواج متأخراً؟ هل أذعن لرأي أهله ورضـــي بالواقع؟ أم أنه غير رأيه بعد معاناة طويلة لا طائل من ورائها؟ كانت هذه التساؤلات تدور في أذهان زملائه وهم يتحلقون حول مائدة العشاء ..

***

هكذا ظلَّ أمر زواج حمودة بن عبدالله لغزاً لا يدرك أحد معـــناه، ومن كان في مقدوره أن يدرك أن حمودة راودته فكرة

غريبة رسخت في ذهنه حتى حقّق بها أمنيته وبلغ بها غايته ؟! وكـــان مـــن نتيجـــتها هذا الزواج المفاجئ الذي لم يعرف أحد الطـــريقة التي تحقق بها سوى سي جاب الله الوراد الجالس في ركـــن المـــربوعة، والذي كان يراقب حمودة وهو يقوم بتقديم أوانـــي الأكل وزجاجات المشروب للضيوف ويصب الماء على أيـــديهم لغـــسلها بعد فراغهم من الأكل، وكان يبتسم كلما التقت عيناه بعيني حمودة الذي كان يبادله الابتسام، كانت الفكرة التي راودت حمـــودة وظلّـــت تلح عليه لمدة طويلة تتجسم في شكل تساؤلات ربما لم يفكر فيها أحد قبله،

- لمـــاذا يكـــون لـــبعض الرجال الحق في رؤية النساء دون حجـــاب رغـــم أنهـــم غرباء عنهن؟ ولماذا يدخل هؤلاء الـــرجال إلى البيوت دون استئذان؟ وكيف يسمح لهم أهل الحي بذلك؟

لقـــد جـــرت العادة بمنع النساء من الظهور أمام جميع الـــرجال بـــدون غطـــاء عدا المحارم، إلاّ أنه لاحظ، كما هو معروف في مدينتنا الطيبة، أن هناك فئتين أو ثلاثة من الرجال، يغض النظر عن دخولهم للبيوت ولقائهم بالنساء اللائي يظهرن أمامهم دون حجاب، ولم يجد مبرراً لهذه العادة سوى أن هؤلاء

الغرباء قد اكتسبوا هذا الحق بمجرد أنهم خدّام يترددون كل يوم علـــى الشوارع بحكم عملهم، فمنهم البائع المتجول الذي يحضر لـــوازم النـــساء مـــن أدوات الزينة وأسلاك الخياط والأمشاط وغيرها، والكناس الذي يجمع القمامة، والورّاد الذي يجلب المياه للأحـــياء التـــي لم تعرف الحنفيات بعد، وإذا كان هذا ما جرت علـــيه العـــادة عندنا فلماذا لا يستغل هذه الظاهرة المنتشرة في المديـــنة؟ لمـــاذا لا يجرب حظه إذ ربما عن طريق هذه العادة يـــتمكن مـــن رؤية الفتاة التي يريد اختيارها بنفسه؟ ولكن كيف يمكـــن المجازفة بدخول بيوت الناس حتى لو تنكّر في شخصية الورّاد؟ ومن يرضى أن يسمح له بتقمص شخصيته؟ ..

لقـــد ظلّت هذه التساؤلات تتدافع في ذهنه دون أن يجد لهـــا إجابـــة، ومـــع مـــضي الوقت كاد ينسى التفكير في هذا الموضوع الذي استبعد إمكانية تحقيقه ..

❋❋❋

لـــولا حـــدوث ما أحيا هذه الفكرة في ذهنه فقد وفدت على الشارع عائلة جديدة تُدعى عائلة (آل البحري)، وأقامت في بيت الحاجـــة (سَـــبَبْ) الذي استأجرته، وتبيـن أن لهذه العائلة بنتًا

وحـــيدة تحدثت عنها نساء الشارع بما فيهن والدته اللائي أُعجبن بحـــسنها وأخلاقهـــا ومقدرتها على إدارة شؤون البيت عندما قمن بأداء الزيارة لتلك العائلة للتهنئة بالمسكن الجديد كعادة الجيران، لقد أحـــيت هذه العائلة في ذهنه الفكرة التي طالما طافت بخياله وأرّقته قـــبل أن يـــتمكن من صرف النظر عنها فترة من الزمن، فها هي الفكـــرة تعود تلحّ عليه وتشغل باله من جديد وتجعله يفكر، فما هو الحل؟ وماذا في إمكانه أن يعمل؟ ورأى أنه لابدَّ من التصرف إما بترك الفكرة نهائياً وإما بالمجازفة في تنفيذها، وبعد تفكير اقتنع أنه لا سبيل إلى تركها وعوّل على التحضير للقيام بتنفيذها مهما كانت الـــصعوبات، وقرر تقمص شخصية (الورّاد)؛ لأنه هو الشخص الوحـــيد المسموح له بدخول البيوت حتى أعماقها دون إذن مسبق، فمـــا عليه إلاَّ أن يفتح الأبواب التي غالباً ما تكون مواربة ويتنحنح حـــسب العادة ثم يدلف إلى الداخل وهو يحمل (التناكات) المليئة بالمـــياه، وظلَّ يتحين الفرص لتنفيذ فكرته بتقمص شخصية الورّاد حتـــى يـــتمكن من دخول بيت آل البحري ورؤية ابنتهم التي شاع خبـــر جمالها بين سكان الشارع رغم ما في ذلك من المخاطر إذا افتضح أمره وساءت سمعته ..

***

فـــي اليوم الذي حدده حمودة لتنفيذ فكرته ارتدى قميصاً أبـــيضَ وســـروالاً عربياً أزرقَ وشنه غطّت رأسه حتى نصف أذنـــيه، كانت كلها من ملابس والده، واستعدَّ لتمثيل الدور فرفع البنطلون حتى ركبتيه وخرج إلى الشارع حافي القدمين يترقب حـــضور عـــربة المـــياه، وأثناء ذلك حضر الكناس يدفع أمامه (البرويطه) وخاف أن يكشف أمره فدخل إلى بيتهم، حتى إذا انتهى الكناس من جمع القمامة وأخذ طريقه نحو محطة التجميع تنفّس الصعداء وأخذ يسترق النظر من وراء الباب حتى تناهى إلـــى سمعه صوت عربة المياه قادمة من مدخل الشارع الغربي ولمـــح سي جاب الله الورّاد يقود الحصان الذي يجر الكروّسة المحمّلـــة بالمـــياه والتي كانت تتمايل وهي تجتاز حفر الشارع المتناثـــرة وتتطايـــر منها دفقات من المياه المتسربة من الفتحة الـــصغيرة في أعلى الخزّان المعدني المستدير (البتيـة)، وما كـــاد ســـي جاب الله يوقف العربة بجوار الحائط ليفسح مجالاً للمـــارة فـــي ذلـــك الشارع حتى أخرج صفيحتين من الصفائح الأربعـــة المعلّقة في عارضة خشبية تحت العربة وأخذ يملؤها بالماء من الصنبور المثبت في أسفل الخزان ثم يطرق الأبواب واحـــداً تلو الآخر كما كان يفعل لمجرد التنبيه، ويدخل محمّلاً بالماء حتى يصل أماكن (أزيار) الماء ..

ظــلَّ حمودة كامناً وراء باب البيت حتى اقتربت عربة المياه مــن بيت (آل البحري) الذي صمم على دخوله، وانتظر حتى دخل ســي جاب الله إلى أحد البيوت الأخرى فأسرع وأخذ صفيحتين من المعــلاق الموجود تحت العربة فملأهما بالماء بسرعة وطرق باب البــيت المقــصود ثم تنحنح ودخل يحمل الصفيحتين الثقيلتين يتمايل بهمــا يميناً وشمالاً والماء يفيض منهما على البلاط، وكان أول من وقــع عليه بصره الحاجة (فطومه) ربة البيت التي كانت منهمكة فــي إعــداد وجبة الإفطار، ولم تنتبه ما إذا كان الداخل هو الورّاد المعــروف أم أنه وجه جديد، بينما انتبهت له ابنتها (عواشه) التي كانــت تنــشر بعض الأغطية على حبل الغسيل لتعرضها للشمس وســط الحــوش، انتبهت عواشه إلى ذلك الشاب واستغربت دخوله المفاجــئ لأنهــا لم تتعود على رؤيته بينما اعتادت على رؤية سي جــاب الله مــنذ أن ســكنوا هــذا البيت، ولم تدر ما تفعل أمام تلك المفاجــأة، هــل تغطي وجهها أمام هذا الوراد الجديد أم تدعه سافراً بيــنما هــو يسترق النظر إليها وهو يفرغ الماء في الزير القابع في زاوية البيت، غير أن خروج حمودة مسرعاً جعلها تعدل عن التفكير فــي تغطية وجهها، وهكذا تخطّى العقبة الأولى ليجد نفسه أمام سي جاب الله الذي كان غاضباً من تصرفه فانهال عليه بالتأنيب والتهديد بافتضاح أمره ..

– مش عيب عليك يا قليل الحياء؟ داير روحك ولد ناس !!

– أنا ما درتش عيب يا سي جاب الله، أنا انريد .، انريد ..

– انــت العملــة اللي درتها ما تخطر حتى عالشياطين، إيش اتريد اتقول ..

– سامحني، الله يسترك، شعفة وتوبة .

– من اللي يسامحك أنا والا العرب اللي تعديت على حرمهم ؟!

ولم يعد في إمكان حمودة الاستمرار في مواجهة غضب ســي جاب الله الذي كان شديد الانفعال، فجرى مسرعاً نحو بيــتهم وهــو يعــصر المــاء الذي بلّل ثيابه، وبينما ظلّت (عواشــه) تستعيد صورة حمودة في ذهنها وهي مستغرقة فــي تفكير عميق، هل يمكن أن يكون هذا الشاب الذي تبدو علــيه مظاهر النعمة وراداً يحترف بيع المياه ؟! ظل حمودة هو الآخر يستعرض صورتها التي لم تفارق ذهنه، لقد بهره جمالهــا الــذي لم يشاهد له مثيلاً سوى في مجلات الأزياء والمــوديلات، ومنذ ذلك اليوم انشغل في الإعداد للفرح الذي كان يحلم به منذ سنوات ..

***

وها هو حمودة يبدو سعيداً وهو يشرف على مأدبة العشاء التـــي أقامها ليلة زفافه على غير العادة المألوفة، مثل ما حدث فـــي الطريقة التي تمَّ بها اختيار الزوجة، لقد كانت حفلة عشاء رائعـــة أعقبـــتها ســـهرة فنـــية أشـــاعت البهجة والسرور بين الحاضرين بما تخللها من الأغاني الشعبية المشهورة التي كانت مـــن تألـــيف وتلحين فنانين من أبناء حي اخريبيش، وعلى هذه الأنغـــام التي ملأت فضاء الحي وأسعدت الأهل والأقارب بليلة مـــن ليالي العمر النادرة التقى حمودة للمرة الثانية بعواشه، كان اللقـــاء الأول لقـــاءً خاطفاً لم يجرِ فيه حديث بينهما فقد اقتصر علـــى اختلاس النظرات المتبادلة من بعيد، أما هذا اللقاء الثاني فقد كان وجهاً لوجه وبقدر ما فيه من فرح طافح على وجهيهما فقـــد بـــدا عليهما نوع من الدهشة وظلا يتبادلان النظرات في صـــمت لم تلبث أن قطعته عواشه وهي تتفحص الرجل الواقف أمامها وهو يرفل في ثياب من الحرير والملف ..

- مـــش انت .، اللي جيت لحوشنا وجبت لنا اميه في غياب سي جاب الله ؟

تساءلت في حياء فلم تستطع أن تنطق العبارة التي تدل على لقب الشخصية التي انتحلها يوم اقتحامه لبيتهم حاملاً إليهم

المـــاء، وأدرك هـــو بفطنته ما أحجمت عن قوله حياءً منه فردّ عليها ضاحكاً :

- قـــصدك اتقولي الورّاد، صحيح أنا كنت وراد ..مرة واحدة في حياتي، مدة ساعة بس!

- ليش درت هكي؟ كنت اتعاون في سي جاب الله ؟

- لا، أنا كنت انريد انحقك بعيني بس، وهذا اللي صار !!

وأطرقت عواشه برأسها ولم تعلّق على ما قاله حمودة، فقـــد عرفت هي الأخرى مغزى دخوله المفاجئ إلى بيت أهلها في ذلك الصباح القريب وهو يتعثر بحمله الثقيل من الماء الذي سالت دفقات منه على بلاط البيت .

❋❋❋

بوك عبدو

كانـــت جماعـــات القبائل المنحدرة من أصول أفريقية قد تعوّدت القيام بزيارة سنوية لضريح سيدي داود، ذلك الولي الذي يتوســـط ضريحه المقبرة الصغيرة المعروفة باسمه في ضاحية البـــركة، فمـــا إن يقترب موعد تلك الزيارة حتى تنطلق النساء للطواف على الأحياء الشعبية في المدينة وطرق أبواب البيوت لجمـــع التبـــرعات وكانـــت ربـــات البيوت اللائي تعودن على الاســـتجابة لطلـــب الزائـــرات كـــل عام يسرعن بتقديم ما في استطاعتهن من الحبوب والدقيق والسكر والشاي والزيت وغير ذلـــك مـــن المواد الغذائية، وهكذا تستمر عملية جمع التبرعات حتى يتجمع لدى منظمي برنامج الزيارة ما يكفي إقامة مهرجان فنـــي كبيـــر حول ضريح ذلك الولي الصالح كما جرت العادة المتوارثة لديهم ..

وفـــي إحـــدى تلـــك الزيارات السنوية بينما كانت تلك الجماعات السمراء قد تجمعت حول الضريح في ساحة المقبرة، حيث كانت كل قبيلة قد كوّنت حلقة خاصة بها وبدأت في القيام

بـــضرب (الدنقه) والرقص على إيقاعاتها المصحوبة بالغناء والزغاريد، وكانت ألحان التراث الأفريقي تتردد في جو المقبرة المهـــيب وتـــستحوذ على مشاعر المتفرجين الذين انبهروا بتلك الاستعراضــــات الحافلة بالرقصات المتنوعة التي كانت تؤديها الفتيات والفتيان برشاقة وحيوية، وبينما كانت أصوات المرددين تختلط مع إيقاعات التصفيق المتواصل والزغاريد المتتالية حدث شيء غير متوقّع أثار فضول الحاضرين، من كان يرقص منهم، ومن كان يتفرج، فقد تناهت إلى أسماع الجميع أنغام مزمار حاد الصوت يصدح بألحان شعبية لم تلبث أن اختلطت مع إيقاعات ذلـــك المهـــرجان الـــصاخب، ولم يلبث أن أطل عليهم في تلك اللحظة رجل أسمر طويل القامة يبدو أنه في سن الكهولة، كان يـــرتدي قميصاً أبيض طويلاً على غير عادة أهل المدينة الذين يفـــضلون القمـــصان القـــصيرة ويلـــف خصره بشملة حمراء عريـــضة، كمـــا يحيط رأسه بعمامة بيضاء ذات طيات كثيرة، وينتعل (ريحية) مطرّزة بخيوط الحرير الملوّن، كان أبرز ما لفت الأنظار (الزكرة) التي يحتضنها تحت إبطه الأيمن وينفخ فيها بدون انقطاع حتى تحتفظ بالهواء الذي يضخه في الزمارة المزودجة المعروفة بالمقرونة المثبة فيها والتي يداعبها بأنامله حتـــى تنـــبعث منها الأنغام الشجية التي تهتز لها القلوب طرباً،

وكان يسير ببطء وكلما اقترب من حشد المهرجان ازداد صوت المقــرونة ارتفاعــاً وازداد اهــتمام الحاضرين الذين أدهشتهم الألحــان الشعبية ذات الطابع المرزكاوي المشهور، فأفسحوا له الطريق ليستقر في وسط المهرجان ويقوم بالرقص فيدور حول نفسه في خفة وبراعة على نغمات الألحان المنوّعة التي يعزفها بطــريقة عجيــبة ملأت الجو بهجة وسروراً، وأثارت مشاعر الحاضرين، حتى جعلت البعض من جماعة القبائل يلتفون حوله ويشاركونه في الرقص وترديد مقاطع الأغاني التي كان يؤديها كلّمــا توقف عن النفخ في الزكرة بين لحظة وأخرى، وضجت ســاحة المقبــرة بالغناء والتصفيق الحاد فاستقطبت الكثير من المتفرجين الذين أخذوا يتابعون ما يجري أمام أعينهم من رقص وغــناء وهم في حالة انسجام مع المقرونة التي تصدح بروائع الفن الوطني، وكان أكثر المتفرجين فرحاً هم الصبيان الذين لم تسبق لهم معرفة بذلك الزمار ولا مشاهدة الزكرة التي أعجبتهم أنغامها فأخذوا يصفقون ويرددون مقاطع الأغاني الجميلة حتى نهاية ذلك العرس الشعبي الكبير مع إطلالة الليل ...

***

لقــد حقق ذلك الزمار المدعو عبدُه نجاحاً تجلّى فيما قدّمه من أغاني ورقص بمهرجان سيدي داود السنوي الذي شارك فيه بالعــزف علـــى الزكــرة وأبهر جميع من حضر في ذلك الحشد الكبيــر بألــوانِ الفن المرزكاوي المعروف بعراقته في الواحات الزاهــرة، وظلّ صدى ذلك النجاح يدوّي في أعماقه، حتى جعله يفكــر فـــي كيفية اتخاذ العزف مهنة يعيش على دخلها بدلاً من البحث عن عمل آخر مماثل لعمله في الواحة التي قدم منها وهو احتراف الزراعة ذات الدخل المحدود، وإذا أراد تجربة حظه في الاعــتماد على المزمار لابدَّ له من بداية أول خطوة وهي زيارة الأســواق والمداومـــة بالغناء في ساحاتها حتى يعتاد الناس على حــضوره ويصبح مشهوراً في المدينة، هكذا بدأ عبدُه يفكر حتى توصــل إلـــى هـــذه القناعة، وقرّر عرض الفكرة على ابن عمه خمـــيس الذي يعمل في كوشة القش بشارع البعجة والذي كان قد استــضافه فـــي بيته عند قدومه من الجنوب، وكان الوقت ظهراً عندما جلس الاثنان يتناولان طعام الغذاء، فقد انتهز عبده الفرصة وحــدّث ابن عمه بما حظي به من ترحيب عند اشتراكه في ذلك المهــرجان الحافل ولاحظ خميس علامات الارتياح البادية على محــيّا ابــن عمه وهو يحدثه بحماس عن حفاوة أهل المدينة به وقرّر أن يقدّم لــه نصيحة قد تفيده في مستقبل أيامه :

- لــو كــان تاخد كلامي يا عبده اتدير كيف ما ايدير الزمار المسمى (المحروق) ..

- مــن هــو المحــروق؟ ووين يزمر في الحيشان والا في الاسواق ؟

- المحروق شايب كبير له زمان ايزمر في العراسي ما فيش حد كيفه، يطرب النسوان ويخلّيهن يشطحن طول الليل ..

- هذا رايك يا سي خميس، تبيني انقعمز وسط النسوان، هدي حاجة ما نقدرش انديرها ولا يقبلوها الرجاله، والا كيف ؟

- ما فيهاش عيب توا الزمار يخش وسط النسوان ويزمر نين يطلـــع عليه الفجر، وما عادش فيه حد ينقّد عليه، الرجالة مش كيف قبل يا سي عبده !

- لا والله كلاً انا ما نقدرش اندير كيف المحروق اللي اتقول عليه، كل حد يعرف اللي تصلح بيه !

***

لم يقتنع عبدُه بما اقترحه عليه ابن عمه خميس، فهو منذ أن حضر إلى المدينة لم يفكر في الاحتراف ولم يخطر بباله أن

يكون زماراً يجلس في البيوت بين النساء بما له من خصوصية غيـــر مألوفة بالمدينة، إلاَّ أن ما رآه من إقبال الناس على الفن الأصـــيل عــندما رقص وغنى في ذلك المهرجان الكبير جعله يفكر في اقتحام الأسواق والأماكن العامة وإطلاق العنان لأنغام الزكــرة كي تصدح في الفضاء الرحيب بدلاً من أجواء البيوت المحــدودة، وكانـــت أول خطوة قام بها هي زيارة سوق الفندق الــبلدي في صباح اليوم التالي، فبينما كان ذلك السوق مزدحماً بالمواطنـــين الذين كانوا يُحدثون ضجيجاً وهم يتفاوضون على الأســعار ويحلفــون بأغلظ الأيمان بشأن الترويج لسلعهم، قطع علـــيهم صوت الزكرة ذلك الضجيج المزعج حينما صعد عبدُه أقـــواس الفندق ودخل إلى الساحة الفسيحة وهو يزمر ويتحرك بخفـــة ويمـــرر أناملـــه على ثقوب الزمارة لتنبعث منها أروع الأنغـــام التـــي جعلـــت التجار وأصحاب المقاهي يخرجون من محلاتهم وهم في حالة إعجاب شديد وتتوقف حالة البيع والشراء ويـــتجمع المواطنون الذين حضروا للتسوق ليكوّنوا دائرة حول ذلـــك الرجل الأسمر الذي يجمع بين الرقص والغناء والنفخ في الزكرة بملء شدقيه لترسل الألحان الشعبية، وبهذا الأداء الرائع اســـتولى عبده على اهتمام الباعة والمتفرجين الذين تجاوبوا مع فـــنه، وظـــلّ يلبـــي طلباتهم بالاستمرار في العزف حتى شعر

بالـــتعب وتوقف عن الرقص والغناء، ثم أخرج منديلاً من جيب الفــرملة ليمسح حبات العرق التي تلألأت فوق جبينه واختلطت بالدمـــوع التي ترقرقت على خديه، كان قد غمره شعور بالفرح العمـــيق وهـــو يـــشاهد ذلك الحشد الكبير من المواطنين الذين أحاطـــوا به في تلك الساحة الفسيحة وهم يصفقون له ويغمرونه بالعطايـــا إعجابـــاً بفـــنه الذي أحيا فيهم روح البهجة والمرح وأعادهم إلى منابع الفن المرزكاوي الأصيل، لقد أجهد نفسه في إدخـــال السرور على نفوسهم مدة من الزمن ألهتهم عن مزاولة نـــشاطهم الـــذي يعتبر أساس وجودهم في ذلك السوق الشعبي الكبير .

***

بعـــد ما لقيه من نجاح لم يكن يتوقعه وطّد عبده العزم علـــى مزاولة حرفة الزمار وأخذ يواصل جولاته التي شملت جمـــيع أحـــياء المدينة، فطاف الأسواق وتجوّل في الشوارع وغنـــى ورقـــص حتـــى انتشرت أغانيه بين الناس وأصبح معـــروفاً باسم (بوك عبدُه)، وهو الاسم الذي اشتهر به في المديـــنة، وظـــل يلازمـــه كلما أطلَّ على المواطنين بقامته الفارهـــة وابتـــسامته الحلوة التي كانت تصاحبُ أغانيه التي

يزخـــر بها تراثنا الشعبي الأصيل والتي تتنوع دلالاتها، إلى جانب الأغاني الفكاهية التي كان يؤلفها ويؤديها برشاقة ومنها أغنيـــتان وجد أنهما يلاقيان ترحيباً لدى جميع المحبين لفنه وهم أغلبية مستمعيه، إحداها فكاهية تثير الضحك كان يؤديها وهـــو يرقص على أنغام المزمار ويدور حول نفسه وقميصه الأبيض الفضفاض يكوّن دائرة واسعة حول ساقيه تدور معه فـــي حركته الرائعة، كان مطلع تلك الأغنية يقول : « بوك عـــبدو سرواله راح - يا شريفه حطي البرّاح »، ولا يعرف أحد ما إذا كانت شريفة التي يستنجد بها لتكلّف منادياً للبحث عن سرواله الضائع هي زوجته فعلاً أم أنها مجرد اسم وهي لازمـــة للأغنية، أما الأغنية الثانية فهي غزلية تصور جمال الفتيات القابعات بين جدران البيوت واللائي لا يراهن أحد إلاّ خِلـــسة وفـــي لمحـــات خاطفة وأوقات نادرة تحدث عند فتح الأبـــواب وقفلهـــا بسرعة، يقول مطلعها: « بين الباب وبين اشقوقه - خد البنت اتقول ابروقه »، وهي أيضاً يؤديها في حـــركة وشيقة تثير اهتمام الصبيان فيصفقون لها، كما يُقال عنها إنها تُعجب النساء اللائي يسترقن السمع إليها من وراء الأبواب المواربة ومن خلال شقوق الأبواب القديمة وأن بوك عـــبدُه هو الآخر كان يتطلع إلى أبواب البيوت ويسلط النظر

إلى ما وراءها وهو منهمك في الرقص والغناء، غير أنه إذا صحَّ ما يقال عن استمتاع النساء بتلك الأغنية فإنه لا ينطبق علـــى مــــا قيل عن بوك عبده من أنه كان يتطلع إلى أبواب البيوت لأنه لم يكن مهتماً بما وراء الأبواب المغلقة التي يظن الـــبعض أنـــه يسلط النظر عليها ليرى ما وراءها من خلال شقوقها التي لا تظهر سوى ظلال النساء وهن يتحركن داخل البـــيوت، كـــان دائماً منهمكاً في النفخ في تلك الزكرة التي يحتضنها في زهو، يتجلّى في ابتسامته المشرقة عندما يترك الـــنفخ ليردد أغانيه، ويدور حول نفسه بسرعة متتالية تثير الدهشة ويرسل الأنغام الرائعة التي تشيع البهجة في النفوس، كـــان لا هـــمَّ لـــه ســـوى إدخال السرور على قلوب الناس المتعطـــشة إلـــى كل ما ينسيها هموم الحياة وتقلبات الأيام، وهكـــذا غنـى بوك عبده ورقص وأطرب المواطنين الذين تعوّدوا على استقباله بالترحيب وتقديم النقود إليه إعجاباً بما يقدّمـــه من أغانٍ شعبية أصيلة تهزّ المشاعر بكلماتها الجميلة وألحانها الرائعة حتى ذاعت شهرتها واستهوت الصبيان الذين ظلوا يرددونها كلما خرجوا ليلاً ليسهروا على أعتاب البيوت الملاصقة لبعضها ويملأون الشوارع صخباً، في زمن ندرت فـــيه وسائل الترفيه بمختلف أنواعها وظلّت أنغام بوك عبدُه

تــسدّ فــراغاً في عالم الطرب لم ينقطع صداها حتى نشبت الحرب العالمية الثانية فروّعت المدينة الآمنة وشرّدت أهلها في القرى والبراري .

***

عـودة الـمـجـنـديـن

هـناك أيـام تمر عادية لا تحمل في طياتها أحداثاً مهمة، وهـناك أيـام أخرى تحفل بأحداث مؤثرة تترك آثاراً عميقة في الـنفوس وتبقى تفاصيلها عالقة بالذاكرة، وهذا ما حدث لي ذات صـباح مبكـر مـن أيام النصف الأخير من الثلاثينيات، عندما شاهدت جموعاً من المواطنين تتجه ناحية الميناء، كانوا يتطلعون إلى البحر الساكن كأنهم يرونه لأول مرة وقد بدت على وجوههم آثـار الفرح وهم يتبادلون الأحاديث بأصوات عالية، ورغم عدم معرفتـي لما يحدث، وجدت نفسي منساقاً وراءهم بدافع الفضول لمـشاهدة ما يجري في مدينتنا ذلك الصباح، وسرعان ما اتضح لي الأمر من خلال الأحاديث التي كانت تدور بين بعض الشيوخ الذين يسيرون في المؤخرة : أن ما كان يحدث أمام عينيّ ما هو إلاَّ احـتفال بعـودة المواطنـين الذين جندتهم الحكومة الإيطالية للمـشاركة في الحرب التي شنتها على الحبشة، وتذكرت في تلك اللحظات، وأنا أسير وسط الجموع الزاحفة نحو الميناء، مقولة بها كلمـات تهديد ووعيد لإمبراطور الحبشة تقول عباراتها: « أيها

النـــيقوس جهّز قبرك؛ فالإيطاليون سيقصمون ظهرك »، ووسط ذلـــك الحشد من المواطنين الذين غمرتهم الفرحة بعودة أولادهم مـــن تلـــك البلاد البعيدة تبخرت من ذهني تلك المقولة الإيطالية وحلّـــت محلهـــا صورة رجل أسمر كنت أدعوه عمي فرج كما عوّدنـــي أهلـــي الـــذين يعتبرونه أخاً لوالدي رغم ما بينهما من اخـــتلاف في الخلقة واللون، فبينما كان والدي أبيض البشرة كان عمـــي فرج أسود البشرة، وكنت لا أعرف شيئاً عن الأخوة التي تربط بين الاثنين، ولهذا ظللت أتساءل بيني وبين نفسي عن سر تلـــك العلاقـــة التي جمعت بين والدي وعمي فرج، ذلك الإنسان الطـــيب الـــذي أحببته لشدة حدبه عليّ عندما كنت صغيراً، بقيت مدة من الزمن أكرر تساؤلاتي عن ذلك السر الذي لا أعرفه حتى سـمعت مـــن جدتـــي الإجابـــة الشافية التي وضعت حداً لتلك التـــساؤلات، وأزالت القلق عن نفسي وجعلتني أزداد تعلقاً بعمي فرج الذي عرفته إنساناً ودوداً، لقد حدّثتني جدتي ذات ليلة وهي تـــستعيد ذكريات الماضي عن السر الذي جمع بين والدي وعمي فـــرج، كـــان لـــه حكاية طويلة بدأت عندما داهم وباء الطاعون مدينتـــنا سنة 1914 وأدى إلى حصد الكثير من أرواح المواطنين، الأمر الذي جعل سلطات الاحتلال الإيطالي تقتحم كل بيت تشتبه أنه حدثت به حالة وفاة وتقوم بإخلاء البيت من سكانه ونقلهم إلى

المحجــر الصحي الذي عُرِف باسم (الكرانتينا)، وهذا ما كان يخشاه المواطنون فيقومون بدفن موتاهم سرّاً في ظلام الليل حتى لا يتعرضـــون للعزل الإجباري ويعانوا من هول المتاعب، كان الوباء قد انتشر في كل أنحاء المدينة وكانت أكثر الأحياء تضرراً حي الأكواخ المكوّن من جذوع الأشجار والقش والمعروف باسم (زرايـــب العبـــيد) الذي كان سكانه من إخواننا المنحدرين من أصـــول أفريقية قد جمعتهم في هذه المدينة ظروف قاسية، وأدى مـــا حـــلَّ بـــذلك الحي الفقير إلى اتخاذ إجراءات سريعة فعمدت الـــسلطات الإيطالـــية إلى نقل هؤلاء السكان إلى مخيم مؤقت ثم قامـــت بإضـــرام الـــنار في ذلك الحي الذي سرعان ما احترق وتحـــوّل إلـــى رماد، وبعد ذلك الحادث المحزن الذي تسبب في تـــشريد الأطفال الذين فقدوا ذويهم، أخذت بعثة التبشير الإيطالية تجمعهم في مقرها بالفويهات استعداداً لتربيتهم على تعاليمها ..

وذات يـــوم مـــن تلـــك الأيـــام التي شهدت هذه الأحداث المأساوية كان جدي عائداً من خارج المدينة يمتطي حماره عندما ســـمع أنين طفل بين الأشجار التي تحيط بمقر إرسالية التبشير، ومـــا كاد جدي يقترب من مكان الأنين حتى برز منه طفل أسود كـــان يبكي وقد غطّت الدموع وجهه الصغير، وخشي جدي أن

يعترض الطفل طريق الحمار فترجل وأمسك به ليبعده عن طريق الحمار خشية أن يدهسه، إلاَّ أن الطفل تشبث بعباءته وهو ينشج، وحاول جدي أن يتخلص منه خوفاً من رؤية الرهبان له الذين قد يتهمونه بمحاولة سرقته، غير أن ذلك الطفل التصق به وازداد تشبثاً بعباءته مما جعله يرثي لحاله ويأخذه معه فوضعه أمامه على ظهر الحمار وانطلق به مسرعاً ليبتعد عن إرسالية الرهبان، وفي بيتنا ترعرع فرج كما أسماه جدي وعاش بين عائلتنا كأحد أفرادها حتى بلغ أشده، والتحق بالعمل في إحدى شركات المقاولات الإيطالية، وسافر مع أفواج المواطنين إلى أفريقيا الشرقية، حيث عمل بإريتريا والصومال، ثم انتقل إلى الحبشة بعد احتلالها، وانقطعت عنا أخباره بانقطاع رسائله ..

كانت هذه حكاية عمي فرج كما روتها لي جدتي، إنها حكاية ذلك الرجل الأسمر الذي طافت بذهني صورته وأنا أتابع أقوال المواطنين الزاحفين نحو الميناء في ذلك الصباح وهم يتحدثون عن المغتربين الذين سافروا إلى القرن الأفريقي، سواء منهم من كان مجنّداً أو من كان عاملاً، وتدفقت أحاديث المواطنين في رأسي وشعرت في تلك اللحظات بشوق إلى رؤية عمي فرج، وتمنيت أن يكون بين أولئك العائدين الذين وصلت

بهم السفينة لتوها، ومن يدري لعلّه يكون بينهم فعلاً؟ ولعلّي أحظى برؤيته بعد سنوات من الغياب ..

عندما وصلت الميناء رأيت العساكر ينزلون من سفينة ضخمة تحمل العلم الإيطالي ويصطفون على الرصيف وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ويشدون على أكتافهم البنادق الطويلة، حيث بقوا في حالة استعداد حتى جاء ضابط إيطالي تزين صدره الأوسمة التي تلمع في ضوء الشمس، لم أتبين رتبته العسكرية لبعد المسافة بين مدخل الميناء حيث أقف والرصيف، فتفقَّد صفوفهم ثم صاح بصوت مرتفع يأمرهم بالسير : (بتّاليوني أفانتي مارش)، واخترق طابور العسكر وسط الميناء في خُطى ثابتة، كانت تبدو على وجوههم آثار التعب والإرهاق وهم ينظرون إلى معالم المدينة التي طالما شدّهم الحنين إليها أثناء غيابهم عنها في جبهة القتال، وما كادوا يخرجون من بوابة الميناء حتى قابلتهم جموع المستقبلين بالتصفيق والزغاريد والمناداة على أسمائهم من قبل أقاربهم الذين لم يستطيعوا خرق الطابور الطويل ومعانقتهم فرحاً بعودتهم سالمين، وسار ذلك الطابور العسكري الطويل الذي يتكون من وحدات عسكرية مختلفة وسط حشود الجماهير المصطفة على جانبي الشارع،

كانـــت كـــل وحــــدة تحمـــل شــــعارها المتمـــثل فـــي (الشملة المحلية)، فقد رفعت وحدة المدفعية شملة صفراء فاقعة اللـــون، ورفعت وحدة المشاة شملة زرقاء باهتة اللون، أما وحدة المهندســـين فقد رفعت شملة حمراء بها خطوط سوداء متساوية، وكان في مقدمة كل وحدة جنديان يحملان شعار وحدتهما، وهي عـــبارة عن (شملة) مربوطة بين بندقيتين يهزانها في حماس، وكان الجميع يرددون المجاريد التي تنطلق من حناجرهم مدويةً: « بعـــد مـــوح وياس امشقينا، يا ناجينا من وطن يقولو بسينا »، وواصـــل ذلـــك الموكب العسكري سيره على طول شارع البحر وســـط جمـــوع المستقبلين الذين رافقوه منذ خروجهم من بوابة الميـــناء حتـــى وصـــل نهاية الشارع وانعطف يميناً في شارع المستـــشفى الـــذي سار فيه حتى وصل إلى المعسكر المعروف بــــ(كامبو الجريد)، وأصدر له الضابط الإيطالي المرافق أمراً بالوقـــوف، ثـــم تفقـــد الـــصفوف للمـــرة الثانية وأمر العساكر بالانصراف، فتفرقوا وسط تصفيق الحاضرين، وبينما صعد ذلك الـــضابط الإيطالـــي ســـيارة صغيرة كانت تسير وراء الموكب انطلقـــت به ناحية الشمال، سار العساكر في اتجاهين، منهم من دخل المعسكر متعجلاً رؤية أهله المقيمين بداخله، ومنهم من أخذ طريقه متجهاً عبر شوارع المدينة إلى حيث يقيم أهله، وارتفعت

الـــزغاريد داخـــل ذلك المعسكر المحاط بسياج من جريد النخيل والذي يقع في ميدان واسع يتوسط المباني السكنية وقد صفّت به بـــيوت الشعر التي تقيم بها عائلات المجندين التي تمَّ حشدها من عـــدة مناطق عندما تمَّ إرسالهم لخوض غمار الحرب في الحبشة التـــي عادوا منها لتوهم، وتفرقت جموع المستقبلين ولم يبق منهم هـــناك سوى بعض الذين توافدوا على المعسكر، منهم من حضر لتهنـــئة العائـــدين بسلامة العودة ومنهم من جاء للاستفسار عن قـــريب سافر إلى الحبشة للعمل هناك، ولم يعد مع من عادوا من العـــساكر فـــي ذلـــك الـــيوم، ووسط صخب الحاضرين لم يجد المستفـــسرون أحـــداً مـــن العائدين يملك معلومات عن أقاربهم الغائبين، وذهبت تساؤلاتهم أدراج الرياح، فلم يسمعوا سوى قول أحـــد المجـــندين إن العائدين كلهم من العساكر الذي اشتركوا في الحـــرب ولـــم يكن بينهم أحد من العمال الذين يستفسرون عنهم، وهكـــذا لم تتح لي الفرصة لمعرفة أي شيء عن عمي فرج الذي ســـافر كغيره من المواطنين للعمل في تلك البلاد البعيدة ولم يعد ولا نعـــرف عـــنه شـــيئاً، وقد أحسست بخيبة الأمل، وبينما بدأ المستفسرون ينسحبون من أمام المعسكر الذي لاتزال ترتفع منه الزغاريد وسط أعمدة الدخان التي تتصاعد من تحت القدور التي تفـــور بلحوم الذبائح التي نُحرت ذلك الصباح سمعت رجلاً مسناً

يقول ما يتردد بين المواطنين في مثل هذه الحالة : « الحي يروّح ولو بعد حين » .

❋❋❋

الخبر السيئ

لازلت أذكر ذلك اليوم الذي كانت تتخلله سحابة شفافة من الضباب، كانت أمواج البحر قليلة الارتفاع بسبب هبوب الرياح الخفيفة، وكان سكان الشوارع المطلة على البحر، والتي لا تبعد سوى خطوات معدودة عن الشاطئ ما زالوا يترددون على أماكن السباحة ويجلسون على الرمال النقية للاستمتاع بذلك الجو الرائع، وكان البعض منهم يتحدثون عن أساطير البحر وأهواله، بينما كان البعض الآخر يتطلعون إلى الأفق البعيد ويراقبون حركة السفن التجارية التي لا ينقطع تدفقها على الميناء منذ أن تظهر السفينة صغيرة في الأفق حتى يظل حجمها يكبر رويداً رويداً وهي تشق عباب البحر حتى تقترب ويتضح شكلها ثم تدخل الميناء، فيختفي نصفها السفلي بينما تبدو صواريها العالية المحاطة بالرافعات ومداخنها الكبيرة ظاهرة من وراء الكتل الإسمنتية المسلحة المحيطة بالميناء وهي تتهادى في سيرها البطيء متجهة نحو الرصيف، وبينما كانت هذه حالة الكبار المهتمين بتبادل الأحاديث ومتابعة حركة السفن كان هناك من لا

يهـــتم بذلك، فالصبيان المتواجدون على الشاطئ ذلك اليوم كانوا يمرحون ويركضون حفاةً لا يبالون بشيء ولا يشد انتباههم سوى تحلـــيق أســـراب النوارس البيضاء وسط غلالة الضباب الخفيفة وهي تحدث بوقوقتها أصواتاً يرتاحون لسماعها، لقد تعوّدوا على أجـــواء البحر منذ أن تفتحت أعينهم على الحياة وتوالت لقاءاتهم على ذلك الشاطئ الجميل ..

❋❋❋

ومن بين ما ظللت أذكره جيداً من أحداث ذلك اليوم الرائع أننـــي كنت قد أعددت بمشاركة صديقي رجب مصيدة للأسماك، وهـــي عبارة عن (صونية) طعام كبيرة وضعنا فيها قطع من الخبـــز وغطيناها بقطعة قماش بيضاء أحكمنا ربطها وتركنا في وســـطها ثقـــباً صغيراً لدخول الأسماك، ثم وضعناها في البحر وجلـــسنا علـــى صـــخرة نراقب تزاحم أسماك البوري الصغيرة علـــيها، ظللـــنا هكذا حتى تناهت إلى أسماعنا أصوات صرخات متتالية، وأرهفنا السمع فتبين لنا أن تلك الصرخات كانت صادرة مـــن جهـــة الشوارع التي تضم بيوتنا، فتركنا المصيدة وانطلقنا نركض وفي إثرنا بعض الصبيان، وما كدنا نصل شارع المدنية حتـــى تبـــين لـــنا أن البـــيت الذي صدرت عنه تلك الصرخات

المزعجة والتي لاتزال مستمرة لم يكن سوى بيت العمة (برنية) تلك المرأة الطيبة التي أحبها جميع الجيران لاسيما الأطفال الذين كانـــت تحـــنو عليهم، لقد تأثرنا وتأسفنا لما حدث في ذلك البيت الهـــادئ الذي اهتزّت لفاجعته القلوب لأن ذلك النوع من الصراخ الحـــاد لا يحدث إلاّ في حالة الوفاة، وسرعان ما انفتحت البيوت كلهـــا في آن واحد واندفعت النساء إلى الشارع في (أرديتهن)، كـــنَّ قـــد تـــركن (الجـــرود)، فلم يعد هناك متسع من الوقت لارتدائها، ومنهم من تركت حتى (سبَّاطها) وهي في عجلة من أمرها وخرجت تجري حافية القدمين، وفي ذلك البيت القديم ذي المـــدخل العالي انفتح البابان الكبيران على مصراعيهما واندفعت النـــساء إلى داخله وهن يصرخن بأعلى أصواتهن وازدحم البيت والـــسقيفة بالمعـــزيات فـــتم إحضار (كلّه) ذات خطوط ملوّنة ربطـــت بإحكـــام بين البابين لتكون (ستارة) تخفي النساء عن الـــشارع، واشـــتدَّ الـــصراخ والعـــويل في وسط البيت المترب والحجرة الكبيرة، وارتفعت كلمات المراثي التقليدية التي تعودت النـــساء علـــى ترديدها في مآتم المدينة وعلى تغيير نصها حتى تجعلها تنطبق على كل حالة وملائمة لجنس الميت إن كان ذكراً أو أنثـــى، وكانـــت مجموعة من النساء قد تحلقن حول صندوق خشبـــي كبير يضربن عليه بالعصي حتى يحدث صخباً ويرددن

فـــي أصوات منسجمة : « هابا يا مرزي في شبابه، يا طايح من دون أصـــحابه »، بيـــنما ظلـــت مجموعة أخرى يتحلقن داخل الحجرة حول (أم علي) تلك العجوز العمياء وابنتها برنيه، كن قـــد جلـــسن على الأرض المفروشة بالحصران، وقد غطت كل منهن وجهها بطرف الرداء وأخذت تنتحب وتردد مع المجموعة كلمات أقوى تأثيراً من الأولى : « يانا يا المرزي، يا خي برنيه الفـــردي، يانـــا يا بيّ »، وبينما كانت العجوز العمياء تبكي فلذة كبدها وابنها الوحيد وهي تهتز يميناً وشمالاً، كانت ابنتها الوحيدة برنيه تبكي بحرقة وقد بُحَّ صوتها من شدة الغريد، كانت الفاجعة التي أودت بحياة شقيقها الوحيد قد زلزلت كيانها، وزاد في تعميق مأساتها كونها لم تُرزق بولد تعده ذخراً لِما بقي من أيام حياتها .

❋❋❋

كانت السهرية قد أقيمت في الشارع وقد توافد عليها العديد مـــن المعـــزين الذين أحزنهم خبر تلك الفاجعة التي روّعت أهل المديـــنة، وكـــان في مقدمة الذين حضروا العاملون بالميناء من ريـــاس وبحـــارة وحـــرّاس ســـواحل، وقد دارت الأحاديث بين الحاضرين طوال ليالي السهرية الثلاثة عن كارثة السفينة المسماة (أتيلـــيو) والمعروفة لدى البحارة باسم (بابور بالاّ) نسبة إلى

صاحبها الإيطالي (إيجينو بالاّ)، تلك السفينة التي ذهب ضحية غرقها ثلاثة بحارة من أبناء المدينة هم علي الرابطي ورفيقاه ..

تساءل أحد البحارة مستفسراً عن أسباب غرق السفينة :

- أعـــتقد أن الجو كان صحواً عندما تحرّكت السفينة، ولم يكن هـــناك مـــا يدعـــو للقلق وإلاّ كانت إدارة الأرصاد الجوي حذّرت من الإبحار لتفادي الخطر، فكيف حدثت الكارثة ؟

وقال العريف بورميله التابع لحرس الميناء :

- ربما خابت تقديرات إدارة الأرصاد الجوي، واطمأنَّ قبطان الـــسفينة إلـــى سلامة الرحلة حتى فوجئ في عرض البحر بتيارات لم يتوقع حدوثها أدت إلى هذه الكارثة .

وقـــال الـــرايس صالح قائد (اللانشه) التي ساهمت في البحث عن الغرقى :

- أنـــا لا أستبعد حدوث التغييرات الجوية المفاجئة، ومهما كان الأمر فالإبحار مهمة صعبة محفوفة بالمخاطر، والتغييرات طالما خيّبت تقديرات الرياس وفراسة البحارة، وخذلت من صارعوا أمواج البحر، وقاموا تياراته سنوات عديدة ..

وتساءل البحار احميدة شلقم :

- لقد قيل إن قبطان السفينة نجى بنفسه مع امرأة واحدة تعلّقت بصندوق من الخشب بعد أن سقطت ابنتها الرضيعة من بين يديها، ألم يكن في إمكانه إنقاذ جميع الركاب باعتباره مسؤولاً عن سلامة السفينة بمن فيها ومن عليها ؟

وردَّ الرايس صالح :

- عندما يكون الحادث مفاجئاً مثلما حدث لهذه السفينة - كما سمعنا - لا يمكن لأي قبطان مهما كانت مهارته إنقاذ جميع الركاب الموجودين على ظهر سفينته .

وقال بورميله :

- أعتقد أنه ربما اختلَّ توازن السفينة بسبب الحمولة الكبيرة التي قيل إنها من القمح الوطني وإنها أكبر من طاقتها مما جعلها تهوي إلى الأعماق بسرعة ويتعذر إنقاذ كل ركابها الذين مات منهم أحد عشر شخصاً .

وعلّق أحد الحاضرين على ما دار من حديث قائلاً :

- لقد تمّت الكارثة ومهما قيل في تفسير ما حدث لا يهوّن فداحة المصيبة، ولا يعوض خسارتنا في علي ورفيقيه، لقد ذهبت السفينة بما فيها ومن عليها، ولم يقدر لها أن تصل إلى وجهتها المحددة وتبلغ المكان المقصود .

وهكذا انتهت (السهرية) التي شغلت الناس بالحديث عن مأساة السفينة الإيطالية التي عُرِفت لدى المواطنين باسم (بابور بالاّ)، وكانت مناسبة لتأبين الرجال الثلاثة الذين ذهبوا ضحية غرقها، وهم الذين طالما أبحروا على ظهرها فعبرت بهم عباب البحر الأبيض المتوسط، وطالما نزلوا بمرافئ الجنوب الإيطالي، وطافوا بالمدن الساحلية الجميلة، ثم عادوا يحملون أجمل الذكريات، حتى كانت تلك الرحلة المشؤومة التي أودت بحياتهم ولم تبقِ سوى ذكراهم التي خلّدها الشاعر عبدالهادي الشعالية الذي أسرع إلى الميناء للتأكد من الخبر السيئ الذي انتشر في المدينة بسرعة البرق، وهناك شاهد بعينيه جثث الغرقى الإحدى عشرة مسجاة على (الصقالة) ومغطاة بقماش (المشمع) الغليظ الذي تُغطّى به البضائع في رصيف الميناء، فأثار ذلك المنظر الرهيب مشاعره الرقيقة فهتف من أعماقه معبراً عن تلك الفاجعة بقصيدة هزّت المدينة بأسرها، مطلعها :

« جانا الخبر يا شينك خباره   بابور باله راح في تياره »

***

الختـــان

مـــن كـــان يعرف العم بوخريص بائع الأعلاف في ميدان سـوق الحـوت، حيث توجد محطة (العربيات) لابدَّ أن يكون عارفاً أن ذلك الكهل طويل القامة ذا الوجه المستطيل الذي تبرز عظـام فكـيه خلـف جلدة الوجه من شدة النحافة كان من أشد المعجبين بأغاني العلم التي تختزن ذاكرته الكثير منها، وقد برع في أدائها حتى إنه كان يُدعى لأفراح معارفه للمساهمة في إحياء ليالـيها، وكان يبدأ يومه جالساً في الزاوية الملاصقة لدكانه ذي المدخل الواسع وأمامه موقد النار الذي لا يفارقه البراد الذي يفور بالـشاي الأخـضر منذ الصباح حتى المساء، فهو قد تعوّد على الإفطـار والغداء في دكانه الواسع الذي لا يفارقه إلاَّ عند حلول الظلام أو عند ذهابه إلى الفندق القديم لإحضار الأعلاف المكوّنة من التبن والحشائش البرية، التي يبيعها لأصحاب العربيات التي تـتجمع فـي المحطة المجاورة لدكانه، والذين يلتفون حوله منذ حضورهم بعرباتهم في الصباح، ولا يفارقه أحد منهم إلاَّ إذا وجد ركّابـاً، كانوا يستمتعون بما يرويه من قصص الأغاني الشعبية

ذات المعانـــي الـــرائعة التـــي كانوا مولعين بها، ولا يملون من تـــرديدها وهم يعبرون الطرقات بعرباتهم ذهاباً وإياباً بين المدينة وضـــواحيها، تارة بصوت مسموع وتارة أخرى بصوت خافت، طبقاً لخلو الطرق من المارة أو ازدحامها بهم ..

***

ورغـــم أن العـــم بوخـــريص كـــان يقـــضي يـــومه مع (العـــرابدجية) فـــي مرح وضحك إلاَّ أنه بدأ يتغير سلوكه كلّما عاد إلى البيت في المساء، خاصة عندما يأتي ابنه الصغير ميلود لاســـتقباله وتفتيش جيوبه للبحث عن الحلوة التي تعوّد إحضارها له، ورغم سروره بلقاء ابنه الذي يحبه إلاَّ أن ذلك اللقاء كان يثير فـــي نفـــسه القلق الذي بدأ يلازمه منذ أن حضر حفلة ختان ابن جـــارهم رزق الـــذي يـــصغر ابنه ميلود بثلاثة أعوام، لقد اعتاد الـــناس على ختان أولادهم منذ بلوغهم سن الرابعة، وها هو ابنه قـــد بلـــغ الثامنة من عمره ولم يستطع إيجاد تكاليف الختان الذي يقـــام له عرس كما جرت العادة، والذي هو حاجة ضرورية، لقد ظلَّ مشغولاً بهذه المشكلة التي ظلّت تؤرقه كلما أوى إلى فراشه، حتـــى أثارت قلق زوجته، فتوسلت إليه أن يخبرها بما كان يدفعه إلـــى التفكيـــر مـــنذ عـــدة أيام، فأدرك اهتمامها بما يشغل باله،

وأخبرها بما كان يفكر فيه، والذي لم يكن سوى ختان ابنهما الذي يـتطلب تكالـيف باهظة ليس في مقدوره توفيرها، فقد كان يتوق إلـى إقامـة فرح كما كان يفعل الجيران من حوله وهم يحتفلون بختان أولادهم، وتأثرت زوجته التي أدركت مدى انشغال زوجها بختان ابنهما ميلود، فربتت على يده بحنان وقالت:

- يـا ريـتك تاخذ العقد والسوار والتكليله واتبيعهن في السوق واتخلينا نفرحو بإطهار أوليدنا مش كنت اتقول الدهب نلقوه عند العازه ؟

وفوجـئ العم بوخريص بما قالته زوجته، فلم تخطر بباله حكاية بيع الحلي للإنفاق على الختان، فقال مندهشاً :

- من جدّك هالكلام اللي اتقولي فيه؟ من جدّك يا غزالة ؟!

- شـورك تحـسابني نكذب، من بكره عدّي بيع اللي قلت لك عليهن وعوّل على إطهار العيل .

وكاد الحاج بوخريص يطير فرحاً عندما تأكّد من إصرار زوجـته على بيع الحلي التي كانت تخاف عليها ولا تستعملها إلاّ إذا دُعيت لحضور أحد الأفراح، وقال :

- يا رينك درتيها من زمان وريحتينا من التخميم يا اغزولة !

* * *

قام العم بوخريص ببيع حلي زوجته واشترى كبشاً ليكون عقيقة كما جرت العادة وأحضر لوازم الفرح، ثم اتفق مع الحاج الزروق صاحب محل الحلاقة المعروف بممارسة الطب الشعبي على القيام بعملية ختان ابنه، كما تولّت العمة غزالة التحضير لإعداد الموائد ودعوة كل معارفها لحضور ليلة الفرح التي قررت إقامتها وأرسلت عجوزاً للاتفاق مع اليهودية العمياء المدعوة (بطة) لإحياء تلك الليلة بالأجر المعتاد مع أجرة ركوبها ذهاباً وإياباً وإحضار زجاجة بوخة لها إضافة إلى إعداد عشاء زوجها رحمين الأحول، الذي سيحضر شخصياً لتسلّمه..

وفي اليوم المحدد لإجراء عملية الختان جرت الاستعدادات لهذه المناسبة السعيدة، فتمَّ ذبح الكبش وإعداد وليمة الغداء، وما إن انتهت صلاة الجمعة حتى توافد على بيت آل بوخريص جميع المدعوين وفي مقدمتهم الحاج الزروق المعروف بالطهار، وبعد تناول طعام الغداء وبينما الحاضرون مشغولون بالحديث وشرب الشاي تمَّ طرح (نطع) صوف رُشّت فوقه طبقة من الرمل وقام العم بوخريص بإحضار ابنه ميلود الذي كان يرفل في قميص أبيض فضفاض كُتبت على صدره بماء الزعفران الأصفر عبارة

(ما شاء الله) وتحتها رسم لخاتم سليمان، وما إن بلغ موضع النطع حتى جلس فوقه القرفصاء ووضع ابنه في حجره ورفع قميـــصه ثم أحكم إمساك يديه ورجليه لمنعه من الحركة عند إجراء العملية الجراحية، وعند ذلك تقدَّم الحاج الزروق الذي كـــان يتحفّز لأداء مهمته فأخرج من شنطته المقص المشحوذ وقطع الزائدة الجلدية التي أعقبها نزول قطرات من الدم فوق الـــنطع وحتى لا يتمكن الطفل من الصراخ تقدَّم خاله ليحشو فمـــه ببيـــضة مـــسلوقة وما إن انتهت تلك العملية حتى قام الحاضـــرون بإلقاء النقود المعدنية في حجر الطفل الذي كان وجهـــه ممتقعاً، في حين كانت تبدو على وجه أبيه علامات الارتـــياح ؛ لأنه تمكّن أخيراً من تحقيق ما كان يريده وهو إيصال ابنه إلى نطع الطهار ..

❋❋❋

وفـــي مساء ذلك اليوم الذي توالت فيه الزغاريد ابتهاجاً بعملـــية الختان ازدحم بيت آل بوخريص بالنساء اللائي جلسن وســـط الحـــوش تتوســـطهن الدرباكـــة (بطة) تلك اليهودية العمياء، وهي تجلس على نطع، وقد أسندت ركبتها التي تحمل الدربوكة على وسادة ناعمة، وكانت الأنظار متجهة إليها وهي

تحتسي جرعة من (البوخة) ذات الرائحة النفاذة، بدأت بعدها بالنقـــر على الدربوكة وأطلقت لصوتها العنان، فظلت تصدح بالأغانـــي الـــشعبية التي كانت تُغنى في الأفراح، وانسجمت النـــساء مع إيقاعات الدربوكة التي بدأت تتناغم مع التصفيق المنتظم، كانت الأغاني تصل إلى أسماع العم بوخريص الذي كان جالساً على البنك الخشبـي وقد أسند ظهره على وسادة تقيه رطوبة الجدار منشغلاً بإشعال السجائر التي ينفث دخانها وهـــو في حالة نشوة منسجماً مع ألحان الأغاني القديمة التي كانـــت تـــؤديها (بطة) بصوتها الجميل، لم يكن يعكر صفوه سوى حركة الأطفال الذين كانوا يمرون من أمامه خارجين إلى الـــشارع أو داخلـــين بـــين حين وآخر، وظلّت الساعات تمر والغـــناء يزداد تنوعاً والحاج بوخريص في قمة النشوة، حتى تـــبدّلت تلك الأغاني الجميلة فجأة وحلّ محلها لحن آخر كان مقدمة لأغنية أطارت صوابه فقفز من فوق البنك غاضباً ودخل الممـــر الذي يفصل بين السقيفة وداخل البيت وأخذ يدق على الباب وهو يصيح :

- يا غزالة .، يا غزالة، شنو هالبلاء ؟!

كانـــت النـــساء في تلك اللحظات يرددن مع (بطة)

مقاطـــع الأغنية التي أثارت غضبه، ويطلقن الزغاريد التي يتـــردد صـــداها في أرجاء البيت دون أن يتأثرن بكلماتها المفجعـــة التي تقول: « في حال يا ناشد علينا حاله، حيين لكنتـــي حـــياة مذباله، حياة القهرة، حياة الجمل اللي مكسر ظهـــره، واحد جبد سكين يبي نحره، والآخر خدا الساطور وادنالـــه »، ومـــع اشتداد الدق على الباب وتوالي الصياح توقّف الغناء الذي كان يملأ البيت صخباً، فقد فوجئت النساء بذلك الصياح الذي أفسد عليهن متعة الطرب وخرجت العمة غـــزالة تـــرتعد، فقد ظنـــت أن فاجعة حلّت بالبيت فجعلت زوجها يصرخ في تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

ـ شنو هالكلام الشين اللي اتقول فيه اليهودية؟ الله يقطع قولها..

ولم تستطع زوجته أن ترد على القول، فقد كانت فعلته قد أرعبتها، فأردف :

ـ تسمعي فيش انقول ولاّ انطرشتي ؟

ـ كنك شنو صار لك اترعش فينا عقاب الليل ؟

ـ نبيك تطردي هاليهودية ما نبيش نسمع غناها المعفن ..

ـ شورها طربقت فينا عين، هدى اللي كنت خايفة منها!

- عين ولاّ ودن علي اليمين ما هي بايته في حوشي هالجيفه !

ولـــم يعـــد في إمكان غزالة إثناء زوجها حتى يتخلى عن موقفه الحاسم، بعد أن تفوّه بالطلاق، الأمر الذي أدى إلى إحداث إرباك بين النساء اللاتي توقفن عن الغناء، وأخذن في انتظار ما يـــسفر عـــنه ذلـــك الموقف الطارئ الذي يدعو للأسف، فدخلت تكفكف دموعها وتلقتها زوجة شقيقها مستفسرة في استغراب :

- انت كنك شنو صار؟ حسك رعشتيني ؟

- دونـــك لي يا سالمة، وريني كيف اندير؟ بوخريص قال لي طردي اليهودية، وحلف بالطلاق ما اتبات في حوشنا ! وين نبي انطردها في هالليل .

- اقطع قوله بوخريص، نلقاها ما دار فينا خير !

وجلست المرأتان تفكران في إيجاد حل لهذه المشكلة التي أوقعهمـــا فـــيها بوخريص بذلك التصرف الأحمق الذي لا يقدر العـــواقب، وبعد قليل من التفكير توصلت سالمة إلى حل يساعد أخت زوجها على الخروج من ذلك المأزق وإنقاذ الموقف :

- خلاص ما تخافيش يا غزالة توا انشيل بطة اتبات معاي في حوشنا .

ونظـــرت غزالة إلى زوجة شقيقها مستغربة وتساءلت كـــيف يمكـــن إيواء بطة في بيت شقيقها وهو لم يعد بعد من سهرته؟ وماذا سيحدث إذا عاد ووجد تلك الدرباكة نائمة في بيته، خاصة إذا كان في حالة سكر كعادته ..

- انـــا خايفة خوي خليفة يروح سكران وايدير لك هرجة كيف دوّت بوخريص ؟

- انا ما نيش ساهلة كيفك، نعرف كيف انخليه ما يردش كلامي واعي ولا سكران .

- نلقانك تربحي فيّ أجر كان فكيتيني من شر هالليلة .

- خـــلاص عـــدّي رضّـــي الصباية اللي يرجن فيك وخليهن ايدربكن ويرقصن نين يطلع عليهن الصبح .

❋❋❋

المدينة المفتوحة

عندما التحق أسعد بالعمل في شركة المقاولات العامة التي يمتلكها أحد الأثرياء الطليان والتي تقوم بإنجاز المشاريع الاستيطانية لم يجد بين موظفيها الإيطاليين سوى مواطن واحد كان يعمل مترجماً في إدارة تلك الشركة، كان ذلك المواطن يُدعى الكيلاني وهو رجل طويل القامة غليظ التقاطيع متجهم الوجه حاد النظرات، ولذلك كان أسعد يتحاشى نظراته الصارمة ولا يتبادل معه الكلام إلاَّ حين يحضر له القهوة ويطلق عليه تحية الصباح، كانت المرة الوحيدة التي أطال فيها الكلام معه يوم التحاقه بالعمل في الشركة عندما أخبره بأن مهمته هي نقل البريد الصادر وإحضار الرسائل الواردة من مكتب البريد كل صباح مع إحضار الصحيفة اليومية والقيام بتلبية مطالب الموظفين داخل الشركة مع التحلي بالصدق وأداء العمل بأمانة، وهكذا استمر أسعد في العمل دون أن يعير اهتماماً لسي الكيلاني الذي لم يشعر بأن هناك شيئاً يقربه إليه، حتى حدث ذات صباح بينما كان يحضر الصحيفة اليومية إلى مكتب نائب المدير العام أن وجد

ســـي الكيلانـــي يتحدث مع صاحب المكتب عن حالة عامل من المواطنين سقط من فوق (السقالة) وهو يحمل على كتفيه كيساً من الإسمنت ليوصله إلى الطوابق العليا في إحدى العمارات التي تقوم الشركة ببنائها، وقد أدى سقوطه إلى كسر إحدى ركبتيه ولم يحصل على تعويض عن إصابته، كان سي الكيلاني يتحدث عن حـــق ذلـــك المواطن في التعويض عن إصابة العمل وكان نائب المديـــر يحـــاجج بـــأن قوانـــين العمل الإيطالية لا تسري على المواطنين الليبيين ..

***

منذ ذلك اليوم أدرك أسعد مدى اهتمام سي الكيلاني بحالة ذلـــك المـــواطن وحرصه على المطالبة بحقه في التعويض عن إصـــابة العمـــل، لقـــد غيـــر ذلك الموقف شعور أسعد نحو سي الكيلانـــي وزالت الجفوة التي كانت تحول بينه وبين الحديث مع ذلـــك الـــرجل الـــذي كان يراه غامضاً، ثم أصبح يجلس بقربه ويتـــبادل معـــه الحديث، واكتشف أن سي الكيلاني يتمتع بخبرة واســـعة عن أحوال المدينة وأهلها، كما أنه كان معاصراً للشركة مـــنذ إنشائها، فمنذ لقائه بصاحبها الذي ظلَّ يحظى بإعجابه وثقته لما يتمتع به من أمانة وإخلاص في العمل، الأمر الذي جلب عليه

كــراهية موظفــيها الــذين لم يتمكنوا بكيدهم له من إقصائه عن العمل...

***

عــندما تناهــى إلى أسماع العاملين بالشركة صوت بائع الــصحف علــي الملقّب بيتزا نزل أسعد مسرعاً ليجد ذلك البائع المــشهور يــتأبط رزمة من صحيفة (الكوريري دي بنغازي) ويــنادي عليها بصوته المبحوح، وكان يحاول إطالة النداء حتى يــسمع الإيطالــيون الخبر المفاجئ المنشور في الصفحة الأولى بالبــنط العــريض (إعــلان الحرب على بريطانيا العظمى)، وســرعان مــا خرج أصحاب المحلات من الإيطاليين وغيرهم وأخذوا يتهافتون على شراء تلك الصحيفة ويتصفحونها في حالة مــن الذهول وهم يهزون رؤوسهم في استغراب، كانت هذه هي المــرة الأولــى التــي تنفد فيها جميع النسخ بسرعة لم يعهدها المــواطن علي بيتزا الذي تعوّد الطواف بها حتى منتصف النهار والعــودة بالــرواجع، وفــي داخل الشركة تلقف الموظفون نسخ الــصحيفة التــي أحضرها لهم وأخذوا يتناقشون في فحوى ذلك الخبــر المفزع الذي أحدث صدمة في نفوسهم وجعلهم يتساءلون عــن أســباب تلك الحرب المعلن عنها ودوافعها، ولقد ظلت تلك

التساؤلات تتردد في جميع أنحاء المدينة طيلة ذلك اليوم من شهر يونيو 1940 ..

***

بعـــد صـــدور إعلان الحرب بدأت التعبئة العامة فنشطت الحـــركة فـــي جمـــيع المعسكرات وبدأت تحركات قوات الجيش الإيطالـــي بمخـــتلف فـــروعه حيث شوهدت أرتال من الدبابات والمصفحات والسيارات التي تجر مدافع الميدان تتجه شرقاً، وقد تلى تلك الآليات رتل من السيارات الكبيرة التي تحمل أفواجاً من المواطنين المجندين في الفيلق الليبي الذين كانوا يلوحون بأيديهم مودعـــين الأهـــل والجيـــران، ثم صدر نداء من قيادة ميليشيات المتطوعـــين يحـــث جمـــيع المنتـــسبين إلى حركة (القال) من المواطنين إلى الإسراع بالتجمع في مدرسة التدريب بشارع البحر لغـــرض التدرب على أعمال الإسعافات الأولية وإطفاء الحرائق، وهكـــذا ظلّـــت عمليات التعبئة العامة تجري على نحو سريع في جميع أنحاء المدينة، وظل المواطنون يتساءلون في كل مكان عن مصير أبنائهم المجندين والمتطوعين ..

في غمرة تلك التساؤلات التي لا طائل من ورائها خرجت

الـــصحيفة الوحـــيدة (الكوريري دي بنغازي) تحمل خبراً أثار مشاعر الخوف لدى جميع السكان بما يحمله من تحذير وتعليمات صـــارمة لم يكن لها سابقة، إذ لم يكن ذلك الخبر سوى (إعلان الأحكـــام العـــرفية) الذي يتضمن أوامر شديدة تنص على منع الـــتجول مـــن بداية المساء حتى الصباح التالي، والالتزام بإطفاء الأنـــوار كلـــياً عند انطلاق أصوات صفارات الإنذار المثبتة في المـــيادين والأماكن العامة، والالتجاء إلى المخابئ المعدة لحماية الـــسكان من الغارات الجوية المحتمل وقوعها، وبمجرد صدور ذلـــك الإعـــلان غيـــر المنتظر نشطت حملة الدفاع المدني التي اســـتهدفت طلاء المصابيح باللون الأزرق في الشوارع الرئيسية والميادين والأماكن القريبة من المنشآت العامة، وإثر هذه الحملة التـــي لـــم تـــشهد المدينة مثيلاً لها ساد التوتر بين السكان الذين أصـــبحوا يتـــرقبون أحداثاً أخرى لا يعرفون مدى تأثيرها على نفوسهم ولا كيف سيكون حجم الأضرار التي ستلحق بالمدينة في حالـــة تعرّضـــها للغارات الجوية التي يحذر من وقوعها إعلان الأحكام العرفية .

***

فـــي شـــهر سبتمبر وبعد فترة من الهدوء الذي نعمت به المدينة ولم يشعر السكان خلالها بأي شيء يمكن أن يهدد أمنها أو يـــشكل خطـــراً على سير الحياة فيها، تمت المفاجأة إذ بينما كان السكان مجتمعين حول موائد العشاء في جو الليل الهادئ انطلقت أصوات صفارات الإنذار تبدد أصواتها المزعجة الشعور بالراحة والأمـــان، إذ سرعان ما أُطفئت الأنوار وساد الظلام وعمَّ سكون رهيب شمل المدينة بأسرها ولم يدم إلاَّ قليلاً، فقد انبعث من علو شـــاهق هدير محركات له وقع غريب ظل يشتد كلما اقترب من سـماء المديـــنة، ولـــم تلبث أن ظهرت الأضواء الكاشفة تجوب الـــسماء بحـــثاً عن الطائرات المعادية، ولم يلبث أن تحول ذلك الهدير إلى أصوات مزعجة تصم الآذان وأعقبها دوي انفجارات قوية مادت لوقعها الأرض واهتزَّت الجدران بعنف حتى انفتحت أبـــواب البـــيوت والنوافذ التي أحدثت صريراً قوياً أرعب النساء والأطفـــال وهـــم يسمعون تناثر الزجاج على الأعتاب وضجت البيوت بالصراخ والعويل وارتفعت فيها أصوات العجائز تستنجد بالأولـــياء لطلب الحماية والنجاة، ولم يكن الرجال أقل فزعاً من النـــساء والأطفـــال في تلك اللحظات الرهيبة، وإن ظلوا يكتمون مـــشاعرهم بإشـــعال الـــسجاير ونفث دخانها في الظلام الدامس المشحون بالخوف والقلق، وبينما كانت حالات الصراخ تتزايد في

البيوت خوفاً من انهيارها على ما فيها كانت الأنوار الكاشفة المنبعثة من المواقع العسكرية تسلط أشعتها المبهرة لملاحقة الطائرات الإنجليزية المغيرة وتمكين المدافع المضادة للطائرات من اصطيادها وضربها، إلاَّ أن ما قامت به المدافع من محاولات لم تفلح في اقتناص تلك الطائرات التي ظلت تناور بسرعة مذهلة حتى أفلتت من حصار الأضواء والنيران حتى اختفت ولم يعد يُرى لها أثر، وعند ذلك توقفت أصوات المدفعية وانطلقت أصوات صفارات الأمان إيذاناً بانتهاء الغارة الجوية التي روّعت سكان المدينة لأول مرة في تاريخها ..

❋❋❋

ما كادت تشرق الشمس بعد ساعات مرت بطيئة على المواطنين الذين ظلوا ينتظرون انبلاج الصباح في قلق وتوتر حتى خرجوا إلى الشوارع متلهفين على معرفة ما حدث بالمدينة بعد الغارة الجوية التي روعتهم في الليلة الماضية، ولم تلبث أن انتشرت الأخبار عن الأضرار التي لحقت بالميناء وأدت إلى إغراق طراد حربي وإصابة العديد من القوارب وموت بعض الضحايا كان أشد الأخبار وقعاً على النفوس خبر القنبلة التي سقطت في شارع بالـه وأدت إلى مقتل ثلاث عائلات من

المواطنـــين جمعهـــا الخـــوف في بيت واحد، فقد أدى هذا الخبر المحـــزن إلى تعميق الشعور بالكارثة التي حلّت بالمدينة الآمنة، ومنذ ذلك اليوم بدأت أول عمليات النزوح التي قام بها المواطنون طلباً للملاذ الآمن في القرى والضواحي البعيدة عن المدينة، حيث بـــدأت عـــربات الكـــارو التي تجرها الخيل والحمير تخرج من الـــشوارع والأزقـــة محملـــة بالنساء والأطفال والعجائز وبعض الأمـــتعة الـــضرورية وأدوات الاســـتعمال اليومـــي، كانت تلك العـــربات تـــسير فـــي طوابير غير منتظمة حتى تكاد تصطدم ببعضها وكان يتقدمها بعض الرجال من راكبي الدراجات ويسير خلفها رجال آخرون يمشون على أقدامهم وقد بدت على وجوههم أمـــارات القلـــق وهـــم يغادرون المدينة ولا يعرفون ماذا سيحل بـــأهلهم إذا طالـــت مـــدة الحـــرب، كانت هذه أول عملية نزوح جماعية تشهدها المدينة .

***

وهكـــذا استقر المواطنون في القرى والضواحي، وتغيـــر ســـير الحياة اليومية في المدينة بسبب تغيير مواعيد العمل، وظلَّ أصـــحاب المتاجـــر والعمال وغيرهم من العاملين في الشركات والمـــرافق العامة والصناعات المحلية يحضرون إلى المدينة في

الـصباح الباكـــر ويغادرونها قبل حلول الظلام، فتبقى خالية من الـــسكان طيلة الفترة التي تعقب ذلك الوقت حتى الصباح التالي، يلفهـــا الظــــلام الموحش ويسودها سكون مطبق لا يقطعه سوى أصـــوت صفارات الإنذار التي يصحبها مواء القطط التي تجري مذعـــورة فـــوق الحيطان وفي الشوارع الخالية، ورغم الشعور بالأمـــان في تلك الأماكن البعيدة عن الخطر فقد ظل المواطنون يعانـــون مـــن مشاكل النقل التي تلازم حركة تنقلهم اليومية بين المدينة والقرى والضواحي صباحاً ومساءً، وما يصحب ذلك من المعاناة اليومية القاسية التي ظلّوا يتعاونون للتغلب عليها بكل ما يستطيعون .

❊❊❊

يـــبدو أن الإنجليـــز لم يكتفوا بالغارات الجوية العنيفة التي توالت على المدينة وأدت إلى إحداث دمار واسع شمل المؤسسات والمـــرافق في الحي الغربي، منها مبنى البريد المركزي ومبنى المحافظـــة وقصر البرلمان السابق ومبنى فندق إيطاليا الذي يُعد مـــن أجمـــل مبانـــي المدينة، ومباني بعض البيوت الأهلية التي أصـــبحت خـــراباً شوّه وجه المدينة، حيث فاجأوا السكان بغارة بحـــرية لأول مـــرة منذ بداية الحرب، فبينما كانَ النازحون في

القـــرى الساحلية يسهرون أمام البيوت والأكواخ شاهدوا أضواءً تـــومض وتخـــبو بسرعة في آفاق البحر المظلم، ثم تبعها دوي انفجارات متلاحقة بثت الخوف في نفوسهم بعد أن وجدوا الأمان بعـــيداً عن المدينة، توالى قصف السفن الحربية الإنجليزية التي ظلت تدك الميناء وما حوله من منشآت، ولم تفلح بطارية المدفعية الـــساحلية المنـــصوبة على شاطئ اللثامة في إيقاف تلك الهجمة المباغـــتة رغم ما أطلقته من قذائف ثقيلة يبدو أن مداها لم يصل إلـــى حيث ترسو السفن المهاجمة، ودامت تلك الهجمة الإنجليزية مدة ساعة من القصف المتقطع ثم توقفت وتلاشت الأضواء التي كانت تومض وتخبو في آفاق البحر الذي أطبق عليه الظلام، ولم يعـــد الـــنازحون يـــرون ســـوى ألسنة اللهب وهي تتصاعد من الحرائق التي اشتعلت في منشآت الميناء ..

***

لقـــد ســـاءت حالـــة الـــسكان بعد أن أصبحت الطائرات الإنجليـــزية لا تغـــيب عن سماء المدينة ليلاً ونهاراً لشل حركة الدوائر العسكرية الإيطالية، ولم يعد في إمكان أحد الحصول على كفايـــته من المواد الغذائية التي بدأت تتناقص مع مرور كل يوم، واشـــتدّت الضغوط النفسية على جميع السكان بمختلف أجناسهم

وعمَّ الاستياء، وظلت الحالة غامضة، وبدأ الإيطاليون يشكون في صحة البلاغات الحربية التي كانت تصدر عن القيادة العامة لقواتهم المسلحة لأنها لا تعكس حقيقة ما يجري في ساحة القتال، وازداد الأمر سوءاً عندما انتشر خبر مزعج تسرب من بعض الجهات العسكرية مفاده أن قوات الجيش الإيطالي في ميدان سيدي البراني تواجه صعوبات شديدة في صد هجمات الإنجليز العنيفة الأمر الذي أذهل أصحاب الشركات والمؤسسات المالية وأصابهم بالذعر لأنهم توقعوا انهيار الجبهة وهذا يعني خسارة فادحة لهم، فأخذوا يلعنون من كان السبب في إشعال نيران الحرب، ويسبون القيادات العسكرية الفاشلة، ثم أخذوا يعولون على نقل عائلاتهم إلى طرابلس تحسباً لِما سيحدث في أعقاب الانسحاب المباغت ..

***

وفي مقر شركة المقاولات العامة التي شهدت مناقشات حامية بين جميع موظفيها كان السنيور أنجلو صاحب الشركة يتحدث مع نائبه وقد احتقن وجهه وبدت عليه أمارات الغضب وهو يضرب بقبضة يده على طاولة المكتب ويصب اللعنات على القيادات العسكرية الفاشلة التي أوصلت قوات جيشهم الذي كان

يـــضرب به المثل إلى حافة الهاوية، هذا ما شاهده وسمعه أسعد عندما دخل يحمل الصحيفة اليومية التي أخذها منه السنيور أنجلو وألقـــى بهـــا في زاوية المكتب، فاستغرب ذلك التصرف الذي لم يعرف له سبباً والذي شهده لأول مرة منذ تعيينه في تلك الشركة، فخـــرج مسرعاً إلى مكتب سي الكيلاني الذي وجده جالساً يمعن النظـــر في نفس الصحيفة التي رماها السنيور أنجلو وأخبره بما كان يدور من نقاش بين الموظفين من جهة، وبين السنيور أنجلو ونائـــبه مـــن جهة أخرى، وما طرأ على تصرف السنيور أنجلو الـــذي كـــان فـــي حالة هيجان، ثم طلب منه أن يخبره عمّا كان يجري بين أروقة الشركة في ذلك الصباح، ولاحظ سي الكيلاني مدى اهتمام أسعد بمعرفة كل ما يجري بالشركة فوضع الصحيفة جانباً وقال :

- اسمع يا بني ما سأقوله لك حتى تعرف أشياء كثيرة عن حالة بلادنا وأهلها ..

في الأيام الأولى للاحتلال العسكري شهدت مدينتنا الآمنة التـــي روعهـــا الغـــزو الإيطالي البغيض جماعة من المغامرين الإيطاليـــين الذي وفدوا مع جحافل ذلك الغزو بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة في إيطاليا، فشدوا الرحال إلى بلادنا التي سرعان ما

وجدوا فيها مجالات عديدة للعمل في المشاريع العسكرية فأنشأوا مكاتب صغيرة للتجارة والملاحة والمقاولات لم تلبث أن تطورت بمساعدة ضباط القوات المسلحة الذين كانوا يعهدون إليها بتنفيذ تلك المشاريع نظير حصولهم على نسبة مئوية من تكاليف إنجازها، وبتلك المساعدات أصبح أولئك المغامرون من رجال الأعمال المرموقين خاصة بعد أن أتاحت لهم المشاريع الاستيطانية التي توالت إقامتها وأدت إلى اتساع دائرة أعمالهم، فأصبحوا من ملاك العقارات والمزارع والمصانع، ويُطلق عليهم اسم الرواد الأوائل، ومن بينهم السنيور أنجلو صاحب هذه الشركة الذي لفت نظرك ما حلَّ به من غضب، فهو لم يكن وحده يعاني من تلك الحالة، فجميع الرواد الأوائل كانوا مثله يعيشون أسوأ أيام حياتهم، يؤرقهم القلق ويزعجهم التفكير فيما آلت إليه حالة الحرب التي تنذر بالهزيمة والتي ستكون آثارها ضارة فيما لو حدثت لأن ذلك سيؤدي إلى فقدان كل ما أقاموه من مؤسسات كبيرة تقدر قيمتها بملايين الليرات، وهذا هو السبب الذي أدى إلى تنغيص حياتهم وجعلهم لا يستطيعون التحكم في أعصابهم لأنهم لا يعرفون ماذا سيحل بهم في المستقبل .

❋❋❋

في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها السلطات الإيطالية المدنية وهي تترقب أسوأ النتائج، صدرت أوامر عسكرية عن القيادة العامة للأركان تفيد أن القوات المسلحة الإيطالية قررت الانسحاب من جبهة القتال لأسباب استراتيجية بصورة مؤقتة، ستعود بعدها إلى مواصلة القتال، وأنها حرصاً منها على سلامة السكان والممتلكات العامة والخاصة قررت جعل بنغازي مدينة مفتوحة حتى لا تتعرض إلى أضرار فادحة في الممتلكات والنفوس فيما لو نشب قتال داخل شوارعها، وامتثالاً لهذه الأوامر العسكرية طلبت السلطات المدنية من جميع السكان الالتزام بالهدوء وعدم التجول في الشوارع إلاَّ عند الضرورة القصوى، مع توخي الحذر، وهكذا توقفت الحركة، فقد بقي السكان في أماكن تواجدهم خارج المدينة، وظلوا يترقبون في قلق ما يمكن أن يحدث بعد السكون المريب الذي أطبق على المدينة .

وفي صبيحة السادس من فبراير 1941 أطلّت طلائع القوات الإنجليزية على مشارف المدينة وتوقفت قليلاً عند تقاطع الطريق المؤدية إلى منطقة السلماني، كانت مؤلفة من المصفحات وناقلات الجنود المدججين بالسلاح، وسيارات أخرى تحمل أجهزة

الاتصالات اللاسلكية ذات الهوائيات الطويلة، ثم تقدمت غرباً حتى عبـرت (فم السور) مدخل المدينة الشرقي لأول مرة، ولم تواجه فـي زحفهـا أية مقاومة، إذ لم تُطلق ضدها رصاصة واحدة، فقد كانـت المديـنة مهيأة لاستقبالها بالاستسلام، ولن تلبث أن طافت بالـشوارع وسـط حـشود من المواطنين الذي أسرعوا للترحيب بقـدومها وهم يصفقون ويضربون البنادير والطبول، ثم وبعد أن استكملت جولاتها داخل المدينة للتأكد من عدم وجود قوات معادية اسـتقرت فـي المعـسكرات التـي أخلتها القوات الإيطالية عند انـسحابها، ومع حلول منتصف النهار فوجئ المواطنون بجماعات مـن جـنود الاحـتلال الذين تسللوا من المعسكرات ينتشرون في شـوارع المديـنة وأسـواقها المقفلة، كانوا يبحثون عن المحلات والمتاجـر الإيطالية ويحطمون أبواب الخمارات التي استولوا على مـا فيها من بقايا المشروبات ذات الأنواع المختلفة التي عبوا منها حتى ذهب السكر بعقولهم، وأخذوا يعربدون في الشوارع والميادين ويقـتحمون بيوت الدعارة ويطاردون المومسات الإيطاليات اللائي لـم يسعفهن الحظ بمغادرة المدينة مع من هربوا إلى طرابلس، ولم يـتورع أولـئك الجنود من التحرش ببعض الشبان من المواطنين ويـشتبكون معهـم بالأيـدي ويتبادلون اللكمات وقد تمكن أولئك الـشباب مـن الـتغلب علـى أكثـر الجنود المخمورين ودامت

الاشـــتباكات حتى الأصيل حينما حضرت قوة من رجال الشرطة العسكرية ذوي القبعات الحمراء، وقاموا بمطاردة الجنود السكارى وإلقـــاء القـــبض عليهم ونقلهم في سيارات شحن كبيرة، وعند ذلك عـــرف المواطنون أن أولئك الجنود هم من الفوج الأسترالي التابعٍ للقوات الإنجليزية، ومع حلول المساء ساد الهدوء، ورغم ذلك ظلّ المواطـــنون الـــذين عادوا إلى المدينة في تلك الليلة يحكمون إقفال أبـــواب البـــيوت والنوافذ، ولا يفتحونها إلاَّ مواربة إذا تطرق إلى أســـماعهم صوت حركة ليستطلعوا ما يجري في الشوارع المظلمة التـــي يلفها السكون، كانت هذه أول ليلة يبيتون فيها داخل المدينة مـــنذ خـــروجهم مـــنها عند بداية الغارات الجوية الإنجليزية التي أرغمـــتهم على النزوح، ولم يخطر ببالهم أن يداهمهم الخوف من عـــساكر المحتل الجديد الذين أشاعوا الفوضى بالمدينة منذ وطئت أقدامهم أرضها بتلك التصرفات الهمجية التي جعلتهم في حالة توتر أطـــارت الـــنوم من عيونهم حتى اضطروا إلى أن يظلوا في حالة يقظـــة طوال تلك الليلة تحسباً للمفاجآت، وهكذا ظلت المدينة التي فـــتحت ذراعـــيها لاستقبال القوات الإنجليزية والترحيب بقدومها، مفتوحة على جميع الاحتمالات ..

***

رائحة البيت

تفاقمت الحرب التي ظلت تزداد مع مرور كل يوم خطورةً، وتوالت على المدينة أسراب الطائرات المتحاربة التي كانت تدك أرضها وتتقاتل في سمائها، وكانت أولى نتائج هذه الأحداث اختفاء الخبز من الأسواق، الأمر الذي أدى إلى إشاعة التذمر بين المواطنين والمقيمين عندما شعروا بهذه المشكلة الخطيرة، كانوا قد تعوّدوا منذ بداية الحرب على تقنين مواد التموين التي كانت تُصرف بالبطاقات بمقادير قليلة لكل فرد تكاد لا تسد حاجته اليومية والتي أصبح الحصول عليها يزداد صعوبة مع مرور الأيام لعدم توفرها بانتظام في مراكز التوزيع، وكانت هذه أول أزمة تتعرض لها المدينة وتكشف عن عجز السلطات الإيطالية على الإيفاء بمطالب السكان الضرورية الذين تحملوا نقص بعض المواد الأخرى، ولا يمكنهم تحمل فقدان الخبز ذلك الغذاء اليومي الذي لا يمكن لأحد الاستغناء عنه ..

***

كانت هذه المشكلة قد نجمت عن قيام تلك السلطات بتخفيض كميات الدقيق التي كانت توزع على المخابز والتي عجزت بدورها عن تلبية حاجات السكان من الخبز اليومي، وهكذا ظلت مشكلة نقص الدقيق تشغل السكان وتتصدر أحاديثهم اليومية وتثير القلق في نفوسهم، كما كانت تزعج أصحاب المخابز الذين أصبح لا همَّ لهم سوى التفكير فيما ستؤول إليه صناعتهم التي أصبحت مهددة بالتوقف بسبب غياب الدقيق الذي تعتمد عليه في عملها، وكان من بين الأحاديث التي كانت تثار في البيوت والأسواق وأماكن العمل ذلك الحديث الذي جرى في مخبز الشاطئ بين السنيور ميكيلي صاحب المخبز وصديقه المعلم رينالدي وخليفه زايد العامل في المخبز، قال السنيور ميكيلي وهو يتأمل مخزن الدقيق الذي أصبح خاوياً :

- من كان يتوقع أن يخلى هذا المخزن من الدقيق الذي كان يمتلئ بأكياسه حتى السقف؟ هل كان من الممكن أن يحدث هذا الفراغ المفزع لولا هذه الحرب اللعينة ؟

- هكذا في حالات الحروب لابدَّ من حدوث كل ما يسبب الإضرار بالناس، وما نعانيه من قلق في هذه الأيام هو مثال على ذلك، قال رينالدي ..

ـ أعلم ذلك جيداً، ولكن لم أتوقع أن تكون الأزمة بهذا الشكل المفاجئ الذي أذهل الناس، قال ميكيلي ..

ـ علـــى المـــرء أن يتوقع كل المفاجآت التي لا تخطر على الـــبال، فالحرب لا يعرف أحد كيف تبدأ ومتى تنتهي وما هي نتائجها؟ ، قال رينالدي ..

ـ إن نـــتائج هـــذه الحرب التي تبدو محتملة تثير الخوف في النفوس، ولا يعلم أحد ماذا سيحل بنا في النهاية ؟

وتـــساءل ريـــنالدي وهو ينظر إلى خليفة زايد الذي كان يتابع حديثهما وهو يجلس في زاوية المخبز ..

ـ أيـــن أنـــت يـــا خليفة؟ ما هو رأيك فيما تطرقنا إليه حول المشكلة ؟

وتردد خليفة قليلاً ثم قال :

ـ الحـــديث عن أزمة الخبز يذكرني بكلمة لموسوليني وردت في كتاب المطالعة بالسنة الثالثة الابتدائية، هل تسمحان لي بقولها ؟

ونظـــر الـــرجلان إلـــى بعضهما في دهشة، ثم قالا في صوت واحد :

- أسمعنا هذه الكلمة حتى نعرف رأي الزعيم في الخبز !

وأخـذ خليفة في إلقاء كلمة موسوليني وهما يستمعان إليه في انتباه :

- " أيها الإيطاليون، أحبوا الخبز، قلب البيت ورائحة غرفة الطعـام، احتـرموا الخبز، عرق الجبين ومجد الحقول، شرفوا الخبز عطر الأرض وعيد الحياة " ..

- صـحيح هذه الكلمة للزعيم قالها في إحدى زياراته لحقول القمح بإيطاليا، قال رينالدي

وهنا بدأ الغضب على وجه ميكيلي وقال :

- وماذا في إمكان موسوليني أن يقول لنا فيما نعانيه اليوم من فقدان الخبز الذي يتشدق بتمجيده ؟

وقال رينالدي معقباً على تساؤل ميكيلي :

- أتخيل موسوليني يقف في قصر فينيسيا وهو يضع يديه في خصره ثم ينفخ أوداجه ويقول لنا :

- "حافظوا على (البشماط) واستعدوا للـ ......

ولـم يـستطع رينالدي إكمال بقية الكلمة التي أراد أن

ينسبها إلى الزعيم، فقد انتابته ضحكة طويلة سرعان ما سرت عـــدواها إلى ميكيلي الذي انفجر هو الآخر في ضحكة اهتزّت لهـــا يـــده حتى سقطت منها السيجارة التي داس عليها لتحدث بقعـــة ســـوداء على البلاط الذي ما زال يغطيه غبار الدقيق، حدث هذا بينما وقف خليفة مذهولاً لا يدري سر ذلك الضحك الذي أعقب كلمة الزعيم ..

* * *

ظلـــت الأيـــام تمر بطيئة مشحونة بالقلق، وسادت حالة التوتـــر في المدينة، فمنذ أن تناقص العمل في الميناء وكاد أن يـــنعدم أدى ذلك إلى تعطل العمال، ثم زاد الحالة سوءاً إغلاق المخابز وبعض المنشآت المدنية، الأمر الذي ساهم في تضخيم حجم البطالة وزيادة عدد العاطلين عن العمل، كل هذه الأسباب مجـــتمعة خلقـــت التذمـــر فـــي نفوس المواطنين التي طفحت بالمرارة، وظل الرجال يعانون قسوة الأزمة ويحاولون التغلب علـــى المصاعب في سبيل توفير ما يمكن الحصول عليه من المـــواد الغذائية التي ندر وجودها حتى في السوق السوداء في تلـــك الأيام العصيبة التي حاصرهم فيها الخوف وأرعبهم شبح الجـــوع، لقـــد طافوا على كل الأسواق في المدينة وضواحيها

بحثاً عن شيء يصلح للأكل ولم يجدوا سوى بعض (البراسيم) من التمور التي بدأ يتسرب إليها السوس من جراء تخزينها لمدة طويلة، ورغم أنهم كانوا يحملون نقوداً إلاَّ أن هذه النقود لم تعد لها قيمة، فقد أصبحت عديمة الجدوى في غياب الحاجيات الضرورية، ولم تكن النساء أقل انزعاجاً من الرجال، فقد شعرن بهول المأساة منذ بداية غياب الدقيق عن البيوت، وظهر عمق ذلك الشعور على حالتهن وهن يقمن بإغلاق (التنانير) التي وضعن على فوهاتها ألواحاً معدنية مدعومة بقطع من الحجارة الثقيلة لحمايتها من تأثير العوامل الجوية، لقد ذرفت بعضهن الدموع وهن يقمن بهذه المهمة التي لم يكن ليلجأن إليها لولا تلك الظروف الحرجة التي سببت لهن المعاناة والتي لا يعرفن إلى متى ستطول وتظل التنانير على هذه الحالة غير المرغوب فيها..

❊❊❊

كانت منطقة دكاكين حميد ضاحية جميلة ذات بيوت بيضاء وأزقة ضيقة تحدها من الشمال كثبان الرمال ومزارع الخضروات التي تنتشر في منخفض واسع به عدة آبار من المياه العذبة، ومن الشرق والغرب أشجار النخيل الباسق،

ويحدها من الجنوب الطريق العام، كما تتوسطها ساحة صغيرة تصطف في جوانبها الدكاكين والمقاهي ومحلات الجزارة وباعة الفحـــم والحطـــب، ونظـــراً لوجود موقعها على ذلك الطريق الرئيـــسي أصـــبحت ملتقى للمواطنين الذين يرون بها صباحاً ومـــساءً خـــلال تنقلاتهم بين المدينة والقرى التي ألجأتهم إليها ظـــروف الحرب، وهذا الموقع المتميز جعل سكانها أكثر الناس اهتماماً بما يحدث في المدينة التي يستقون أخبارها من العابرين للطـــريق الذين يتوقفون فيها لقضاء بعض الحاجيات، وكان في مقدمة المهتمين بتتبع أخبار الحرب والتعليق عليها وتوقع النتائج التـــي قـــد تترتب عنها الحاج بوعطية الجندي المتقاعد والشاب خلـــيفة زايـــد الذي أصبح عاطلاً عن العمل منذ إغلاق المخبز الـــذي كـــان يعمـــل به، كانا يلتقيان في ساحة السوق ويخبران المواطنـــين الـــذين يترددون على تلك الساحة في كل مساء بما تحـــوي جعـــبة كل منهما من الأخبار التي يتوصلان إليها عن طريق الاختلاط بالعابرين، ولما كان الحاج بوعطية يسكن قريباً مـــن الطـــريق العام فقد أتاحت له هذه القربة مراقبة تحركات القـــوات المـــتحاربة على ذلك الطريق وتمييز هويتها حتى في الليالي المظلمة عن طريق تحاور العسكر مع بعضهم، فيعرف إن كانـــت مـــن قوات الطليان والألمان أو من قوات أعدائهما

الإنجليز وأتباعها، وسواء كانت متجهة شرقاً أو غرباً، أو كانت في حالة تقدّم أو تقهقر، كان بوعطية يرصد حركات الكر والفر ويخبر الذين يحضرون إلى ساحة السوق بتوقعاته وفيما ستؤول إليه من نتائج حسب خبرته، وكان من بين الحاضرين من يقتنع بتوقعاته ومن يشكك في جدواها فينصرف غير مكترث بها .

***

في إحدى الأمسيات أخبر الحاج بوعطية المواطنين الذين تجمعوا في ساحة السوق بآخر ما توصل إليه من خلال مراقبته للطـــريق العام ورصد حركات القوات المتحاربة وبأنه قد شاهد فـــي اللـــيلة الماضـــية رتلاً من السيارات العسكرية تتجه غرباً وسمع ضوضاء بعض الجنود الإيطاليين مما يدل على الشروع فـــي الانسحاب من جبهة القتال، ثم دعاهم إلى الاستعداد للتوجه إلى مواقع المنشآت العسكرية ومخازن الإمدادات لاقتحامها بعد مغـــادرة جنود الحراسة لها والاستيلاء على المخلفات التي لابدَّ أن يكـــون بها بعض من المواد الغذائية التي تعوضهم عن أيام الحـــرمان التـــي طال أمدها، وسادت ضوضاء بين الحاضرين الـــذين أخـــذوا يتساءلون عن أماكن المنشآت والمخازن وكيفية

العمل للوصول إليها، في أثناء ذلك خاطبهم سي ميلود الذي كان يجلس أمام دكان الفحام كعادته كل مساء :

ـ عليكم بمخازن الجرمانيا راهي مليانه بالبضايع !

ـ قول لنا شنو فيها خير ما نتعبوا بلا فايدة ؟، تساءل الفحام..

ـ فيها جميع ما يسمي فمك من بضائع، غير توكّلوا على الله ..

ـ من قال هالكلام، ايش عرّفك بالبضائع اللي اتقول عليها؟، تساءل رجل آخر ..

ـ انـــا كنت نخدم فيها ما سيبتها نين بطلوني منها في الشهر الفائت ..

وأنهـــى خلـــيفة زائـــد تلك المحاورة الساخنة طالباً من الجميع التوجه إلى منطقة رأس عبيدة حيث توجد مواقع منشآت الأشـــغال العسكرية ومخازن التموين الكبيرة، التي عرفت لدى المواطنـــين باسم (مخازن الجرمانيا) منذ أن شاهدوا سيارات القوات الألمانية تتوافد عليها للتزود بمواد التموين ..

❋❋❋

وبـــات سكان دكاكين حميد تلك الليلة يترقبون مطلع النهار ويحلمـــون بالمخازن التي قيل لهم إن بها موادًا غذائية، حتى إذا انتشر ضوء الشمس أخذوا يجهزون عربات الكارو ويعدون العدة للـــتوجه إلـــى منطقة رأس عبيدة، وسرعان ما تكوّنت قافلة من العـــربات مختلفة الأحجام التي تجرها الخيول والحمير وتحركت تعبر الطريق الخالي من الحركة في بواكير الصباح، في جو من الـــصمت فقد كان الرجال يتوجسون خيفة من خطر ظهور قوات إيطالـــية قد تتعرض لهم، ولا يعلم أحد ماذا سيكون مصيرهم بعد ذلـــك، وواصلت القافلة سيرها حتى إذا وصلت إلى منطقة رأس عبـــيدة تـــوقفت فـــي ســـاحة المخازن التي تقصدها، كانت تلك المخـــازن التي تتكون من بناية ضخمة ذات سقف بيضاوي بها ثلاثـــة مـــداخل تعلو على مستوى الأرض وبها ثلاثة أبواب من الخـــشب المتـــين مثبتة بها دعامات حديدية، وارتاب الرجال من عـــدم وجـــود قوة حراسة ظاهرة إلاَّ أنه ما كادت تمضي دقائق معدودة على توقف القافلة بتلك الساحة حتى توافدت عليها جموع مـــن سكان تلك المنطقة الذين جاءوا بعرباتهم عندما علموا بقدوم القافلـــة فانضموا إليها وأخبروا الرجال بأن جنود الحراسة تركوا المخـــازن وغادروا المنطقة منذ الليلة الماضية، وعند ذلك اطمأنَّ رجال القافلة وقام الجميع بضرب الأقفال الحديدية الكبيرة بقواديم

(الماصـّـــات) حتى تمكنوا من كسرها بعد جهد شاق، وما إن تمَّ لهم فتح الأبواب حتى اندفعوا إلى الداخل يتزاحمون بالمناكب ثم بدأوا يخرجون محملين بأكياس الدقيق والسكر وصناديق المعلبات يــضعونها على العربات حتى إذا ثقلت أحمالها أخذ كل من يعبئ عــربته يــسرع فـــي مغادرة الساحة ليبتعد عن ذلك المكان، فقد تناهت إلى أسماعهم أصوات طلقات نارية آتية من داخل المدينة وأشيع بينهم أن قوة الشرطة الإيطالية ما زالت باقية في مراكزها ولهــذا انـــتابهم الخوف من حضور أفرادها المدججين بالأسلحة الرشاشـــة والذين لا يتورعون عن إطلاق النار عليهم، والحيلولة بينهم وبين الغنائم التي حصلوا عليها بشق الأنفس، وتفادياً للخطر المحتمل قرر الرجال القادمون من منطقة دكاكين حميد العودة من الطـــريق الترابـــي المحاذي للسبخة بعيداً عن داخل المدينة حتى يأمنوا على ما تحمل عرباتهم من المواد الغذائية التي حُرموا منها زمـــناً طويلاً وتحصلوا عليها بعد تجشم المخاطر، وهكذا أخذت قافلـــتهم الـــصغيرة تعبر ذلك الطريق الموحل الذي أجهد الخيول والحميـــر وهـــي تجر العربات بصعوبة بالغة، وجعلهم يتناوبون على دفع العربات من الخلف لتخفيف العناء على تلك الحيوانات.

❋❋❋

كان الوقت ظهراً عندما وصلت القافلة العائدة بالغنائم إلى المكــان الــذي انطلقت منه منذ شروق الشمس لتقابل بتصفيق الــصبيان الــذين تجمعوا حولها فرحاً بعودة آبائهم سالمين، لقد دبــت الحياة بين المواطنين في منطقة دكاكين حميد الذين ذاقوا مــرارة الحــرمان وقــوة الجوع مثل غيرهم من سكان المدينة المــنكوبة، وســرعان مـــا انتشر الصبيان بين النخيل يجمعون الحطــب المعــتاد للوقود والمكوّن من (الكرناف) و(الليف) و(العراجين الجافة)، وباشرت النساء العمل في إعداد العجاين وتخميــرها كمـــا قمن بإزالة الأغطية عن (التنانير) وتنظيفها وحـــشوها بالحطب الذي أحضره الصبيان ثم إضرام النار فيها حتى بدأ لهيبها يتصاعد وسط كثافة الدخان الذي انتشر في الجو مختــرقاً جريد النخيل الساكن في ذلك الجو المشبع بالرطوبة، ومـــا إن تمَّ إعداد التنانير بالحرارة اللازمة لإنضاج الخبز حتى أخذت النساء في إلصاق أقراص العجين المستديرة في جنباتها، ومـــع بداية الغروب ارتفع ضجيج الأطفال الذين أسعدهم عمل الأمهات وهن يدخلن أيديهن في أفواه التنانير الحامية ويخرجن منها أقراص الخبز الطازج الذي ملأت رائحته جو المكان .

***

وفي تلك الليلة كان كل شيء هادئاً عدا ما كان يسمع بين حـــين وآخـــر وهو نباح الكلاب الآتي من الجهة الشرقية حيث توجد مزرعة الكروم الكبيرة، وكانت البيوت تتلألأ أنوارها، لقد التأمت السهرات العائلية في كل أطراف المنطقة ونسي الجميع أوامر الأحكام العرفية التي تمنع إضاءة المصابيح بعد الغروب تحسباً للغارات الجوية، وفي مربوعة الحاج بوعطية التأم شمل الجيـــران فـــي سهرة، وأخذوا يتناقشون فيما بينهم عن أحوال المديـــنة وتطـــورات الحـــرب، وقـــد تصدرت حديثهم حكاية الانـــسحاب الذي شاهد الحاج بوعطية بدايته منذ يومين والغنائم التي تحصلوا عليها..

- لـــولا كلام الحاج بوعطية على نوضة الطليان ما حصلتو هالواغمه، قال خليفة زايد ..
- صحيح لو كان ما دلنا على مكان المخازن ما كانت خاطره علينا بلكل، أجاب القهواجي ..
- بوعطية دلكم عالمخازن وانا اللي وريتكم شنو فيها انسيتو!، قال سي ميلود ..
- صدقت يا سي ميلود بوعطية دلنا على مكانها وانت خبرتنا عليّ فيها، قال خليفة زايد ..

- يـــا جماعه هالنوضه اللي اتقولوا عليها ازعم ايسير منها؟ ماندروا عليها؟ تساءل سي ميلود ..

- النوضـــه امواير ها باينه، كلام الحاج بوعطية كلام راجل امجرب، قال خليفة زايد ..

- لـــو كـــان الكلام صحيح راهو خبرونا العرب اللي يمروا علينا كل يوم، قال القهواجي ..

وبيـــنما كـــان الجميع يتحاورن بين مؤيد لتوقعات الحاج بوعطية ومعارض لها، منهمكين في ذلك الحوار الذي شغلهم عن مرور ساعات الليل، وصل إلى أسماعهم ما جعلهم يتوقفون عن الحـــوار وهم في حالة من الذهول، لقد بدأ هدير المدرعات التي كانـــت تعبر الطريق متجهة غرباً يملأ الجو صخباً، وقفز الحاج بوعطـــيه من مكانه فأطفأ (الفتيلة) ثم أسرع إلى فتح النافذة على مصراعيها حتى تتضح الأصوات ويرى بعض الآليات الضخمة تـــسير فـــي خط متوازٍ مع رتل من السيارات العسكرية المحملة بالجـــنود كأنهـــا فـــي حالة سباق مع الزمن، وأدرك الجميع أن الانسحاب الثاني لقوات المحور كان حقيقة.

❋❋❋

معطف النقيب

كـــان الوقت مساء في ذلك اليوم من أيام الربيع، وكانت السحب البيضاء تملأ الأفق تحت زرقة السماء، بينما كانت ريح شمالية خفيفة تهب وسط برودة الجو التي تعقب انحسار الشمس في تلك الأيام الربيعية .

وكان سي محمد سعيد عائداً مع ابنه سالم يحثان الخطى في طريقهما إلى قرية (اللثامة) التي اتخذ منها مقاماً لعائلته منذ بداية الحرب الكونية في الأربعينيات، كانا عائدين كعادتهما بعد قــضاء الـــيوم في الدكان بسوق الجريد، ولفت نظرهما وجود سيارة واقفة بجوار المرتفع المعروف باسم (الزريريعية)، كان بعــض المواطنـــين يتـــزاحمون حولها وعندما وصلا إلى ذلك الـــتجمع تبينا أن السيارة لوري من نوع (بيدفورد)، وأن بها علامـــات وأرقـــام تدل على أنها تابعة للقوات البريطانية التي كانـــت قد انسحبت منذ الأمس، كانت السيارة عاطلة، ويبدو أن المنـــسحبين تـــركوها بكل ما فيها من الأمتعة العسكرية ولاذوا بالفرار التماساً للنجاة من قوات الألمان التي تتعقبهم، ورأى سي

محمـــد أن المواطنين يتسلقون السيارة ويستولون على الملابس والبطاطـــين وأدوات الأكـــل والطـــبخ وغيرها، فقام هو الآخر بتـــسلق السيارة وأخذ منها معطفاً وبطانيتين من الصوف ونزل لـــيجد ابنه سالم يطلب منه الإسراع بالذهاب ويشير إلى ناحية الغـــرب، ولما نظر سي محمد إلى حيث أشار ابنه رأى بعض الإيطاليين المسلحين بالبنادق قادمين نحو مكان السيارة، فجرى مـــسرعاً يقطع الطريق في اتجاه العلوة بحمله من الغنيمة حتى توارى وراء النخيل وأشجار (الهندي) ولحق به ابنه سالم الذي كـــان ينظـــر إلى المواطنين الذين هربوا متجهين شمالاً وشرقاً وهم يحملون الغنائم من مخلفات الإنجليز ..

وفـــي (الحـــلاّق) الذي اتخذه مسكناً لعائلته إلى جوار المواطنين من أهل المدينة الذين هربوا من جحيم الحرب، جلس سي محمد وسط (البراكه) تحيط به العائلة، وأخذوا يتفحصون المعطـــف والبطانيتـــين على ضوء (الفتيلة) التقليدية المعبأة بالكيروسين، كانت البطانيتان جديدتين من الصوف، لونهما بني وبكل واحدة منهما أربعة خطوط بيضاء، أما المعطف فكان من الـــصوف الـــناعم رغم خشونة مظهره، لونه أصفر داكن وبه شـــريط مـــن القمـــاش مثبتة فيه ثلاثة (دبابير) فوق كل من

الكتفـــين، كمـــا تـــوجد بـــه سطيحتان من النحاس بهما عبارة (اســـترليان كومونـــويلت)، ولم يعرف سي محمد معنى هذه العبارة رغم أن له إلمامًا باللغة الإيطالية، وتأمل أزرار المعطف النحاســية اللامعـــة وهو يهز رأسه إعجاباً، وأدرك أن صاحب المعطف يحمل رتبة (نقيب) ..

ونـــام كـــل من سالم وأخته فاطمة وهما يشعران بالدفء الذي غمرهما تحت البطانيتين الجديدتين، كانت أمهما تجلس في فراشها وهي تغالب النعاس، وكان الوالد مشغولاً بتأمل المعطف ويفكـــر فـــي كيفـــية نزع الشارات والدبابير والأزرار من ذلك المعطـــف لتغيير سيمته بصباغته بلون بني ليكون معطفاً مدنياً كما يفعل المواطنون في تلك الأيام، لطالما تمنى الحصول على معطف من هذا النوع الذي أصبح الآن بين يديه يقيه برد الشتاء فـــي ذهابه وإيابه من الدكان الذي ورثه عن أبيه واستمر يديره ويرتـــزق مـــن دخله من المواد الغذائية والتبغ والملح المصرح ببـــيعهما مـــن (دائرة احتكار التبغ والملح)، وظل سي محمد ساهراً تختلط في ذهنه الأفكار وتساءل بينه وبين نفسه : يا ترى أيـــن هـــو الآن ذلك النقيب الذي ترك معطفه وهرب خوفاً من العـــدو الـــذي يطـــارده؟ من أي مكان في هذا العالم جاء ذلك

الـــضابط مــــع أمثاله ممن أتت بهم الحرب؟ هل كانوا يحلمون بــــرؤية البلدان التي لم يعرفوها؟ ربما عرفوا هذه البلدان على خــــريطة العالم عندما كانوا على مقاعد الدراسة؟ على كل حال هــــا هم جاءوا إلى بلادنا وخرجوا منها مدحورين ومن يعرف مــــاذا يخبــــيء لهم المستقبل؟ وبدأ النعاس يجثم على سي محمد وسمع صوت زوجته التي ما زالت تتقلب في فراشها تقول :

- مَبْرَكْ عليك كبوط طير النوم من عينك كنك ما ترقد ..

وبدون أن يتكلم أطفأ الفتيلة ودلف إلى الفراش وفي رأسه أحلام كثيرة .

كــــان قد مرّ أسبوع على تلك الليلة التي أدخلت السرور إلــــى قلــــوب عائلة سي محمد بن سعيد عندما حضر إلى دكانه رجــــل إيطالي يبدو على وجهه التجهم ورمى بورقة مالية على الطاولة التي تعترض مدخل الدكان وقال بلهجة آمرة :

- اعطني علبة سجاير من نوع (ثلاثة نجوم) .

- آسف ليس لدي سوى سجاير (ماشيدونيا) .

- أنا لا أدخن هذا النوع الرخيص أعطني النوع الذي طلبته .

- قلت لك إن النوع الذي تريده غير موجود لديّ .

ـ لقد رحل الإنجليز، انتهى عهدهم، وسنصفي حساباتنا معكم أيها الماكر سترون ذلك .

ـ أنا ليس لي شأن بالإنجليز، لماذا تغير الموضوع ؟

ـ كنتم تعتقدون أن إيطاليا لن تعود أيها الملاعين .

ـ لا داعي للشتائم دعنا في حالنا أيها السنيور .

ـ قلت لك أعطني السجاير نوع ثلاثة نجوم أيها العربي القذر..

وهنا فارت الدماء في عروق سي محمد فمدّ يده من داخل الدكان وصفع ذلك الإيطالي المتغطرس على وجهه حتى سقطت نظاراته على الأرض فالتقطها ومضى مهرولاً وهو يتحسس صدغه الذي احمرّ من الصفعة ويتوعد بالانتقام ..

ولم تمضِ دقائق معدودة حتى عاد ذلك الإيطالي اللعين بصحبة اثنين من شرطة (الكارابينيري) أحدهما إيطالي والآخر ليبي وبمجرد وصولهم إلى الدكان أشار الإيطالي إلى سي محمد قائلاً :

ـ هذا هو الوغد الذي اعتدى عليّ .

وأشار الشرطي الإيطالي بيده إلى سي محمد وهو يتوعده وقال بلهجة آمرة :

- اخرج أيها الملعون .

وما كاد سي محمد يخرج حتى وضع الشرطي القيد في يديه واقتيد مكبلاً إلى مركز الشرطة القريب من السوق ..

بعد ثلاثة أيام علمت عائلة سي محمد أنه قد حكم عليه بالسجن مدة ثمانية عشر شهراً وأن جميع السجناء الموجودين في (حبس الكويفية) سينقلون إلى طرابلس لإيداعهم بالسجن المركزي حيث يقضون مدد العقوبات هناك، وحتى لا يكون في مقدور الإنجليز إطلاق سراحهم كما تصوروا فيما لو عاد الإنجليز إلى احتلال المدينة مرة أخرى .

***

انقضت الشهور وانتهت مدة الحكم وعاد سي محمد من طرابلس بعد الإفراج عنه، عاد وكان قد تغيرت سحنته وبدا عليه الهزال، لقد غادرته الحيوية التي كان يتمتع بها وأصبح أكثر عصبية مما كان عليه قبل ذلك الحكم الجائر، كان قد تعرض للسخرة وقاسى من العمل المرهق اليومي بالمزرعة

التابعة للسجن، كما تعرض للجوع بسبب قلة الطعام ورداءته وداهمه البرد الشديد وهو ينام على الأرض ويلتحف بطانية مليئة بالثقوب في تلك الحجرة التي لا تعرف الشمس إليها طريقاً والتي يشاركه فيها بعض السجناء من أبناء بنغازي المرحلين من حبس الكويفية، وبقي مدة في استراحة بين أهله وشعر بتحسن طفيف في صحته وحاول أن يعاود نشاطه بأن يساعد ابنه الذي يدير الدكان وحده منذ غيابه عنه، إلا أنه لم يتمكن من مزاولة النشاط كعادته فقد ظلت تعاوده نوبات السعال ولم يعد في إمكانه الوقوف على رجليه بسبب الوهن الذي أصابه...

وفي المستشفى المدني الذي أدخل إليه سي محمد كان العنبر الكبير الذي شيد في الساحة الكبيرة خارج المباني القديمة لاستيعاب المرضى إلى جانب الجرحى القادمين من الميدان، لم تكن هناك عناية بالمرضى والجرحى إلى جانب قلة عدد الأطباء وعدم وجود الأدوية وغياب لوازم التخدير وأربطة الكسور والحروق، وكان التذمر بادياً على وجوه الأطباء والممرضات من الراهبات، كان كل طاقم المستشفى من الإيطاليين إلى جانب بعض المواطنين الذين امتهنوا حرفة التمريض، وكان الجميع يشكون من التعب بسبب كثرة المرضى والجرحى ونقص

الأسـرة مما يجعل بعض المرضى ينامون على أرضية العنبر الـذي اقتلع زجاج نوافذه من إثر الهزات التي تحدثها الغارات الجـوية . كـان لا يسمع سوى أنين النزلاء التعساء يتردد في جوانب ذلك العنبر الفسيح، وفي ذلك الجو المشحون بالتوتر كان سـي محمد يسعل ويئن ولا يجد الدواء الذي يريحه، وحين ألح فـي طلـب الدواء قالت له الراهبة العجوز التي عاصرت هذا المستشفى منذ إنشائه قبل سنوات :

– صـلي حتـى يـشفيك الله، كلنا نصلي من أجل المرضى والمساكين ...

– أعرف معنى الصلاة جيداً لكن أريد دواء، نعم دواء فقط..

– ليس لدينا أدوية الآن، كل الأدوية نقلت إلى مستشفى الميدان، ألا ترى أننا في حالة حرب، الميدان ابتلع كل شيء ..

– إذن سـأخلي لكم هذا السرير ليشغله أحد هؤلاء المرضى المعذبين ..

– وماذا ستفعل في البيت ؟

– سأصـلي كما قلتِ لي وأنتظر نهاية الحرب لأحصل على الدواء ..

- وأنا أيضاً سأصلي من أجلك يا بني ..

وعاد سي محمد إلى مسكنه على عربة (كارو) يجرها حصان أحمر هزيل استأجرها ابنه من محطة الفندق البلدي؛ إذ لم تكن هناك سيارات إسعاف بذلك المستشفى الوحيد، وفي ذلك (الحلاّق) الذي يحيط به النخيل يجلس سي محمد على سريره ويظل يتطلع من نافذة (البرّاكة) إلى العراجين التي تنوء بحملها من البلح الأصفر والتي تحط عليها الطيور ويستمع إلى أغاني (العلم) التي تصدر عن السقائين وهم يقومون بسقاية الخضروات كل صباح، ويتذكر أيام الصبا ويتحسر عليها عندما تعود به الذاكرة إلى ما كان يتمتع به من صحة أيام الشباب، وتمر بخاطره أغنية (علم) طالما سمع الناس يتغنون بها كلما داهمتهم مصائب الدنيا وضاق بهم الحال « عليكن إن ضاق الحال، اطرن عزيز ياتيكن فرج »، ويسرح مع الخيال حتى تفاجئه نوبات السعال التي تفسد عليه اللحظات التي عاشها مع الذكريات، فيرتفع صوته منادياً :

- يا حليمة، يا حليمة ...

وتحضر زوجته مسرعة وتقدم له فنجان الحلبة الممزوجة بزيت الزيتون :

- خد كاشيك من هالحلبة اتهون عليك هالداء ..

- مليت من الحلبة المرة ما دارت لي شي، يقول ذلك ..

ثــم ينزل على طلب زوجته التي يرى الحنان في عينيها ويأخذ ملعقة كبيرة من الحلبة ويضع رأسه على الوسادة يحاول النوم ولكن بدون فائدة، وهكذا يظل أسيراً لمرضه المزمن ينام قليلاً ويصحو كلما عاودته نوبة سعال يشعر بها تمزق أحشاءه، وكــان كلما استيقظ مد بصره إلى الناحية المقابلة لسريره حيث يوجد المعطف المعلق في مسمار دقه هو بعد عودته من السجن ويــتأمل الأزرار النحاسية التي غلفها الصدأ ويتحسر على عدم قدرتــه علــى تغيير تلك الأزرار وصباغة المعطف ليبدو كأنه معطف مدني، هكذا كان نظره معلقاً بمعطف النقيب ..

وفــي إحدى أمسيات الخريف كانت زوجته تساعده على تــناول (الشربة) التي أعدتها له واسترعى اهتمامها أنه كان يأكــل بيــنهم تلــك الأمسية وهو ينظر إليها بارتياح كأنه طفل يحتــضن أمه بعينيه، وشعرت بعطف عليه وهو يبتسم لها بين لحظــة وأخــرى، كان يبتسم لأول مرة منذ أن أصبح طريحاً للفــراش، وانتهى من الأكل وطلب جرعة ماء دلقها في جوفه وقــال: الحمــد لله، ثم استند على جناح السرير وأخذ يحدق في

المعطــف وفجــأة داهمته نوبة قوية من السعال الحاد اهتزّ لها جسمه الواهن وكاد يسقط من السرير لولا أن أمسكت به زوجته التــي هــوى على صدرها، وعندما رفعت رأسه صدرت عنه حشرجة وانقطعت أنفاسه فأدركت أنه أسلم الروح، وأمسكت به برفق فمددته على السرير وغطته بالبطانية وأرادت أن تصرخ لكن الصوت احتبس في حلقها، إذ كانت العبرات قد أخذت تهز جسمها النحيل .

❋❋❋

التحولات

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت جولاتها في بلادنا منذ فترة قصيرة، وكان قد تمّ ترحيل عساكر المستعمرات الذين جاءوا من كل قارة من قارات العالم، وكانوا خليطاً من الأعراق والأجناس المختلفة وقد وحدت بينهم عمليات السرقة حيث كانوا ينهبون مستودعات الإنجليز و يبيعون التبغ والسكر والشاي وكل ما تصل إليه أيديهم في السوق السوداء، ثم يسكرون ويعربدون ويشتبكون مع المواطنين في عراك كلما اختلفوا في عقد صفقة معهم، وبرحيل هؤلاء العساكر تنفست المدينة الصعداء وبدأت جموع المواطنين تعود إليها بعد هجرة فرضت عليها مدة هذه الحرب التي شوهت المدن في بلادنا وجعلت من صحرائنا مقابر لعتادها الذي استهلكته المعارك الطاحنة، كانت بعض العائلات قد وجدت بيوتها سالمة رغم ما أصابها من تصدع، وكانت أسعد حالاً من عائلات أخرى وجدت بيوتها انقاضاً وأصبحت في حاجة إلى المأوى، ولم تجد بداً من البحث عن مساكن تستأجرها، ومن بين هذه العائلات الأخيرة

عائلـــة (ســـي عبدالـــسميع) التي فقدت عائلها زمن الحرب واضطر ابنها الأكبر إلى العمل في معسكرات الإنجليز لإعالتها وتوفيـــر أسباب المعيشة لها طيلة سنوات الهجرة، ثم الالتحاق بالميـــناء البحـــري بعد العودة، حيث أُتيحت له فرصة عمل في ورشة الصيانة، وبعد بحث في الحي القديم الذي كانوا يسكنونه قبل الحرب وجدت (أم حامد) بيتاً صغيراً تملكه عجوز تدعى (غـــزالة)، كـــان هـــذا البـــيت ضيقاً ليس به سوى حجرتين صـــغيرتين ومطـــبخ ومرحاض لا يكاد يتسع لمن يدخل إليه، وتـــمَّ الاتفـــاق على الإيجار الشهري، وكان قدره ستين قرشاً، وفـــي ذلك البيت الصغير شعرت عائلة (عبدالسميع) بالراحة والدفء بين أربعة جدران بعد المعاناة في سكنى أكواخ الخشب والصفيح خلال سنوات الحرب الصعبة.

ومـــا كاد ينتهي الشهر الأول حتى سمعت (أم حامد) طرقات على باب البيت، كان الوقت مازال مبكراً وعندما فتحت الـــباب وجدت أمامها العمة (غزالة) تلك العجوز ذات الوجه المتجعد الذي يعلوه شعر كثيف مصبوغ بالحناء التي يبدو لونها أحمـــر لامعاً تتدلى خصلاته على (جردها) الأبيض الناصع، ونظـــرت (أم حامد) إلى تلك العجوز في استغراب ثم دعتها

إلـــى الدخــول، غير أن العجوز رفضت الدخول بحجة أنها في عجلة من أمرها وقالت :

- ما جابني إلا زيادة الكرى الرخيص ..

- ما هو كنت راضية بيه في الأول ؟

- لا يا خيه ما عاد نرضى إلا بسبعين قرش ..

- هذا موش حق اتزيدي علينا الكرى من أول شهر ..

- هذا هو الحاضر، كان عجبكم وإلا دوروا حوش آخر ..

قالـــت العمـــة غزالة هذه العبارة وذهبت دون أن تعير كلام أم حامد أي اهتمام، وعندما حضر حامد من العمل أخبرته والدتـــه بما حصل بينها وبين صاحبة البيت التي تطالب بزيادة الإيجـــار، وبعـــد تفكير عميق وافق حامد على الزيادة المطلوبة وهـــي عـــشرة قـــروش تفادياً لمشاكل البحث عن مسكن آخر، وهكذا ظفرت غزالة بمبتغاها، وظنت أم حامد أنها ارتاحت من هذه المشكلة، غير أنه لم يمر الشهر الثاني حتى فوجئت أم حامد بالعمة غزالة تطرق باب البيت للمرة الثانية، وتكرر مرة أخرى طلـــب زيـــادة الإيجـــار بحجة أن جميع المؤجرين رفعوا قيمة الإيجـــار وأنها تطلب ثمانين قرشاً فقط، واستاءت أم حامد من

تلك العجوز الجشعة واشتبكت معها في مشادة كلامية :

- عيب عليك يا خالتي غزالة ليش هالعمل ما عندكش حق.

- وين تعرفوا العيب يا اكلاب تبو تاكلو حق الناس.

- ما نحسابكش خائبة هكي، يا بتي.

- كني خائبة سيّبو حوشي.

- طيح اسعدك وسعد حوشك يا جالطة.

- طيح سعدك أنت يا قردة.

وبهذه العبارة أنهت العمة غزالة المشادة وذهبت تجر رجليها وسط البيوت التي أطلت من وراء أبوابها بعض النساء، وفي تلك اللحظة برزت عجوز عمياء من البيت المقابل، كانت على ما يبدو تسترق السمع من خلف الباب إلى ما دار بين المرأتين وقالت بصوت أجش :

- عادت ريمه لعادتها القديمة، هذي غزالة يا طالباتها،

ورغم أن أم حامد عرفت ما تقصده العجوز العمياء إلا أنها لم تُعِر كلامها اهتماماً وأغلقت الباب بقوة حتى تناثرت من جنبيه شظايا من الجير الأبيض بفعل الاهتزاز الذي ارتعدت

لصوته فرائص العجوز العمياء فأسرعت بإقفال باب بيتها وهي تتمتم بعبارات لم تكن واضحة للسامع.

وما كاد حامد يعود من العمل ويجلس على (الحصير) وهو يمد رجليه في إعياء محاولاً التقاط أنفاسه حيث عمل وقتاً إضافياً ذلك اليوم، حتى بادرت والدته بإخباره بكل ما دار بينها وبين صاحبة البيت، فتملكه الغضب وأخرج من جيبه علبة (الغريان)، وجذب منها لفافة أشعلها وأخذ ينفت دخانها وحانت منه التفاتة إلى جدران البيت القديمة التي أحدثت بها مياه الأمطار سيولاً حمراء بلون الطين المطروح على السقوف، وظل يتأمل هذه الخطوط التي تنحدر من أعلى الجدران حتى أرضية البيت المتشقق بلاطها كان كأنه يراها لأول مرة وأخذ يفكر فيما إذا كان هذا البيت الضيق بجدرانه المتصدعة يستحق زيادة في الإيجار، وهل يرضخ لطلب تلك العجوز المزعجة؟ ومن يضمن له أنها لن تعود في الشهر التالي لطلب زيادة أخرى؟ في هذه الحالة لن يجدوا راحة معها وهي تكرر عملية الابتزاز، واستغرق في التفكير حتى جاءت والدته تذكره بموعد العشاء وتحضر له صحناً لم يكد يرفع غطاءه حتى رآه مليئاً (بالطرشي) المعد من القرعة الحمراء ولم يرَ بداً من الأكل

من الطعام الذي أصبح غذاءً شبه دائم تلجأ إليه والدته في الأيام الأخيـرة مــن كل شهر رغم كراهية أخته عائشة وأخيه فرج الــصغير لذلك الطعام، وشرب كوب الشاي ودخل حجرة النوم واســتلقى علــى الــسرير الحديدي القديم الذي أحدث صريراً مزعجاً، وظل يدخن لفافة إثر أخرى حتى داهمه النعاس فأطفأ مصباح (القاز) وأغمض عينيه وراح في نوم عميق .

في اليوم التالي قال لوالدته وهو يشرب قهوة الصباح :

- دوري لنا حوش آخر معاش نبي نقعد في حوش غزالة!

ومــرّت أيــام قليلة وعثرت أم حامد على حجرة للإيجار لدى عجوز تدعى الحاجة (حليمة) ووُصِفت لأم حامد بأنها امرأة طيــبة وقنوعة وأنها حسنة المعاملة مع جميع الجيران، وما إن سمعت أم حامد شهادات الجارات في هذه العجوز حتى أسرعت إليها واتفقت معها على استئجار الحجرة بمبلغ خمسين قرشاً في الــشهر، وهكــذا انــتقلت عائلة (سي عبدالسميع) إلى محطة أخرى حطت فيها رحالها .

ورحــبت الحاجة حليمة بأم حامد وأبنائها الذين أعجبتهم الحجــرة الكبيــرة التي تحوي في أحد أركانها (سدة) خشبية قديمة مزخرفة بألوان فاقعة وغير متجانسة وتحتها خزانة مليئة

بالعناكب، وكانت هذه الخزانة تستعمل لتخزين الشحم والقديد في مواســـم الشتاء إلى جانب استعمالها كحمام أو مطهرة كما كانوا يسمون الحمام، كانت الحاجة حليمة امرأة بدينة وضعيفة النظر، وظلت الشهور تمر وتوثقت العلاقة الطيبة بين أم حامد والحاجة حليمة التي اطمأنوا إلى جوارها حتى أصبحت كأنها قريبة لهم لفرط حنانها وحدبها عليهم، شيء واحد ظل يعكر صفو الجيرة، ذلـــك الشيء هو عادة الحاجة حليمة التي كانت دائمة الجلوس أمام حجرتها المقابلة لهم والسؤال عمن خرج وأين ذاهب وعمن دخـــل وماذا أحضر معه، كما أنها كانت لا تغفل عن عد الأيام بالـــساعات لمعرفة متى ينتهي الشهر ومتى يحين موعد صرف أجـــور العمال، وكانت هذه العادة التي لا تطاق تزعج أم حامد التـــي أصبحت تستاء من تصرفات الحاجة، ولم يلبث حامد أن تبرم هو الآخر من أسئلة الحاجة المتكررة التي تمطره بها كلما رأته داخلاً أو خارجاً، واتفق مع والدته على البحث عن مسكن آخـــر دون إعـــلام الحاجة برغبتهم في ترك بيتها حتى لا يثير اهـــتمامها ويـــدفعها إلى التساؤلات، وخلال البحث عن مسكن التقى حامد بجارهم القديم المعروف باسم مفتاح (البقال) الذي علم منه رغبته في البحث عن مسكن للإيجار فأرشده إلى إحدى قـــريباته التـــي تملـــك بيتاً للإيجار، وقامت أم حامد بالاتصال

بـــصاحبة البـــيت التـــي كانت تدعى حواء، وهي امرأة طويلة بيضاء البشرة ذات ملامح دقيقة، وكان يبدو عليها الإعياء وهي تحـــدث أم حامد بأنها امرأة مطلقة ولها ابنتان صغيرتان وأنها اقـــتطعت جـــزءاً من البيت الذي ورثته عن والدها وخصصته للإيجـــار لمواجهة متطلبات المعيشة، كان البيت صغيراً وكانت جدرانـــه بيـــضاء نظيفة وأما الحجرة فهي مستطيلة من النوع المعروف في البيوت القديمة منذ أجيال بعيدة، وكان إلى جانب هذه الحجرة يوجد مطبخ ومرحاض صغير به رف وُضِع عليه (جردل) مما يدل على استعماله كحمام للاغتسال، وتمّ الاتفاق علـــى تأجيـــر هذا البيت بإيجار قدره مائة وخمسون قرشاً في الشهر كانت الإيجارات قد بدأت ترتفع بالمدينة في تلك الفترة .

ودون أن يبلغا الحاجة حليمة برغبتهما في الانتقال إلى بـــيت آخـــر، أخذا في جمع الأمتعة استعداداً للرحيل، ولم تلبث الحاجـــة حليمة أن شعرت بما يجري دون علمها فأخذت تبكي وتتـــساءل عـــن السبب الذي دعاهما لترك بيتها، ولم تجبها أم حامد سوى بعبارة مقتضبة :

- ماء وملح وفرغ يا حنا، الله يسامحك.

وقالت حليمة وهي تجفف دموعها بقطعة منشفة قديمة :

- هذا بختك يا حليمة، بختك اشوي .

وهكـــذا حطـــت عائلـــة (سي عبدالسميع) رحالها في المحطـــة الثالثة وقد استقبلتها السيدة حواء بإعداد وجبة الغداء، كانـــت تلـــك الوجبة مكونة من الكسكسي واللحم الذي ظهرت رائحـــته مع البخار المتصاعد من (القصعة) بعد رفع الغطاء عـــنها، وتلـــى الغـــداء شرب الشاي الأخضر المعطر برائحة النعـــناع، وتـــبادل الأحاديث عن حسن الجوار وعن المعاشرة الطيـــبة بـــين الجيـــران التـــي تجعلهم يتبادلون الود فيما بينهم ويصبحون كأنهم عائلة واحدة ..

❋❋❋

وســـارت الحياة على خير ما يرام وازدادت روابط الود والألفة بين أم حامد وحواء حتى أصبحت علاقتهما تثير إعجاب الجيران الذين تعودوا على مراقبة حركات بعضهم .

كـــان يـــوم عيد الأضحى المبارك من أجمل أيام الحياة، حيث تمكن حامد من شراء كبش لأول مرة بعد وفاة والده الذي كـــان لا يغفل عن شراء الأضحية كل سنة، وتـــمّ ذبح الكبش السمين في جو من الفرح والابتهاج، وتصاعدت رائحة الشواء

تمـــلأ جـــو البيت، وأكلت عائلة سي عبدالسميع وجبة لم تـــرَ مثيلاً لها منذ زمن بعيد .

كان الوقت ظهراً عندما فوجئت أم حامد بجارتها حواء تـــدخل عليها وهي في حالة غضب شديد ودون أن تتفوه بكلمة تقـــدمت حـــواء مسرعة إلى حيث كان يقف حامد وبيده مطرقة صـــغيرة وقامـــت بنزع المسامير التي ثبتت جلد الضحية على الجدار ورمت بالجلد على الأرض وهي تقول :

- هذا خراب في الحوش، هذه اللي قدرتو عليها ..

كان حامد قد قام بتثبيت جلد الضحية على الجدار الفاصل بـــين البيتـــين بعد غسله وتمليحه ليجعل منه (نطعاً) يجلسون علـــيه كعـــادة الـــناس الذين يعدون الجلود بعد غسلها وتمشيط صـــوفها لطرحها في البيوت، ولم تطق حواء صوت المطرقة التي تدق جدار البيت فأقبلت على جيرانها في حالة غضب غير مـــتوقعة، لقـــد انـــزعجت من الخراب الذي حل ببيتها على يد الجيران فجاءت لتؤنبهم وخرجت مسرعة دون أن تلتفت إلى أم حامـــد التـــي وقفت مشدوهة، وتبادل حامد النظرات مع والدته وهما في حالة استغراب من فعلة حواء التي كانت أول من دخل

علـــيهما في صباح ذلك اليوم وهي تحمل طبقاً مليئاً (بالكعك والحلوى وتهنئهما بالعيد ..

❋❋❋

وفـــي صـــباح الـــيوم التالي من أيام العيد كان الجيران لايـــزالون يتبادلون التهاني ويزور بعضهم بعضاً، عندما خرج حامد يطوف بين الشوارع والأزقة بحثاً عن سكن آخر، ورغم ما تكبده من عناء صباح ذلك اليوم الذي ينعم فيه الناس بالراحة ويـــستمتعون بفرحة العيد فإنه لم يعثر على مسكن للإيجار في الأحـــياء الـــشعبية، لـــم يجد بيتاً واحداً كتبت على بابه عبارة (منزل للإيجار)، كما كانت العادة المتبعة عندما كانت البيوت متوفـــرة، ولم يجد حتى حجرة في بيت من البيوت التي تشترك عدة عائلات في سكناها قبل تلك الحرب التي خلفت أزمة سكن بـــسبب الـــدمار الـــذي لحق بالمدينة من جراء الغارات الجوية العنـــيفة، كانـــت جميع البيوت مزدحمة بالمواطنين الذين فقدوا بـــيوتهم وقد وجدوا الراحة لدى بعض العائلات التي وفرت لهم المـــأوى فـــي بيوتها بتأجير بعض الحجرات لهم حتى يمكنهم الاستقرار بعد المعاناة التي فرضتها عليهم ظروف قاسية ..

كان (سي مفتاح البقال) أشد الجيران انزعاجاً مما حدث لعائلة (سي عبدالسميع) فهو الذي كان سبباً في تعريفهم بقريبته حـــواء، ولهذا قرر بينه وبين نفسه أن يساعد حامداً في العثور علـــى مسكن للإيجار وفعلاً بدأ يطرق الأبواب بعصاته ويسأل فـــي كـــل مكـــان ويستفسر ممن يعرفهم ولم يترك حتى الحي الغربـــي الذي يعد من الأحياء الجديدة ولم يوفق في مسعاه، إذ كانت بيوت ذلك الحي التي تركتها العائلات الإيطالية المهاجرة شـــاغرة غيـــر أنها مرتفعة الإيجار، بسبب جشع ملاكها الذين حـــددوا الإيجارات كما يريدون دون حسيب أو رقيب، وأن-ى للفقـــراء مـــن أمـــثال حامد أن تكون لهم القدرة على مثل هذه الإيجـــارات الـــباهظة، وهكـــذا عاد سي مفتاح وهو يجر أذيال الخيـــبة، ومـــا كاد يرى حامداً عائداً من عمله عشية ذلك اليوم حتى ناداه ليخبره بنتيجه البحث :

- يا حامد دورت على مسكن لكن ما القيتش !

- ما القيت حتى حوش صغير والا دار وحده ؟

- في الشوارع الغربيه فيه حيشان فاضية لكن إيجارها غالي.

- لا والله أنا ما نقدر على الكرا الغالي .

- عندك حق يا أوليدي إيفرج الله ..

- هو صاحب الفرج، كثر خيرك يا سي مفتاح ..

قـــال ذلك حامد ومضى في طريقه بينما ظل سي مفتاح واقفـــاً ينظر إليه في قلق، ويكيل الشتائم لحواء، وما كاد حامد يقتـــرب من بيت حواء حتى سمع أصوات نسائية كثيرة يختلط بعـــضها ببعض وتحدث ضجيجاً يملأ جو البيت، وكان صوت حواء يعلو فوق ذلك الضجيج وهي تصيح :

- حولو من حوشي، حولو خطوني .

كان البيت مفتوحاً على مصراعيه وكانت الجارات اللائـي حـــضرن لفـــض النزاع بين أم حامد وحواء يملأن البيت وهن يحاولن تهدئة ثائرة حواء دون جدوى .

- ليش هالعمل في الجيران ؟

- والله أم حامد ما رينا منها سوء .

- انعلي الشيطان وريحي جيرانك .

- خودي بخاطر جاراتك يا حنا .

وذهـــبت كـــل هذه التوسلات أدراج الرياح، كانت حواء متعنتة وكانت في حالة هياج وهي تردد دون انقطاع .

– حولو من حوشي مش بالسيف الكرا .

وفـــي تلـــك اللحظات تذكرت أم حامد ما قالته لها إحدى الجارات في الأيام الأولى لسكناها مع حواء :

– ردي بالك من حواء راهي جالطة، صاحبة طهقة .

وعندما التفتت وراءها رأت تلك الجارة التي حذرتها من سوء معاملة حواء للجيران ولم تصدق كلامها في غمرة الفرحة بتـــرحيب حـــواء بها في الأيام الأولى لجيرتها، كان سبب تلك الضجة الكبرى التي أحدثتها حواء كما علم حامد من والدته أن حـــواء وجـــدت بعـــض الأطفال يلعبون داخل البيت مع أخته الـــصغيرة وهـــم ينفخون المزامير ويفجرون البالونات الملونة، فـــثارت ثائرتها وقامت بطرد الأطفال وأطلقت لصوتها العنان وظلت تردد عبارات السخط والاستهجان حتى أسمعت الجارات اللائي حضرن مسرعات لتهدئتها دون جدوى .

❋❋❋

وخـــرج حامـــد من البيت وقد استولى عليه القلق وشعر برأســـه يكاد ينفجر من الغضب ويزيد في توتر أعصابه، وأخذ طـــريقه فـــي الـــشارع دون وجهة محددة وظل يشعر في تلك

اللحظـــة بأن العالم على سعته قد ضاق به وأطبق على خناقه، ودون أن يدري انعطف شمالاً ودخل الشارع الضيق الذي كان يوجد به بيت أهله الذي ولد وترعرع فيه، والذي أحالته الغارات الجـــوية الإنجليـــزية إلى أنقاض، ثم وجد نفسه يقف بين ركام الحجارة والطين، هذا الخراب الذي كان بيتاً ضم أهله عشرات السنين، وأخذ يلتفت يميناً وشمالاً وينظر إلى بقية الجدران التي لازالت واقفة ولازالت تحتفظ بلون الطلاء الأصفر الذي طُليت بـــه حجـــرات البيت قبل الحرب بزمن بعيد، ورأى في إحدى الـــزوايا المـــنهارة المسمار الحديدي الذي كانت والدته تعلق به مـــصباح الـــضوء التقلـــيدي (الفتـــيلة) والـــذي كانت تملأه (بالكيروســـين) كل عشية وتمسح زجاجته لإزالة ما علق بها مـــن دخـــان فـــي الليلة الماضية، وشدّ انتباهه الشباك الحديدي المكوّن من مربعات متساوية والذي كان مثبتاً بالإطار الخشب-ي المحـــيط بنافذة الحجرة الصغيرة التي كانت تجلس فيها جدته العجـــوز وهي تقضي يومها وليلها ممسكة بالمسبحة تعد حباتها وتتمـــتم بالأوراد التي حفظتها عن والدها، وخيل إليه أن رائحة (البخور) لاتزال تعبق بين ركام البيت المنهار.

جلـــس حامد على كومة أحجار مستغرقاً في تفكير عميق

وبقـــي علـــى هذه الحالة لمدة طويلة حتى شعر كأنه غاب عن الوعـــي عندما سمع أصوات الأطفال ذوي الأرجل الحافية التي كـــساها غبار الشارع المترب وهم يتصايحون في تلك الأمسية ويقذفـــون بكـــرة (التنس) فيما بينهم، وعند ذلك قام من مكانه وأخـــذ طـــريقه نحـــو منطقة الصابري حيث يقيم خاله في حي الأكواخ القديم .

❋❋❋

المشوار الطويل

لم يهدأ بال شريف منذ أن أنفق آخر قرش من مدخراته التي جمعها من كده أيام الحرب ومخاطرها، لقد نفدت المدخرات وقلّت فرص العمل بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها وحلّت أيام السلم المرتقبة، كانت الأمور لم تستقر بعد، وفي تلك الحالة التي سببت له الانزعاج والتي ليس في مقدوره الإفلات منها ظل حائراً لا يعرف كيف يتصرف حيالها ولا يدري كيف ستكون نتائجها، ثمة أناس لهم أراضٍ يؤجرونها للحراثة، وثمة أناس لهم بيوت يؤجرونها لمن ليس لهم سكن، أما هو فلم يرث عن والده سوى هذا البيت الصغير المتداعي الذي يحشر فيه أولاده، إنه لا يدري لماذا عاش والده فقيراً ومات فقيراً، ربما لأن والده كان يعمل حصاداً (رباعًا) ممن لا يعملون إلا في موسم الحصاد وينامون بقية السنة بعد أن يدّخروا جزءاً من حصتهم في المحصول، وخلال استغراقه في التفكير استعرض شريف حياته البائسة وتراءت له أيام الحرب التي لم تكن فرص العمل متوفرة فيها

بـــصورة دائمة بسبب الكر والفر وتعاقب الجيوش المتحاربة علـــى المديـــنة، إلا أنه رغم ذلك عمل في عدة جهات وفي أعمـــال مخـــتلفة ولفترات محدودة ومتقطعة أتاحت له توفير لقمـــة العـــيش الـــذي كان نادراً وباهظ الثمن، فقد عمل مع الطليان في بناء المخابئ وعمل مع الألمان في إحدى القواعد الجوية وكان آخر عمل له مع الإنجليز حيث ألقت به المقادير في أحد المعسكرات ليعمل مع وحدة عسكرية متخصصة في تفجيـــر الألغـــام وكانت مهمتها عندما عمل معها هي تجميع القـــنابل التي تركها الطليان بعد انسحابهم النهائي، كان يقوم مـــع بقـــية العمال تحت إشراف الإنجليز بتجميع القنابل من مخازن الذخيرة ونقلها إلى مكانين محددين، الأول في منطقة (بوعطنـــي)، علـــى بعـــد ميل من محطة السكة الحديدية العاطلة منذ بداية الحرب، حيث يتم تفجير القنابل الصغيرة، أما الثاني فهو ميناء المدينة حيث يتم شحن القنابل الكبيرة في سيارة لوري تتجه بها إلى ذلك الميناء ثم تشحن في عبارة من ناقلات الجنود تعبر بها أمواج البحر بضعة أميال، حيث يتم إلقاؤهـــا فـــي المـــياه العمـــيقة، كانت مهمة شاقة ومحفوفة بالمخاطر يقوم بها العمال بين البر والبحر، ومع كل ذلك ظل شـــريف راضـــياً بعمله وحسبه توفير الخبز للعائلة، إلا أن

انـــتهاء العمـــل فـــي ذلك المشروع الحربي وانتقال الوحدة الإنجليـــزية إلـــى مكـــان آخـــر كان سبباً في تسريح العمال للاســـتغناء عن خدماتهم، لقد قطع مشواراً طويلاً منذ أن بدأ العمـــل ومـــرت به ظروف صعبة غلبه بعضها وتغلب على بعضها، وها هو الآن يواجه ظرفاً عصيباً ويفكر كيف يمكنه الاهـــتداء إلى حل ينقذ عائلته من شبح الجوع الذي بدأ يخيم علـــى البيت، وطال به التفكير وطافت بذهنه فكرة استبعدها أول مرة، فهي لا تعدو أن تكون حلاً مؤقتاً تنفرج به الأزمة لعدة أيام ثم تعود الحالة إلى ما كانت عليه إذا لم يحصل على عمـــل إضافة إلى أنها ستترك آثاراً سيئة في نفوس الزوجة والأولاد لأنها تحرمهم من أشياء لا يمكن الاستغناء عنها لأن التفـــريط فـــيها يتـــرك فراغاً في البيت، إلا أنه تحت ضغط الحاجـــة أذعـــن لهذه الفكرة واضطرّ إلى تنفيذها فقام بجمع بعـــض آثـــاث البـــيت وسط دهشة العائلة التي فاجأتها تلك المبادرة وأحضر عربة جاره فحمل عليها ما جمعه من الآثاث ومضى بها يدفعها في طريقه إلى (سوق التركة) الذي يقع عند المدخل الغربي لحي الصابري، كان ذلك السوق الشعبي مكوناً من مجموعة من الأكشاك الخشبية القديمة المبعثرة في ذلـــك الفـــضاء الـــذي يحيط به النخيل الباسق، وكانت تلك

الأكـــشاك تغص بمخلفات الحرب العالمية الثانية التي تشمل الأبـــواب والشبابيك المحطمة أضلاعها والمنزوعة من ركام المنـــشآت والبـــيوت والدكاكين المهدمة، إلى جانب فضلات الجـــنود المـــتعددي الأجناس من بدل صيفية وشتوية وأحذية مخـــتلفة الأحجام والألوان، وهناك في ساحة السوق عرض شريف ما جلبه من آثاث وعهد به إلى العم جبران ذلك الشيخ الذي اشتهر بالمناداة على ما يسمونه (روبافيكيا) التي تعني بالإيطالـــية الأشياء القديمة، قام ذلك الدلال بالمناداة وتداول سماســـرة السوق على الآثاث المعروض ولم ينل قبولهم فقد فحصوه وقيموه ولم يجدوا فيه ما يمكن أن يجلب لهم ربحاً، وكـــان مكـــوّناً من بعض (الحصران) والبطاطين القديمة وفراش من الصوف وبعض أدوات الطبخ المختلفة من بينها (قدر نحاسي) ما زالت عالقة به آثار (البازين)، وتطوع أحـــد الـــسماسرة أخيـــراً وقدّم عرضاً بمبلغ أربعة جنيهات مـــصرية العملة التي أحضرتها الإدارة العسكرية البريطانية لتداولها في شرق البلاد وهي عكس (الليرة) التي أصدرتها لـــتداولها فـــي غرب البلاد لغرض في نفسها، ووافق شريف على هذه الصفقة وقبل المبلغ المعروض عليه وأخذ يستعجل قبض ثمن ذلك الآثاث المكدس بساحة السوق والذي لا يرغب

في العودة به إلى البيت، إلا أن السمسار الذي عرض المبلغ المالـــي تراجع عن عملية الشراء بحجة أنه ليس لديه مكان لتخـــزين ذلـــك الآثاث، وكاد شريف الذي شعر بالغضب أن يـــشتبك مـــع السمـــسار الذي سبب له الإحباط إلا أن بعض الحاضـــرين حالـــوا بيـــنهما، وطاف العم جبران بأصحاب الأكـــشاك محاولاً إقناعهم بشراء ذلك الآثاث، فهو يعرف أن هناك فقراء يضطرون إلى بيع آثاثهم وهناك فقراء يضطرون إلـــى شـــرائه، إلا أن أصـــحاب الأكشاك لم يُبدوا رغبة في الشراء، منهم من قال هذا آثاث مستهلك لا يصلح للاستعمال، ومنهم من قال ساخراً دع صاحب الآثاث يطوف به في الفندق ربما يجد هناك (كيالاً أعور) ينال الأثاث إعجابه، ولما لم يجد العم جبران من يرغب في الشراء وباء مجهوده بالفشل عـــاد أدراجـــه ليجد شريفاً جالساً على العربة مهموماً، كان النهار قد انتصف ولم يحضر أحد للنظر في الأثاث حتى من باب الفضول .

❋❋❋

كـــان هـــناك رجل يطوف السوق يبدو كأنه يبحث عن شيء معين وقد لفت انتباهه ما تعرض له شريف من سخرية

أصـــحاب الأكشاك الذين استهانوا به، فقرر أن يشتري ذلك الأثـــاث لحاجة أضمرها في نفسه، فتقدَّم من شريف ليعرض علـــيه مبلغ ثلاثة جنيهات هي كل ما كان بحوزته لعله يقبلها ثمـــناً لذلك الأثاث المكوّم أمامه، وشعر شريف بالراحة رغم أنـــه كان يطمع في أكثر من ذلك، أخيراً قدر له أن يجد من ينقذه من ذلك المأزق وتهلل وجهه وهو يرد بالقبول على ذلك العرض المفاجئ من الرجل الذي لا يعرفه والذي تبدو على وجهـــه الأسمر آثار الطيبة عندما دفع إليه النقود التي يملكها ثمـــناً للأثاث الذي رفض شراؤه سماسرة السوق، وقال العم جبران الذي كان يراقب الموقف وقد سرّه ما فعله المشتري :

- بارك الله فيك يا سي العربي، عملت طيب .

وعند ذلك عرف شريف اسم الرجل الذي سارع إلى مساعدته دون معرفة سابقة وهمَّ أن يغادر ذلك المكان، كان يستعجل الذهاب إلى سوق احداش لشراء احتياجات البيت من المواد الغذائية، إلاَّ أن سي العربـي استبقاه حتى يساعده في نقـــل الآثاث إلى بيته القريب من السوق، وشحنا هما الاثنان الآثـــاث على العربة وغادرا تلك الساحة وهما يدفعان العربة

أمامهمـــا، ومـــا إن ابتعدا عن ذلك السوق الذي يشغل حيزاً كبيـــراً بين النخيل حتى قام سي العربي بإيقاف العربة وقال لشريف :

– اسمع يا بوي خود ادبيشاتك وروّح بها لهلك، أنا ما عنديش حاجة بيها .

وقال شريف الذي فوجئ بذلك الموقف غير المتوقع :

– اماله انرد لك فلوسك كنك ما تبيش الدبش ؟!

– لا اتـــرد لي الفلوس لا نقبلها منك انا امسامحك فيها، هي حلال عليك كيف حليب امك .

وقـــام شـــريف الـــذي أذهله الموقف حتى دمعت عيناه بمعانقة سي العربي وهو يقول :

– الله يقدرنا على رد اكفاك ..

***

المحطة

لــم يكــن سكان شارع سيدي الشريف يعلمون سر تلك الــضجة التـــي أحدثها المتسولون وهم يتصايحون ويبكون أمام المقبرة التي تضم رفات ذلك الولي، ثم ينطلقون في موكب يضم الــرجال والنساء والأطفال، بينهم المكفوف والأعرج وغيرهما مــن ذوي العاهات الأخرى، أخذوا جميعاً يشقون طريقهم نحو الجنوب في جو ذلك اليوم المشحون بالحرارة، الأمر الذي أثار اهــتمام سكان ذلك الشارع المشهور الذين استغربوا هذا الحدث غير المألوف لديهم، وكان وجه الغرابة في ذلك الموكب أنه لم يكن يتحرك في أول النهار، ولم يكن يحدث أمام أعينهم في هذه المرة وفي تلك القيلولة، لأن أولئك المتسولين لا يتحركون عادةً إلاَّ فـــي ساعات المساء الأولى للتوجه إلى المآتم لحضور مآدب الصدقات، وهكذا يبدو أن الأمر قد اختلف، مما استدعى خروج الأطفـــال مـــن البـــيوت وجعل النساء تطل من وراء الأبواب والـــنوافذ لمـــشاهدة مـــا يجري في الشارع، لقد أصيب السكان بالدهـــشة وهـــم يتابعون مسيرة ذلك الموكب الغريب الذي ملأ الجـــو ضـــجيجاً ولم يتبادر إلى أذهانهم أن السبب في انطلاقة هؤلاء المتسولين كان خبراً هزَّ أعماقهم ودفعهم إلى التحرك في

وقـــت لم يتعودوا عليه، فقد بلغهم نبأ وفاة شخص عزيز عليهم، أصـــابهم خبـــر وفاتـــه بـــصدمة قاسية أذهلتهم وهم ينتظرون حـــضوره فـــي ذلك الصباح كعادته، وسار ذلك الموكب حتى وصـــل إلى زقاق ضيق متفرع من شارع الزوبيك وتوقف أمام بيت صغير كانت تنبعث منه أصوات العويل .

***

انتهى مأتم جواد الذي لم يدم سوى يوم واحد، إذ لم يكن هناك من يتردد عليه فلا زحام ولا سهرية كما يحدث عادةً في المـــآتم الأخـــرى بالمدينة التي تشهد زحاماً يدوم ثلاثة أيام، فلم يحـــضر ذلـــك المـــأتم سوى أولئك المتسولون الذين عادوا إلى مواصلة تجمعهم أمام ساحة المقبرة، حيث يجلسون على امتداد جـــدارها المتداعي في انتظار هبات المحسنين وترقب حضور الزائرات لضريح سيدي لشريف في كل يوم جمعة، حيث يقدمن لهـــم الصدقات والنذور كان انتظارهم يتركز في صبيحة الوفاة علـــى ترقب حضور جواد ذلك الشاب الذي تعوّد على المجيء إلـــيهم وإعطائهم ما يتيسر من النقود التي يوفرها من مصروفه الأســـبوعي، كان جواد شاباً في مقتبل العمر وكغيره من أبناء

جــيله الـــذين تلقـــوا نصيباً من التعليم الابتدائي والذين شغفوا لممارسة الهوايات المختلفة كلعبة الكرة والملاكمة وغيرهما من أنواع الرياضة الأخرى التي بدأت تهتم بها المؤسسات الأهلية، اهــتمَّ جواد بهواية أخرى مختلفة عن هوايات أترابه، فقد عشق هواية جمع صور الممثلين والممثلات الذين أتاح له عمله بدار سينما الاستقلال فرصة الحصول على تلك الصور من ملصقات الإعلانـــات التي تحوي المناظر الملونة للأفلام السينمائية وهي كثيرة، كان ينتقي منها صور أجمل ممثلات السينما في هوليود ويـــزيّن بهـــا مربوعته التي بدت كأنها مكتب إعلانات، وكانت أقـــرب الممثلات إلى نفسه (آفا غاردنير) التي يطلقون عليها اسم (فينوس) إلهة الجمال، و(جين راسل) ذات الصدر الأكثر بـــروزاً بـــين الممـــثلات والتي سميت بـــ(الصدر الأعظم)، إضـــافة إلـــى (ايـــستير وليامـــز) التـــي ســـميت هي أيضاً بـــ(السابحة الفاتنة) بعد ظهورها بالمايوه في فيلم (السابحات الفاتـــنات) الـــذي أدت فيه حركات راقصة وسط المياه العميقة بقـــوامها الرشـــيق، وغيـــرهن من الممثلات الشقراوات اللائي أبهـــرن شـــباب العـــالم في كل مكان وصلت إليه أفلام هوليود المـــصورة بالألـــوان الطبيعـــية والـــسينما سكوب التي جعلت

المتفـــرجين يتـــزاحمون علـــى شبابيك التذاكر في دور السينما التابعة لها وفي غيرها من الدور الأخرى ..

❋❋❋

رغـــم اهتمام جواد بهواية جمع الصور التي شغلته عن أشياء كثيرة فقد كان الشيء الذي لم يغفل عنه ولم ينسه هو ذلك الموعد الأسبوعي الذي لم يتخلف عنه ولو مرة، فقد كان ملتزماً بـــه مـــنذ سنوات حيث تعوّد على زيارة المتسولين في المحطة التـــي توارثوا التواجد فيها أمام تلك المقبرة القديمة، لقد ربطته علاقـــة قوية بأولئك الناس منذ كان صغيراً وكانت والدته تكلّفه بـــنقل بعـــض الأطعمـــة إليهم، لقد ظل مواظباً على زيارتهم، وأحياناً يحضر لهم الخبز الطازج للإفطار، حتى أصبح محبوباً لـــديهم وظلوا يترقبون حضوره ويفرحون بإطلالته ويدعون له بكل ما يخطر على بالهم من الأدعية المأثورة، هكذا كان جواد يحضر إليهم وكان يتكرر ذلك اللقاء المرتقب في صباح كل يوم جمعـــة بلا انقطاع، حتى كانت الجمعة الأخيرة التي لم يحضر فيها، فقد ظلوا ينتظرونه بشوق كعادتهم ومرّت الساعات وارتفع قـــرص الشمس في وسط السماء ولم يظهر ما يدل على قدومه مـــن عطفـــة الشارع البحري الذي كان يطل منه وقد ارتسمت

على محياه تلك الابتسامة التي تطفح بالحب والمودة، لم يحضر جـواد الذي كانوا ينتظرونه في تلك اللحظات وإنما طلَّ عليهم صـــديقه سليم لا يحمل ما اعتادوا عليه من جواد بل كان يحمل لهـــم الخبـــر الذي هزَّ أعماقهم وأحدث ضجة بينهم، خبر وفاة جـــواد الذي جلسوا يترقبون حضوره منذ الصباح الباكر، وفي هـــذا اليوم بالذات يوم الجمعة، وارتفع عويل العجائز والشيوخ والأطفـــال، كانت هذه الفاجعة هي الحادثة المؤثرة التي أصابت قلوب أولئك المساكين، والتي أثارت فضول سكان شارع سيدي الشريف عندما استغربوا مرور ذلك الموكب الحزين .

***

بعد انقطاع عن الذهاب إلى دار السينما دام أكثر من شهر عقـــب وفاة جواد رأى صديقه سليم الذي كان متأثراً لفقدانه أن يـــذهب إلى تلك الدار ليرى ما حدث فيها خلال غيابه عنها بعد وفاة صديقه، وهكذا أخذ طريقه في ساعات المساء الأولى مثل عادته مخترقاً سوق الجريد وشارع بوغوله ومتجهاً نحو ميدان الفندق البلدي حيث توجد دار سينما الاستقلال التي اعتاد التردد علـــيها للقاء صديقه جواد الذي كان يعمل بها، وأمام تلك الدار وقف سليم يجيل النظر في جميع زوايا الصالة التي طالما دخل

إليها، ورغم أنه لم يطرأ عليها أي تغيير إلاَّ أنه شعر بأن جوّها بـــدا موحشاً وأنها لم تكن كما كانت حينما كان يتصدر مدخلها صديقه الوحيد جواد، أما في ذلك المساء فقد كان يتصدر مكان صـــديقه رجـــل غريب يقوم بالعمل الذي كان يؤديه جواد وهو اســـتقبال المتفــــرجين وتمزيق تذاكر الدخول كما جرت العادة، إضـــافة إلـــى إرشـــاد من يحضرون بعد بداية العرض وإطفاء الأنـــوار إلى المقاعد المحجوزة لهم، لقد اختلف الأمر عما كان علـــيه، وهـــذا سر ما شعر به من وحشة عند بداية وقفته يجيل النظـــر في تلك الصالة التي بدت له غريبة، وظل يتأمل صامتاً مـــا يجـــري أمام الدار التي احتشد على رصيفها باعة الزريعة والكاكاويـــة والحمـــص ينادون على مبيعاتهم كالعادة، بينما بدأ شباك التذاكر عمله المعتاد وأخذ المتفرجون يتوافدون عليه، فقد اقتـــرب مـــوعد عـــرض الفـــيلم الذي تتصدره صورة النجمة السينمائية الجميلة (أنيتا اكبيرج)، ولم يرَ فائدة في وقوفه وسط زحام الناس أمام ذلك المبنى الكبير المسمى (سينما الاستقلال) والذي شعر في تلك اللحظات أن صلته به قد انقطعت، ولم تعد هناك علاقة تشده إليه بعد رحيل جواد .

لقد أخذت آلام التأثر تزداد إيغالاً في نفسه وشعر بالحنين

إلـــى مقهـــى هلال الذي تميز بالهدوء دون سائر مقاهي الفندق الـــبلدي، ووجـــد نفـــسه يخطو نحو ذلك المقهى، ثم يجلس بين الأقـــواس علـــى نفس الطاولة التي كان يجلس إليها مع صديقه جـــواد وفي نفس المكان الذي اختاره بعيداً عن بقية الطاولات المتلاصـــقة، وطلب من النادل أن يحضر له زجاجة (بورتيلّو) ذلـــك المـــشروب اللذيذ الذي كان يتناوله مع صديقه الودود في الأيام التي جمعتهما معاً وأبت الآن إلاَّ أن تفرق بينهما، لقد كان يـــرتاح إلى هذا المقهى في السابق لكن في هذه المرة شعر بأنه غـــريب عنه، فها هو يجلس وحيداً مستغرقاً في التفكير الذي لا يقطعـــه إلاَّ مـــرور الحافلات التي تنطلق من محطة الفندق إلى جـــنوب المديـــنة والتي تملأ الجو ضجيجاً بين لحظة وأخرى ويعكـــر صـــفو من كان في مثل حالته يفكر في صمت، ويذكر ســـليم مـــا إذا كان هذا الضجيج قد سبق أن عكر صفو جلساته الماضية مع جواد أو ربما يكون موجوداً من قبل ولكن لم ينتبه إلـــيه بسبب استغراقه في الحديث والمزاح مع صديقه الذي كان يـــشده إلـــى حديثه الرائع عن الأفلام المثيرة والذي كان يستمر لـــساعات طـــويلة، وارتاح لأن ذلك الضجيج لم يكن متواصلاً وأخـــذ يفكـــر فـــي دفعه إلى المجيء إلى ذلك المقهى في تلك الأمـــسية ويجلـــس في المكان الذي طالما شاركه فيه صديقه،

وتذكـــر لقاءاتـــه مـــع جواد التي استمرت لسنوات عديدة فأخذ يستعرض مراحل حياته منذ عرفه صبياً حتى صار شاباً مثله، وقفـــزت إلـــى ذهنه علاقته بأولئك المتسولين الذين كان يشعر بمعانـــاتهم ويـــتوجع لهمومهم، ثم ظل يتواصل معهم ويقدم لهم العـــون بقدر ما كان في استطاعته منذ تعرف إليهم، وعند ذلك تـــنهد سليم بعمق وقد أحس بمقدار ما كان يعمر قلب جواد من حـــب لأولـــئك المساكين الذين تقطعت بهم سبل الحياة، وغمره شـــعور عمـــيق بأن عليه هو بالذات أن يواصل ما انقطع بوفاة صـــديقه وأن يقوم بنفس المهمة التي كان يؤديها جواد كل يوم جمعة دون كلل أو ملل، وهكذا قرر أن يواصل ما انقطع بوفاة صديقه جواد، وهو زيارة ساحة تلك المقبرة القديمة التي توارثها المتسولون جيلاً عن جيل واتخذوها محطة للانتظار الدائم، وظل يـــزداد عـــدد اللائذين بها مع مرور الزمن وشهدت توسعاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

❋❋❋

العــرس

لــم يكــن في مقدور أحد من جيران شارع الحشر أن يعرف ما إذا كان الحاج ارخيص جاداً في كلامه عندما أعلن عــن عزمه على إقامة فرح لابنه ناجي أم أن ما قاله لم يكن ســوى دعابــة مــن دعاباته المثيرة للضحك التي اشتهر بها وتعــودوا علــى سماعها منه، وآخرها هذه المرة التي لم تلقَ استجابة منهم رغم أنه أكّد لهم أنه سيقيم عرساً لم تشهد المدينة مثــيلاً لـــه، الأمر الذي أوقعهم في حيرة من أمرهم، إذ كيف يمكــن للحـــاج ارخيص أن يقيم فرحاً وهم يعلمون أن حالته المادية المتدنية لا تسمح له بالدخول في مشروع زواج يتطلب مــصاريف باهظة ليس في مقدوره توفيرها من دخله المحدود الــذي يتحــصل علــيه مــن بيع الخضروات (والمصير) و(اللـــبن)، في ذلك الدكان الصغير القابع في مدخل (قوس بَــيْلّه)، وفي الوقت الذي لم يكن هناك من يجرؤ على مجرد التفكيــر فـــي زواج ابنه وما أكثر الآباء الذين يتمنون زواج أولادهــم ولا يجدون إلى ذلك سبيلاً، فقد كانت إقامة الأفراح

مقتــصرة على حالتين، أولاهما حالة رجل تعود على الحراثة وصادف حرثه عام صابة فأثمر محصولاً وفيراً من (الغلّة) درَّ علــيه مــالاً كثيراً مكنه من تزويج من يشاء من أولاده، والثانــية حالة رجل تحصل على حصة في ميراث أرض من مخلفــات أجداده فباعها بمبلغ من المال وفّر له ما يلزم لإقامة فرح لابنه الذي بلغ سن الزواج، لقد كانت هاتان الوسيلتان هما مــصدر تمويل مشاريع الزواج المكلف، وكانت المدينة تعاني من كساد اقتصادي في ظل الإدارة العسكرية البريطانية بسبب عــدم توفر فرص العمل، حيث لا يحصل العامل على فرصة إلاَّ بشق الأنفس ولا يتقاضى إلاّ أجراً ضئيلاً توفره المشاريع المؤقــتة التــي لا تتعدى صيانة بعض العمارات التي تركتها العائلات الإيطالية عند رحيلها وتم تخصيصها لإقامة عائلات الضباط الإنجليز وأتباعهم من بلدان المستعمرات الذين يعملون في خدمات دوائرهم، هكذا كانت طبيعة العمل الذي حددت له الإدارة البريطانية أجوراً بواقع عشرة قروش في اليوم، الأمر الــذي دعا أحد أعضاء المجلس البلدي المعين إلى الاستفسار عــن السر في تحديدها بهذا الشكل المجحف، وردَّ عليه العميد الإنجليزي بإجابة صاغها في شكل سؤال ماكر : « أليس من الأفــضل تشغيل عشرين عاملاً بأجر قدره عشرة قروش بدلاً

مـــن تشغيل عشرة عمال بأجر قدره عشرون قرشاً؟ »، وذهل الـــسائل من غرابة الإجابة التي رد بها العميد الإنجليزي ولم يكـــن يـــتوقع أن تكون بهذا الشكل الممجوج الذي أكد له دهاء الإنجليز الذي كان يسمع عنه قبل رؤيته لهم وجهاً لوجه .

❊ ❊ ❊

في تلك الظروف القاسية كان من الطبيعي أن لا يتطلع أحـــد إلى أبعد من الحصول على القوت اليومي لعائلته، وكان أمـــراً معـــتاداً أن يلاحـــظ الجيـــران كل ما يطرأ على حياة بعـــضهم، ومـــن هؤلاء الحاج ارخيص الذي بدأ عليه تطور مفاجئ غيـــر نمط حياته منذ أن أصبحوا يرونه يشرف على الاســـتعدادات التي تجري لإقامة الفرح الذي سبق أن بشرهم به واعتبروه مجرد دعابة مسلية من دعاباته، فقد كان في تلك الأيـــام يـــستقبل عربات الكارو التي تصل تباعاً وهي محملة بالأثـــاث والحـــصران والشياه والمواد الغذائية وغير ذلك من لـــوازم الفرح، ظلوا يشاهدون ما يجري أمام أعينهم وهم في حالـــة استغراب شديد، ظلت مصاحبة لهم حتى فاجأهم الحاج ارخـــيص بالدعوة لحضور عقد قران ابنه ناجي، وهكذا التقى

الأقارب والجيران في المقهى التجاري بميدان البلدية تلبية لدعوته وتهنئته بهذه المناسبة السعيدة، كان المقهى قد امتلأ على سعته بالحاضرين الذين أرهفوا أسماعهم لما كان يتلوه المأذون من شروط العقد والذي عرفوا منه أن الحاج ارخيص قد تمكن من مصاهرة عائلة ميسورة الحال وأنه أذعن لشروط تلك العائلة التي فرضت عليه تقديم خمس أوقيات من الذهب معجلاً، الأمر الذي زاد في حيرة الجيران وجعلهم يتهامسون فيما بينهم ويتبادلون الغمزات وهم يتناولون المرطبات والشاي والحلوى ويشربون قازوزة (زمزم) ذات الطعم اللذيذ، بعد عقد القران مباشرة بدأت ليالي العرس التي أعدت لها العمة هنية أم العريس، فتولت دعوة زوجات الأقارب والجيران لحضور تلك المناسبة العزيزة على قلبها وأحضرت الدرباكه (حفصة) التي أحيت ليالي الفرح الثلاثة في أول ظهور لها في الأعراس، وقد كان أداؤها للأغاني رائعاً لاقى إعجاب النساء خاصة عندما صدحت بالأغاني المستوحاة من أيام الحرب مثل (يا جديدة يا دار اللوح، ياللي فيك الغالي مجروح) و(في اللثامة ما جانا نوم، برغوت وطيار يحوم) وغيرهما من الأغاني القديمة التي أثارت كوامن الذكريات

وجعلت النساء يصفقن بحرارة وهن يرقصن ويطلقن الزغاريد ويرددن الأغاني مع تلك الدرباكه الجديدة التي غنت وأطربت الجميع وجعلت ليالي ذلك الفرح من أجمل الليالي التي حرمت منها المدينة طيلة أيام الحرب الموحشة ..

***

في الوقت الذي كانت تنبعث فيه الأغاني الرائعة من بيت الحاج ارخيص الذي تغمره أضواء المصابيح الكبيرة، كانت السهرات لا تنقطع في بيت العم عقيلة القريب ممن بيت آل ارخيص والذي كان يلتقي فيه الجيران للهدرزة واستعراض مجريات الأمور اليومية وتفقد أحوال الناس وما يطرأ على حياتهم من تغيير، كانت هذه اهتماماتهم التي استولت على تفكيرهم وهيمنت على عقولهم، وفي إحدى السهرات التي تزامنت مع ليالي العرس الذي أضفى على الشارع جواً من السعادة والحبور تمَّ استعراض كل ما طرأ على حياة الحاج ارخيص منذ أن بدأ يقوم بالاستعدادات لتوفير لوازم العرس الذي سبق أن بشرهم به مروراً بحفلة عقد القران وانتهاءً بهذه الليالي المفرحة التي استغرق

التحـــضير لها قرابة الشهر، وأخذ كل منهم يؤول سر المبالغ المالـــية التـــي أنفقها الحاج ارخيص على مستلزمات الزواج والتـــي لـــم يـــستطيع أحـــد معرفة مصدرها، وبينما كانوا مستغرقين في التأويلات فاجأهم العم عقيلة بقوله :

- الحكايـــة مـــا فيهاش سر خفي، عمركم ما اسمعتوا بشركة اليهودي ناحوم ؟!

وعـــند ذلك تذكر الجميع تلك الشركة التي يمتلكها الثري اليهودي بيو ناحوم والتي تقوم بتصدير مخلفات الحرب العالمية الثانـــية إلـــى إيطاليا كما عُرف عنها، كما أن ناجي ابن الحاج ارخـــيص كـــان يعمل بها في وظيفة مشرف على تسلّم حطام الأســـلحة والآلـــيات والمعدات العسكرية التي كانت منتشرة في صـــحراء بلادنا، وكان بعض المواطنين يجمعون ذلك الحطام ويبـــيعونه إلى تلك الشركة بثمن بخس لا يتناسب مع ما كانوا يتعرضـــون له من مخاطر كبيرة بسبب كثرة انفجارات الألغام المزروعة في تراب بلادنا التي طالما أدت إلى إلحاق الأضرار الفادحـــة بهم، كما أدت في الوقت نفسه إلى تحسين دخل بعض العاملين بتلك الشركة ومن بينهم ناجي ابن الحاج ارخيص الذي

استطاع أن يجمع مبلغاً من المال لا يعلم أحد مقداره ولا يعرف أحد كيف تحصل عليه، وهذا ما دفع الحاج ارخيص إلى الإقدام علـــى زواج ابــنه وإقامة ذلك العرس الذي قلَّ نظيره في تلك الأيام التي شحت فيها دخول الناس، ومن أقوال العم عقيلة التي فاجأ بها الجيران عرف الجميع السر الذي كان خافياً عنهم غير أنهــم لـــم يدر بخلدهم أن العم عقيلة كان قد عمل فترة قصيرة بـــشركة ناحوم في بداية تأسيسها ثم تركها عندما حامت حولها الـــشبهات وتـــرددت عـــنها الأقـــوال التـــي أكـــدت أن سفينة (الكارغو) التي كانت تنقل حطام الآليات والمعدات العسكرية التـــي قيل إن بينها بعض الأسلحة الخفيفة التي لازالت صالحة للاستعمال، لم تكن وجهتها المرافئ الإيطالية كما كان يشاع بين الناس وإنما كانت وجهتها مكان لم يخطر على البال، فقد كانت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط لتحط رحالها في ميناء حيفا بفلـــسطين، حيث تتولى تسلّم حمولتها إحدى الوكالات اليهودية المتخصصة في تهريب الأسلحة .

***

القارب المهجور

على طول الشاطئ الممتد من سور الميناء غرباً إلى ناحية اللثامة شرقاً حيث تمتد الصخور بموازاة ذلك الشاطئ توجد فتحة بين الصخور تكوّن شبه خليج صغير مقابل للمنارة البحرية تندفع منه المياه إلى حافة الشاطئ دون عائق عندما يرتفع المد، وكان هذا الخليج الصغير يستخدمه الصيادون كمرفأ لقواربهم، كما يستخدمه سكان شارع البحر كحوض للسباحة لعمق المياه به وقد عُرف لديهم باسم (البوغاز)، وهو الاسم الذي أطلقه عليه الأجداد الذين كانوا يسمعون بمضيق البوسفور وبحر الدردنيل ويطلقون هذا الاسم على ذلك المضيق المشهور، وكان الآباء يحذرون الصغار دائماً من السباحة فيه عند ارتفاع الرياح لأنهم كانوا يخشون الأنواء المفاجئة، ويعرفون أن البحر في مثل هذه الحالة كان يبتلع كل عام شخصاً، لهذا ينصحون الصغار بقولهم :

- ردوا بالكم راهو البحر ياخد في كل عام ارقبه .

كان كل من يسبح في ذلك البوغاز عند أقل ارتفاع للمد

يــشعر بالتــيارات تجذبه إلى قاع البحر حتى يكاد يغوص في الأعماق ولا يخرج من تلك الدوامة إلا بشق الأنفس إذا قُدِّر له أن ينجو من الغرق، ولذلك كان السباحون خاصة الصغار منهم يمتــنعون عــن السباحة فيه عندما يشعرون بهبوب الرياح ولو كانت خفيفة، كانوا يجتنبون الخطر حسب وصية الآباء ويقومون بالــسباحة في المياه الأقل عمقاً التي تقع خلف الصخور والتي يجدون فيها ما يشبه الآبار كالبئر المعروف باسم (بير الكلبة) وغيره من الآبار الأخرى، وعندما يكون البحر هادئاً جميلاً في أيــام الصيف المشمسة كان السباحون من هواة الصيد البحري ينتــشرون على امتداد الصخور وهم يلقون (السنانير) المغلفة بالطعوم ويقذفون بفتاة الخبز في البحر انتظاراً لأسراب السمك التي لا تلبث أن تأتي في إفواج متتالية فيحصلون منها على ما يكفي لإعداد وجبة (حرايمي) شهية .

***

كان من بين القوارب الثلاثة التي ترسو في ذلك البوغاز، قارب صغير مطلي باللون الأزرق وبه خطوط حمراء وبيضاء تلــتف حــوله فــي خط مستقيم، وكان يلفت النظر دائماً لعناية صــاحبه بــه إذ كان يبدو نظيفاً لامعاً، كما عُرف عن صاحبه

الـــذي اشـــتهر بحب النظافة في كل شيء وهو الصياد مسعود المعـــروف بلقب (الكوال) لبراعته في لعب (الكارطه)، كما بـــرع في الصيد والسباحة، حيث كان يغوص تحت الماء فترة طـــويلة يقطـــع فيها مسافة وهو يتحرك في رشاقة، كان معتدل القامة دقيق الملامح حليق الوجه دائماً، لقد تعود على الحضور مبكـــراً إلـــى ذلك المرفأ الصغير وهو يحمل (الخرج) الذي يحـــتفظ فيه بأدوات الصيد الخفيفة و (الطعوم) وبعض الخبز والجبن والتبغ كما يحمل قارورة المياه العذبة .

كـــان مـــسعود قد تعود على خلع سرواله على الشاطئ ووضعه على كتفه ثم يدخل البحر مشياً على قدميه حتى يصل القـــارب وقـــد ابـــتلّ قميـــصه الأبيض الشفاف الذي يصل حد الـــركبتين والتـــصق بجسمه وكشف عن أردافه حتى يبدو كأنه عارٍ مما يثير ضحك الصبيان المجتمعين على الشاطئ، فيسمع القهقهة ويلتفت إليهم ليمطرهم بوابل من الشتائم والكلمات البذيئة وعـــند ذلك يهربون خوفاً منه، كان لا يعبأ بما يصدر عنه من ســـباب في حق آبائهم وأمهاتهم، وما يكاد يبتعد الصبيان حتى يقـــوم بفـــك رباط القارب والمجدافين ويقفز إلى داخله بخفة ثم يـــنطلق فـــي داخل البحر ويراه السباحون وهو يجذف بمحاذاة

الصخور مولياً وجهه إلى المشرق وهو يتأمل أعماق البحر كأنه يـــريد تحديد موقع الصيد الذي يرمي فيه شبكته، لم يكن يعول كثيراً على وفرة الصيد لأنه لا يعتمد عليه في معيشته فهو يملك مطعمـــاً قريباً من سوق الحوت يؤجره لجاره سالم قلاية ويدر علـــيه دخلاً مناسباً، كان عشقه للصيد مجرد هواية رافقته منذ صـــباه، الشيء الذي كان يهتم به كثيراً ولا يحب العودة بدونه هـــو ســـمك (الساورو) الذي كان دائماً شغله الشاغل، فإن لم يحصل على هذا النوع من السمك في رحلته اليومية اضطر إلى اســـتبدال بعـــض ممـــا يحصل عليه من السمك الآخر بالنوع المـــرغوب فيه (الساورو) حتى يمكنه إرضاء جارته (ليزا) التي كانت تفضل هذا السمك على غيره وتوصيه بإحضاره لها، فهـــو مـــنذ وفاة زوجته لا يأكل إلا من يدي هذه اليهودية التي تقطن بيتاً مقابلاً لبيته ولا يفصله عنه سوى الشارع الضيق الذي لا يـــتعدى عرضه أربعة أمتار، والتي تربطه بها علاقة الجوار مـــنذ عدة سنوات تجعله لا يرفض لها طلباً، كان هذا هو ظاهر العلاقـــة أما ماعدا ذلك فلا أحد من الجيران يعرف شيئاً عنها، وإن كـــان جـــاره المقـــرب إليه سالم قلايه يشك في براءة هذه العلاقـــة ومع ذلك لا يتجرأ على مخاطبته عنها ولا عن سؤاله عن سرها، وكان من أسعد الأوقات لدى مسعود أن يرى (ليزا)

تجلـــس في سقيفة البيت وهي تعد (طاجين) الحوت ثم تنادي أحـــد الصبيان من الشارع وتكلفه بنقل ذلك الإناء المصنوع من الفخـــار والمخـــصص للطهـــي بالفرن إلى (كوشة الشعالية) المعروفة بشارع البحر، وتتفرغ بعد ذلك إلى تنظيف المكان من قـــشور السمك وهي تردد أغنية قديمة يقول مطلعها (من اللي فوق الوادي جانا، كيف انديرو يا مطرانا) وهي أغنية لمطرب يهـــودي مـــيت يدعى (بنحاس) كان يغنيها في أفراح اليهود وحتـــى في أفراح المسلمين كما كان اليهود يسمون المواطنين، كانـــت هـــذه الأغنية معروفة لدى الأهالي قبل الغزو الإيطالي لبلادنا، كان مسعود ينصت إلى ليزا وهو يتأمل قوامها الرشيق وملامحهـــا الجمـــيلة وشعرها الأشقر الذي تتدلى خصائله على جبهـــتها العريـــضة التـــي بهـــا أثر لجرح صغير يظهر تحت (المحـــرمة) الحمراء التي تغطي رأسها والمعقودة على خدها مـــثل مـــا تفعـــل بقية اليهوديات اللواتي يرتدين الرداء المحلي المصنوع من الحرير، كانت جميلة بلا أصباغ ومساحيق، وإذا كـــان هـــذا ما يطرب مسعود كان ما يقلقه انتظار قدوم زوجها (رحمين خلفون) الذي كان يعمل في خمارة يملكها أحد اليهود فـــي ســـوق (الحارة) ويرتادها عمال الميناء كل مساء، كان رحمـــين يعود متأخراً في الليل وأغلب الأوقات يكون مخموراً

فيـــسمعه مسعود يدندن بأغنية تونسية معروفة مطلعها (يا اللي راجلهـــا مغـــيار امعيشه مرة ليل نـهار) فيعلق بقوله: (ما من غيـــره فيك يا تيس)، وما إن يدخل رحمين البيت حتى تنشب بينه وبين ليزا مشادة كلامية يكيلان فيها السباب لبعضهما ..

- طيح مزالك يا رحمين ولد المشوم خلفون ..

- طيح سعدك يا ليزا بنت الكلب إفرايم ..

ويظل مسعود ساهراً ينتظر انتهاء تلك المشادة المعتادة .

❋❋❋

كـــان كـــل ما يضايق مسعود ويفسد عليه متعته النهارية وهـــو جـــالس في سقيفة بيته يتحاور مع ليزا هو قدوم شقيقها (الياهو)، ذلك اليهودي ذو الوجه الأحمر الذي يشبه رئة الشاة التـــي تنتشر فيها البقع السوداء، والذي يعمل مدرساً بالمدرسة الـــتلمودية كما قالت له ليزا ذات مرة وهي تتحدث عن سيرته، كـــان ذلك الوجه البغيض يثير اشمئزازه ولم يكن يحتمل مجرد النظـــر إليه لأنه ينم عن حقد دفين كما يبدو من نظرات عينيه القلقـــة وهـــو يردد كلمات غريبة لم يسبق له أن سمع بها ولا يعـــرف لهـــا معنـــى مثل: (أورشليم - تل افيف - هاغانا)،

ويطـــول الحـــديث الـــذي لا يفقه معناه ويشعر بالقلق من كلام الياهو، إذ كان بقدر ما يرتاح إلى كلام ليزا ذات الوجه الصبوح يكــــره مجـــرد النظر إلى وجه الياهو البغيض وسماع عباراته المـــبهمة، ولهذا يسرع بإقفال بيته والتوجه إلى (قهوة الشط) ليلتقـــي بالـــرواد الدائمـــين لذلك المقهى والذين كان أغلبهم من ســـكان شـــارع البحـــر والشوارع المتفرعة منه الذين يعملون بالميناء، منهم مرشدو السفن والبحارة الذين يعملون على ظهور السفن التجارية وعمال ورشة الصيانة بالميناء .

هناك في ذلك المقهى يجد مسعود (الكوال) ما يرفه به عـــن نفسه في مزاولة لعبته المفضلة (الكارطه) التي تستمر ســـاعات طويلة ينسى خلالها ما أزعجه وجعله يغادر بيته وما يكـــاد يأخـــذ مكانه في زاوية المقهى الشرقية حتى يسرع إليه بعـــض الـــرواد الذين يتسابقون إليه للفوز باللعب معه ومقابلته على الطاولة لمعرفتهم بأن من يسعده الحظ باللعب تحت إرشاده يطمـــئن إلى التغلب على خصمه، كانت براعة الكوال في لعب الـــورق وعد (الصائليات) التي تسقط والتي لاتزال في أيدي خـــصومه مثار إعجاب الجميع، لأنه لم يُغلب إلا نادراً ويكون ذلـــك بسبب فشل من يقابله كشريك له ولم يفهم معنى إشاراته

وعـــند ذلك يغضب ويمطر شريكه بأقذع العبارات، (يا غشيم، يـــا فقوم، لا تكوز، لا تعطي إسكنبيل يا مفْشك)، كان على من يقابله أن يستعد في حال فشله لتلقي الشتائم التي تنهال عليه بلا عـــدد، وبينما يكون بعض الرواد منهمكين في اللعب وقد علت أصواتهم، يكون البعض الآخر قد تحلقوا حول الرايس منصور الـــذي يروي لهم ذكرياته عن أيام خدمته على ظهور المراكب الشراعية ومن ضمنها (القائق) الذي كان يملكه أشهر الرياس فـــي وقته المدعو البكوش والذي كان يستخدم لنقل البضائع إلى ميناء (الزويتينة) الذي يعد هو المنفذ البحري لمدينة إجدابيا أيام الهدنـــة بـــين المجاهدين والطليان، كان الرايس منصور يسرح بخـــياله وهو يستعيد ذكرياته وسط أعمدة الدخان التي تتصاعد من فمه وأنفه وهو يجذب أنفاساً عميقة من (الرقيلة) ويحدثهم عـــن أصعب رحلة واجهتهم عندما هاج البحر ذات مرة وكان الـــوقت أمـــسية خريفية وكان تغير الطقس المفاجئ غير متوقع فعـــند إبحـــارهم كـــان البحر ساكناً وكانوا أقرب ما يكون إلى المـــرفأ المقصود عندما داهمتهم الرياح الشرقية العاتية وظلت تدفع بالمركب وسط أمواج عالية، ويتنهد سي منصور ويجذب أنفاســـاً مـــن التبغ المحترق وهو يسوي وضع الجمرات فوقه (بالماشـــا) ثـــم يسترسل في سرد حكايته، إن البحر ليس دائماً

مأمـــوناً كما يعرف ذلك كل من أبحر فيه سنين طويلة وصارع أمـــواجه التـــي طالمـــا أودت بحياة رياس فحول لم تشفع لهم خبرتهم بالنجاة منه، لقد بذل الرايس (البكوش) قصارى جهده للـــسيطرة على اتجاه المركب المحمل بالبضائع دون جدوى، لم يفلـــح فـــي مقاومة الرياح وأنى له ذلك، لقد عمل كل ما أمكنه عمله حسب خبرته الطويلة وتجاربه السابقة حتى أدركه الإعياء وأســـلم الأمر لله وترك المركب لمصيره وهو يردد: يا خلّاص الواحلـــين، يا مجيب دعوة المضطرين لقد بقينا في حالة خوف شـــديد كنا نشعر بالموت يرفرف فوق رؤوسنا وظللنا على تلك الحالة حتى أدركنا الله برحمته فتغير اتجاه الرياح بعد الغروب بساعات واستبشرنا خيراً بهذا التغير المفاجئ، واستطاع الرايس الـــبكوش تغيير دفة المركب نحو الجنوب وسط الظلام الدامس، وغمرتنا الفرحة عندما شعرنا بالمركب تصطدم بالرمال بعد أن تجـــاوزت المياه العميقة وتبادلنا التهاني بالسلامة وعندما بدأت خـــيوط الـــنور تمـــلأ الأفق اكتشفنا أن المكان الذي رست فيه المركب يبعد كثيراً عن المرفأ الذي كنا نحط فيه الرحال، وعند هذا الحد توقف الرايس منصور عن الحديث فقد فاجأهم صوت المذياع الموضوع على رف كبير معلق في جدار المقهى، كانت دقـــات الـــساعة تعلـــن الثامنة مساءً موعد نشرة الأخبار التي

يتـــرقبها المواطنون في جميع المقاهي لندرة أجهزة الراديو في بـــيوتهم وتـــرك الجمـــيع اللعـــب وساد بينهم الصمت وأخذوا يصيخون السمع إلى الأخبار الآتية من وراء البحار .

" هاجمـــت العصابات الصهيونية المسلحة المدن والقرى الفلـــسطينية وقـــتلت الكثير من النساء والأطفال والشيوخ، وقد عاثت في الأرض فساداً و.. إلخ "

وانطلقت الأناشيد الحماسية وسط لحن موسيقى صاخبة (يا فلسطين جينالك) وعمت الضوضاء بين الحاضرين داخل المقهى وبين الذين كانوا يستمعون إلى الأخبار من خارجه وأخذ الجميع يتبادلون التساؤلات : كيف يمكن أن يحدث هذا؟ أين هم العرب؟ وقفز مسعود الكوال من مكانه ورمى بورق اللعب على بلاط المقهى وقال بصوت مرتفع:

- عطب الأيام ما فيش عرب يفزعوا لخوتهم ؟

وتتالت بعد ذلك أصوات الحاضرين منددة بجرائم اليهود البشعة .

- ما هو فيه ادول عرب نسمع بيها كنها ما تفزع ؟

- العرب اللي انقولوا عليهم مالهم طاري لا حس ولا مس .

- حتى اليهود الدلاله يطمعوا في العرب عقاب الوقت !!

- هذا عار في جبين العرب ؟!!

وظلت أحاديث وتساؤلات الحاضرين تملأ الجو ضجيجاً حتـــى حـــان مـــوعد إقفال المقهى وتفرق الجميع وهم يلعنون عصابات اليهود المجرمة .

***

عـــندما حضر مسعود الكوال إلى المقهى في مساء اليوم التالي وجد الرواد كلهم متحلقين حول المدرس مختار سالم الذي كـــان يحضر كل مساء لمشاهدة مباريات اللعبة الشعبية المألوفة (الكارطه)، كان هواة لعب الورق كلهم قد تركوا هوايتهم ذلك المـــساء وحتى الذين كانوا يتحلقون حول الرايس منصور الذي يحـــدثهم عـــن البحـــر وأهواله قد تخلوا عنه لانشغالهم بحديث المدرس مختار الذي لم يسمعوا به من قبل، كانت العيون متعلقة بـــذلك المـــدرس الأشـــيب الذي أخذ يشرح لهم قضية فلسطين وأطماع اليهود في تكوين دولة عبرية وسط بلاد العرب بمعاونة الإنجليـــز المـــستعمرين القـــدماء، لقد شدّ ذلك الحديث أسماع الحاضـــرين وأشـــعرهم بمـــدى الخطر الذي يتهدد العرب في

مستقبلهم، وأخذ بعض الحاضرين يوجهون الأسئلة إلى المدرس مختار وهو يجيب عليها بطلاقة لسانه كأنه يشرح درساً في أحد الفصول المدرسية، وهنا خطر لمسعود الكوال ما كان يسمعه من اليهودي (الياهو الأبرص) الذي كان يحدث أخته بكلمات لم يفهم معناها فسأل المدرس

- يا أستاذ مختار انا سمعت كلام من اليهودي الياهو ما عرفتش معناه ؟

- شنو لكلام اللي اسمعته من اليهودي ؟

- كان يقول لأخته : ورشليم - تلا فيف - هكانا - غريون..

وضحك الأستاذ مختار واعتدل في جلسته وهو يرى الحاضرين يترقبون الإجابة،

- معنى أورشليم هي القدس التي تحتل مكانة في قلوب المسلمين والتي يرغب اليهود في الاستيلاء عليها، أما تل أبيب فهي مقر العصابات اليهودية التي تتجمع في فلسطين لإنشاء دولة يهودية على أرضها، وأما (الهاغاناه) فهي أكبر عصابة يهودية تحاول إبادة العرب هناك، والكلمة الأخيرة (بن غريون) فهي اسم زعيم العصابة المجرم

الـــذي يقـــود الحملـــة لإبادة العرب كما سمعتم في نشرة الأخـــبار، هـــذا ما كان يعنيه ذلك اليهودي الذي يحرض الـــيهود علـــى ترك البلاد والهجرة إلى فلسطين، ودوّت المقهى بأصوات الحاضرين وهم يكيلون الشتائم لعصابات الـــيهود الإرهابـــية وأعوانها من الإنجليز، وقال مسعود الكوال بتأثر وانفعال قوي :

- لو كان عرفت معنى كلام الياهو راني عطبتها على خشمه .

وضحك الحاضرون وسط ذلك الجو المشحون بالحماس .

***

كانـــت عملـــية ترحيل العائلات اليهودية إلى فلسطين قد بـــدأت بمـــساعدة سلطات الإدارة العسكرية البريطانية المهيمنة علـــى الـــبلاد مـــنذ احتلالها، وفي نفس الوقت قام المواطنون بتـــشكيل (لجنة مناصرة فلسطين)، وأخذوا يجمعون التبرعات باســـم تلـــك اللجـــنة التي باشرت في تسجيل أسماء المواطنين المتطوعين للقتال إلى جانب أخوانهم أهل فلسطين .

فـــي صباح أحد الأيام المشحونة بالتوتر والغليان شوهد مـــسعود الكـــوال وهو يسحب القارب الأزرق من ذلك المرفأ

الصغير ويحمله على عربة (كارو) حتى بيته ثم يضعه بجوار الجـــدار الـــذي يحد البيت مقابلاً للوسعاية الكبيرة التي يتخذها الـــصبيان ملعـــباً للكرة، ويتركه هناك، ثم يتوجه بعد ظهر ذلك الـــيوم إلـــى مقر لجنة مناصرة فلسطين في شارع البلدية وهو يحمل الصور الشمسية التي أعدها لأول مرة في حياته، وهناك يـــتم تسجيل اسمه ضمن المتطوعين ويعطى بطاقة تحمل شعار اللجـــنة وتتضمن اسمه وهويته وصورته الشخصية، ويعود بعد ذلك إلى بيته ليقوم بتحضير لوازم السفر مع صديقه سالم قلايا الـــذي سهر معه تلك الليلة حتى بدا النعاس يداهمه فتركه ليأخذ قـــسطاً مـــن الـــنوم ويستيقظ مبكراً للذهاب إلى حيث سيتجمع المـــتطوعون أمام وكالة النقل والسفريات بمنطقة الفندق الجديد والتي ستتحرك منها سيارات النقل الكبيرة حاملة أولئك الرجال إلى ساحة المعركة.

***

مـــضت ســـنوات على رحيل مسعود الكوال، وانقطعت أخباره لم يعد أحد يعرف عنه شيئاً، حتى جاره وصديقه المقرب إلـــيه سالم قلايا الذي كان هو الوحيد المطّلع على علاقته بتلك الـــيهودية الجميلة كان حريصاً على إخفائها مراعاة لشعوره فلم

يخبـــر بها أحداً من الجيران تفادياً لأقاويل الفضوليين، حتى هو سالم نفسه لم يعد يعرف ما إذا كان الكوال حياً أو ميتاً وإن كان يتذكـــره باستمرار ولم تفارقه ذكرى ذلك الصباح الباكر عندما تـــسلّم مـــنه مفتاح البيت وهو يتهيأ للرحيل، وأنى له أن ينسى صديقه وذكريات أيامه معه وهو يعبر كل يوم ذلك الشارع الذي جمعهمـــا مـــنذ كانا صغيرين وينظر إلى تلك الوسعاية الكبيرة حيث يقبع القارب بعيداً عن البحر منكفئاً وقد بدا طلاؤه الأزرق اللمـــاع يـــبهت ويـــتآكل وتتطاير منه قشور الطلاء بفعل أشعة الشمس التي تصليه بحرارتها كلما توسطت قلب السماء .

***

حلاق امشيليا

كــان (أبــو زيد الزايط) الذي عرف في شارع (أبو غــولة) بأنـــه مـــن أشهر الحلاقين رجلاً طويل القامة غليظ الملامـــح كــث الشوارب به حَوَل في عينه اليسرى، أما محل عملـــه فهو دكان صغير المساحة به مرآة كبيرة تتوسط إطاراً خـــشبياً من النوع القديم لا يخفي طلاؤه باللون الذهبي تشقق أضـــلاعه، كان مثبتاً في الجدار المقابل للشارع وفي الجانب الأيمـــن منه إطار به صورة فارس يمتطي جواداً أبيض كانت مرسومة بألوان فاقعة ومكتوباً تحتها : فارس الفوارس أبو زيد الهلالي، أما في الجانب الآخر من المرآة فيوجد دولاب صغير له باب زجاجي مدهونة جوانبه باللون الأبيض وبداخله أدوات الحلاقـــة و(الحجامـــة)، وكـــان يتوسط الدكان كرسي كبير مـــصنوع مـــن الخـــشب المحفور بالنقوش القديمة له مسندان ومـــبطن بقمـــاش أحمـــر باهـــت بدت حشوته هابطة من أثر الجلـــوس، كمـــا كانت توجد بعض الكراسي القديمة من النوع المعدة مقاعدها من حبال (الحلفاء)، كان أبو زيد مزهواً بهذا

الدكان الذي تركه له الأسطى (علي يوسف) الذي تعلّم على يديــه مهــنة الحلاقة، لقد كان هذا الدكان ملتقى لرجال الحي لاسيما كبار السن الذين يحلق لهم أبوزيد رؤوسهم ويجري لهم عملية (الحجامة) التي تعودوا عليها للتخلص من الدم الزائد الذي يسبب لهم الصداع كما يقولون، كان أبوزيد يبدأ في إعداد أداة الحجامة (المغاثة)، وهي عبارة عن كوبين من الصفيح اللامع كل واحدة في حجم فنجان القهوة غير أنها ضيقة العنق ومــا يكاد يفرغ من حلاقة رأس الزبون كله أو نصفه الخلفي أحــياناً حتــى يقوم بتجريح عنقه بالموسى خلف الأذن اليمنى وخلف الأذن اليسرى ثم يشعل ورقة بعود ثقاب يضعها داخل المغاثة وهي ملتهبة ويثبتها فوق الجروح الأولى حتى تلتصق بهــا ويفعــل نفــس الطريقة مع الجروح الثانية، وهكذا تثبت الأداتـــان فــوق عنق الزبون ويدعمهما أبوزيد مدة دقيقتين أو أكثــر حسب ما يرى ثم ينزعهما بعد أن تكونا قد امتصتا ما أمكنهما من دم ويمسح مكانهما بقطعة من القطن تبقى ملتصقة بالجــروح فترة من الزمن، وهكذا تتم العملية ويشعر الزبون بالراحة ويقول لأبي زيد (الله يرحم من علمك يا الزايط) .

لقــد عُــرف أبــوزيد بــروحه المرحة وإجادته لرواية

(سيرة بني هلال) والحكايات الشعبية الطريفة الموروثة عن الأجـداد فإنــه لا ينــسى في غمرة أحاديثه التي لا تنتهي أن يتحدث عن قرية (امشيليا) التي لا يترك فرصة تمر دون أن يذكــر أيام صباه، حيث ولد وترعرع في تلك القرية الصغيرة حــيث كان والده يملك بها (سانية) محاطة (بطابية) مبنية مــن الحجر والطين وبها أشجار من الزيتون واللوز والرمان، ولقــد كان دائم الحديث عن هذه القرية حتى أطلق عليه شبان الحــي لقــب (حــلاق امشيليا)، ولما كان أبوزيد من هواة الأحاديث عن التراث فقد وجد في جاره المدعو صابر الرايق صديقاً لا يمل الإنصات إليه إذ كان هو الآخر من هواة الأدب الــشعبي، وهكذا توطدت علاقتهما وأصبحا لا يفترقان فما إن يفــرغ أبوزيد من حلاقة زبون حتى يجلس أمام دكانه ويظل يتبادل الأحاديث مع جاره صابر الرايق ...

***

كــان صابرالرايق صاحب المحل المقابل لدكان أبوزيد يعمــل فــي صناعة (الحبال) و(المكانس)، وهو رجل في العقــد السادس من العمر ضعيف البنية تبدو على وجهه آثار الــسنين التــي تبــرز في تجاعيد وجهه الكثيرة، وكان يجلب

(الليف) وعيدان (الجريد) اللذين يطرحان من النخيل عند تلقيحه، فيصنع منهما (المكانس)، كما كان يجلب نبات (الحلفاء) الذي ينقعه في الماء حتى يرطب ليصنع منه الحبال التي كانت أكثر رواجاً بسبب استعمالها في البيوت القديمة التي بها آبار مياهها قليلة الملوحة تستعمل في غسيل أدوات الطبخ وغيرها .

كان سكان الحي قد تعودوا على رؤية صابر يجلس على حصير قديم أمام دكانه ويقوم بدق عيدان الحلفاء بمطرقة كبيرة من خشب (الزان) تسمى (المَيْجَنَه) يظل يدق بها حتى تتفتت عيدان الحلفاء وتستحيل إلى ألياف طرية يأخذ في فتلها بيديه المعروقتين حتى يصنع منها حبالاً متينة ذات مقاسات مختلفة منها ما يبلغ طوله عشرين (قامه) ومنها ما هو دون ذلك لاستعمالها حسب عمق الآبار .

❋ ❋ ❋

كان أبوزيد كلما فرغ من حلاقة رأس أحد الزبائن يجلس مع جاره يتبادلان الأحاديث الطريفة والحكايات الشعبية ويعلقان على المارة رجالاً ونساء، فقد تعود أبوزيد الذي

لا تفارق شدقيه (المضغة) وصف النساء بعباراته المضحكة المعـــروفة لدى جيرانه، فكلما مرّت امرأة أطلق عليها وصفاً فإن كانت طويلة قال: (هذه ناقه افواخر) وإن كانت قصيرة قـــال (هذه بترا)، أما إن كانت المارة امرأة بدينة قال (هذه زنبـــيل ..) كـــان لا يمـــل من إطلاق الأوصاف وهو يداعب شـــواربه الطويلة ويفتلها حتى يجعل جاره صابر لا يكف عن الـــضحك من تعليقاته وحركاته، المرة الوحيدة التي شعر فيها أبوزيد بالخجل من نفسه عندما مرت بهما امرأة سمراء طويلة فقال: (ريت يا صابر هالسمراء الطوالي)، فردت عليه قائلة (عيب عليك هذه قلة حياء)، واستغرق صابر في الضحك ثم قال له: (هالمره طحت في شوشانه يا ازويده) .

❋❋❋

كان أبوزيد قد حضر إلى دكانه متأخراً ذات صباح وقد بـــدت على وجهه علامات القلق التي لفتت نظر صديقه صابر الـــذي ارتاب في الأمر، وقبل أن يسأل صديقه عما أقلقه اندفع أبوزيد يحدثه عن زوجته سالمة التي طلقها اليوم لعدم ارتياحه لسلوكها، لأنها تمتهن حرفة (الدلالة) ولا تلتفت إلى متطلبات البيت فهي لا تقوم بغسل ثيابه إلا نادراً ولا تقوم بإعداد وجبات

الطعـــام فـــي مواعيدها، كان كل همها أن تطرق على البيوت لبـــيع الأقمشة للنساء وتعود متأخرة فلا تتمكن من عمل شيء بسبب الإرهاق الناتج عن طوافها بالشوارع .

– كيف تبي اتدير توا، تقعد بلا وليه ؟

– أنـــا وصـــيت رجعة الخبازة ودلتني على مرا تسكن في شارع حموش .

– صار لك مدة اتدور واتوصي ؟

– أيوه والله اجعلني أوليدك يا صابر ..

– خلاص كان والاتك هالوليه اللي اتقول عليها خودها ..

❋❋❋

لـــم تمـــضِ ثلاثة أيام حتى تزوج أبوزيد بالمرأة المطلقة التي وصفتها له الخبازة والتي اشترطت عليه أن يقيم معها في الحجرة التي تستأجرها ويدفع إيجارها، كانت تدعى إمباركه وقد بدت في بداية زواجها شديدة العناية به، فهي تعد له الطعام في ميعاده وتقوم بغسل ملابسه وقد شعر بأنها قريبة منه لأنها كانت تـــشاركه في السهر والحديث، فهي أيضاً من أصل قروي وقد

تـــتلمذت علـــى العجائز اللواتي كن يجدن الحكايات عن عشاق وعاشـــقات عاشوا في الزمن الغابر، ولهذا ارتاح إلى حكاياتها عـــن (صـــوب خلـــيل) وما فيه من أغان وألغاز، كان عيبها الوحـــيد أنها تمارس حرفة (العرافة) فقد اكتشف ذات يوم أن جاراتهـــا يطلقـــن علـــيها اسم (امباركه التقازة) وأن النساء يحضرن إليها كل عشية لتنظر لهن خفايا القدر، كانت امباركه تجلـــس وسط السيدات وتضع (غربالاً) عليه قطع من الودع والخـــرز الملـــون وقطع من العملات القديمة وكانت ترفع هذه الأدوات في قبضتيها تسألها أن تصدق في قول الحقيقة ثم ترجها بـــين يـــديها وتلقي بها على الغربال، ثم تبدأ في فحصها وهي تـــشير إلـــى الودع وتخبر بما تراه، فتقول لإحدى الحاضرات (راجلـــك حايطـــة به وليه قصيره مليانه باللحم ربي يفكك من شرها،) وتقول لأخرى (بنتك سعدها زين آهي طريقها باينه)، وهكـــذا تظـــل تخبر بما تعودت عليه من كلمات مفرحة أحياناً ومحزنة أحياناً أخرى وتتنبأ بعلم الغيب .

ورأى أبوزيد أن يغض النظر عن عمل زوجته في بداية الأمـــر لمـــا وجد فيه ما يشبع هوايته في النظر إلى السيدات اللاتي يحضرن إلى البيت ومغازلة بعضهن، حيث كان يتأملهن

من نافذة الحجرة في غفلة من زوجته، وبمرور الأيام بدأ يتبرم بحياته مع التقازة ويتمنى أن يتزوج من امرأة أخرى تشبه تلك الجمــيلات اللاتـــي يحضرن إليها، وهكذا ظل يتحين الفرص للتخلص منها فلم تعد تروق له ولم يعد يطيق البقاء معها .

***

عندما التقى أبوزيد بجاره صابر أخبره بأنه لم يعد يطيق الحياة مع امباركه التقازة وأنه ينوي التخلص منها متى حانت الفرصـــة، ولما سأله عن السبب الذي يدعوه إلى تركها قال له إن البيت الذي يسكنه به ثلاث عائلات لها عدة أطفال وأنه لم يعـــد يجـــد الراحة في بيت تلد فيه النساء واحدة بعد الأخرى، واســـتمع صـــابر إلى كلام جاره الذي شعر بأنه مجرد حجة يفتعلها ويتحايل بها لطلاق التقازة ولهذا قال له :

– أيـــه يـــا بوزيد امتى تلقى الراحة اللي تبيها؟ وامتى تلقى الوليه اللي تعجبك ؟

– والله يا سي الصابر البلاد مليانه صبايا اللي يدور يلقى .

– اللي ياخد ويطلق كيفك مش ديمه يلقى عرب يناسبوه ؟

- لهن رزق عند الله نصيب يا علم ما ينقطع !

- دابين هذا رايك دير اللي يصلح بيك .

وانقـضت أيام على هذا اللقاء وقام أبوزيد ذات صباح بالـتخلص مـن التقازة فقد طلقها وترك البيت الذي استغرب سـكانه ممـا أقدم عليه بعد عشرة لم يروا فيها ما يدعو إلى طلاق جارتهم، وعاد أبوزيد إلى بيته الصغير الذي أقفله عندما تـزوج الـتقازة، وظل يعول على الزواج من جديد ويوصي معارفـه بالبحث له عن امرأة طيبة يسكن إليها كما كان يقول لجيـرانه القـدماء، وطال انتظاره ولم يجد امرأة وحتى البلاد التـي قال عنها أنها مليئة بالنساء سدت أبوابها في وجهه، لقد ضـاقت به الأرض هذه المرة ولم يجد بداً من مصارحة جاره صـابر وطلـب نصيحته، ولهذا عندما جلس بجواره كالعادة أخبره بما يلاقي من مصاعب في العثور على امرأة يتزوجها وقال له :

- دبر علي يا خوي صابر ما عرفت كيف اندير ؟

- امتى عمرك خديت الدباره والاّ شاورت ؟

- هالمرة عندك وبانت دور امعاي من يناسبني !

ولمـــا رأى صـــابر حالة جاره القلقة أخذته الشفقة عليه فأخبره بأنه يعرف أرملة طيبة تملك بيتاً تركه لها زوجها ربما توافق على الزواج منه لأنها تعيش وحيدة في بيت كبير إلا أنه يخشى أن يتوسط له في الزواج فيسبب له الإحراج .

- خايف ندخل في زيجتك اتحشمني مع هلها .

- عمري ما اندير حاجة اتحشم بيك هالمرة نبي انتريح ..

واقتـــنع صـــابر بكلام صاحبه بعد تردد ثم اتصل بشقيق جارته الحاجة (صالحة) وخطبها له وتم الزواج وشعر أبوزيد براحة لم يألفها من قبل، لقد اعتنت الحاجة بنظافة ثيابه واهتمت بإعـــداد الأطعمة التي يفضلها كما وجد بيتاً واسعاً نظيفاً يجلس وسط جدرانه البيضاء على (كليم) ملون ويتكيء على وسادة ناعمـــة، ويظـــل يتأمل تارة في (العريشة) التي تغطي مساحة كبيرة من البيت وتمتد أغصانها فوق أسقف الحجرات الثلاثة، وتارة أخرى إلى الحاجة (صالحة) التي تختال بين جنبات البـــيت الواســـع بردائها (الحصيري) اللامع المصنوع من خيوط الحرير الذهبية، كان يتأمل ويفكر ويسرح بعيداً بخياله وهـــو ينقل قطعة (المضغة) بين شدقيه كعادته ويبصق بين

حين وآخر في (المحبس) الذي أعدته له الحاجة حتى لا يلقي بمنقوع التبغ على البلاط الأصفر النظيف..

وظلـــت الأيام تمضي تباعاً ولم يشعر أبوزيد بالملل في بدايـــتها إلا أن مـــا كان يقلقه بعض الأحيان أن الحاجة كانت تعـــودت علـــى النوم مبكرة بينما كان هو متعوداً على السهر لـــساعات طـــويلة حيث لا ينام إلا متأخراً، كان يحب السهر والحكايات وتبادل الأحاديث مع الساهرين أمثاله، أما في هذه الحالـــة فهو أصبح يسهر وحيداً كأن البيت الكبير ليس به أحد ســـواه، لقـــد حاول مجاراتها في طبيعتها وهي تنام بعد صلاة العـــشاء وتـــصحو عندما تسمع مؤذن المسجد الملاصق لبيتها يفـــتح الباب الحديدي الذي يحدث صريراً يوقظها قبل الآذان فتقوم لتتهيأ لصلاة الصبح، وباءت محاولته بالفشل فلم يعد في إمكانه التغلب على عادة السهر، وزاد في قلقه أن الحاجة كانت تذهب إلى المقبرة فتفتح ضريح سيدي غازي وتقوم بتنظيفه ثم تجلـــس هناك لاستقبال الزائرات، كانت معروفة لدى الجيران بأنهـــا تـــنحدر من سلالة ذلك الولي المعروف بالمدينة ولهذا تحرص على خدمة الضريح كل يوم جمعة وتجمع النقود التي تتصدق بها الزائرات ثم تحتفظ بها حتى يحين موعد الصيانة

فتنفقها على إصلاح الضريح وتجديد ستائره وأعلامه، لقد فكر أبـوزيد كثيـراً في حالته مع هذه المرأة فهو من جهة لا يريد التفـريط كثيـراً فـي هذه الراحة التي وجدها بعد عناء وهذا الاستقرار الذي عرفه لأول مرة في حياته، ومن جهة أخرى لم يعد في إمكانه القبول بهذا الوضع الذي يدعو إلى الملل، ولهذا قـرر إخـبار جاره صابر مرة أخرى بأنه ينوي ترك الحاجة صـالحة رغم ما في ذلك من تضحية بهذه المرأة الطيبة التي تعهد له بأنه لن يفعل ما يحرجه أمام أهلها .

❋❋❋

عـندما حضر أبوزيد إلى دكانه كالعادة لاحظ صابر ذلك الـصباح أن مـا بدا على وجهه من تجهم ينبي بأن حالته غير عادية فلم يبدأ يومه بالضحك والمزاح كما كان يفعل مع سكان الحي ويداعبهم بتعليقاته المعتادة التي تثير ضحك الجميع، وهذا ما دعا صابر إلى الدخول عليه في دكانه والجلوس على كرسي مقابـل لـه مستفسراً عن دواعي قلقه، ولم يجد أبوزيد بداً من مـصارحة جـاره بكل ما مرّ به خلال الشهور التي عاشها مع الحاجـة صـالحة منذ زواجه منها وأثنى عليها لطيبة عشرتها وعَـدَّدَ صفاتها الحسنة حتى وصل به الحديث إلى الشيء الذي

كدّر صفوه وهو نومها المبكر وتركه يسهر وحيداً وكذلك ذهابها كل جمعة إلى المقبرة وقضاء اليوم هناك الأمر الذي أشعره بالقلق وجعله غير راضٍ عنها بالرغم من حسناتها،

لقد أنصت صابر إلى ادعاءات جاره أبوزيد ورأى أن كل ما قاله لا يعد مبرراً للقلق لاقتناعه بأن تصرفات الحاجة صالحة التي لم تعجبه ليس فيها ما يعيب امرأة شريفة تعودت على حياة خاصة لا يستسيغها أبوزيد الزايط وأمثاله، ولهذا كان قاسياً في رده على أبوزيد :

- الحاجة ما دارتش عيب انت اللي من يومك مانكش باهي..

- هي ما دارتش عيب لكن انا معش نقدر على عشرتها ..

- هدي وليه مرابطة وعشرتها صعيبة على غير هلها ..

- عمرك اسمعت في قبيلتي حد امرابط ؟

- حتى كان ما فيها حد امرابط فيها ناس عقال ..

- ديرني ما نيش عاقل انا معاش نبيها نبي انفارقها ..

- كان ناوي الفراق فارقها بلكي تلقى راجل خير منك ..

وساد بينهما التوتر من جراء الغضب، كان كل منهما قـد تأثـر مـن كلام صاحبه فهذه أول مرة يحدث فيها صدام بيـنهما مـنذ أن تعرفا إلى بعضهما في شارع بوغوله، وقال صابر منهياً ذلك الجو المشحون بالغضب :

- خليك في ضلالك لين يوطاك الندم ويتقعد راسك !!

***

كـان سكان شارع الجهاني يحتفلون بليلة (عاشوراء) عندما حضر جارهم القديم أبوزيد الزايط عند المساء وفتح بيته الذي كان مقفلاً منذ زواجه بالتقازة التي انتقل للإقامة معها في حوشها وكعادة الجيران بما جبلوا عليه من فضول رأى (العبد) وهـو أحـد الجيـران القدامى بالشارع أن يستفسر عن سبب حضور أبوزيد المفاجئ فطرق باب البيت الذي انفتح لأنه كان مواربا وسمع العبد صوت أبوزيد يدعوه للدخول.

- تفضل، تفضل يا ضيف.

كـان أبوزيد جالساً وسط البيت يعد (الشاهي) وأمامه طبق به رغيف خبز وحبات تمر، وبادره العبد بعد السلام :

- آنست، شنو هالجيه إن شاء الله مش بزعل ؟

- مـــا في الغرب صابات - يا بو العبد - علي هلك يا عين عاودي ..

- شورك طلقت الوليه التاليه؟ حتى الحاجة يا راجل؟ ..

- هذا اللي صار، الحاجة مش هي احدود الناس ..

ومـــا إن انتـــشر خبـــر حضور أبوزيد حتى هرع سكان الـــشارع إليه وأحضروا إليه أكلات (الكبيرة) الدسمة المكونة مـــن (الكسكـــسي) واللحم والفول والحمص، وحضر الجيران القدامـــى لقـــضاء ســـهرة من سهراتهم القديمة مع أبوزيد الذي اشـــتاقوا إلـــي حكاياته ومداعباته، وبينما كان الأطفال يملأون الـــشارع ضجيجاً بأغاني العاشوراء، عيشورة عيشورتي، كان بعـــض الرجال يلتفون حول أبوزيد وقد جلسوا فرحين بقدومه ومستغربين عودته المفاجئة، كانوا يتطلعون إلى معرفة ما جرى لـــه منذ فارق الشارع، ولم يمهلهم أبوزيد فقد أخذ يقص عليهم كـــل ما مر به منذ انتقل للسكن بعيداً عنهم لم يترك كبيرة ولا صـــغيرة فقد تحدث بصراحته المعهودة وطريقته المرحة التي تـــشد الـــسامعين إلـــيه، وطالت الجلسة وتشعب الحديث وأخذ الحاضرون يذكرون أيام الجوار الماضية وتوالت الذكريات وهم

يستعرضون أسماء الجيران القدامى الذين غادروا الشارع أحياء وأمواتاً، وتطرق بهم الحديث إلى الرجل الذي كان أكبر السكان سناً وأرجحهم عقلاً مصباح الوراق والذي انتقل للإقامة في حي (البــركة) مــنذ عــدة ســنوات واستفسر البعض عن أحواله وعــرفوا أنه لازال حياً يرزق، وأن ابنته الكبيرة قد عادت من المــرج بعــد وفاة زوجها، وما كاد أبوزيد يسمع أن ابنة الحاج مــصباح قــد أصــبحت طلــيقة حتى اعتدل في جلسته وألقى بالمضغة بعيداً ليسأل عن حالة تلك الأرملة بلهفة ..

- هي سليمة روحت لهلها؟ امتى روحت ؟

- أيوه روحت لها مدة وقالوا يب-ي ياخدها العبد ..

وانــتفض أبــوزيد كمــن لدغــته حــية وسأل اقدوره العربدجي:

- صحيح هالخبر يا اقدوره امنين اسمعته ؟

- العــبد هــو اللــي قــال لي يب-ي يمشي يخطبها، حتى الجيران عارفين !

وبينما انهمك الجيران في الحديث ظل أبوزيد يتذكر تلك الــشابة الجميلة التي كانوا يطلقون عليها اسم نوارة الشارع،

والتـــي اختطفها إبراهيم الدباغ من بين شبان الحي الذي كان محظوظاً لأنه ظفر بها، وكانت ليالي عرسها من أجمل الليالي التـــي شهدها شارع الجهاني، تذكر أبوزيد زواج سليمة الذي مــضت عليه سنوات طويلة وانبثقت في ذهنه فكرة، لماذا لا يسعى إلى طلب يد سليمة؟ فقد أصبحت الآن حرة وفي إمكانه أن يقــصد والـــدها قبل أن يسبقه أحد إليها، وما كاد الجيران ينـــصرفون وهـــم يودعونه ويتمنون له الاستقرار والبقاء في جـــوارهم حتـــى اســـتبقى جاره اقدوره العربدجي وحدثه عن رغبته في الزواج وطلب منه إحضار (العربية) في يوم الغد لنقله إلى البركة وسأله :

- تعرف حوش الحاج مصباح يا أقدوره ؟

- أببْ، نعرفه مش أنا اللي شلتهم للبركة بعد حولوا .

- خلاص، أماله بكره اتشيلني للحاج مصباح نبي ناخذ سليمة.

- ما هو يبي ياخدها العبد، مش قلت لك !

- لا العبد ولا الهايك وراسك ما ياخدها واحد وهالشنب حي، اماله بوزيد يلعب ؟!

قال أبوزيد هذه الكلمات وهو يمسح شواربه الطويلة بيده...

***

في مساء اليوم التالي كان شارع البركة الطويل يكاد يكون شبه خالٍ من المارة في تلك الفترة من بداية الليل، حيث لا تمر منه سوى بعض السيارات التي تعبر الاتجاهين وبعض راكبي الدراجات، كانت أعمدة الكهرباء المنتصبة وسط الشارع وعلى طول الطريق قد بدأت تنشر أضواءها، وفي ذلك الجو الهادي كانت سنابك الحصان الذي يجر (العربية) يبدد الصمت الذي ران على الشارع وهي تضرب الإسفلت اللامع تحت الأضواء ضربات رتيبة ارتاح لها أبوزيد الزايط الذي كان يجلس إلى جوار اقدوره العربدجي في مقدمة العربية وقد بدت عليه علامات الزهو وهو يرتدي (الجرد) الأبيض و(كاط الملف) الأزرق الذي تتدلى من صديريته سلسلة فضية متصلة بساعة (الروسكوبف) التي يحملها في جيبه، وعلى وقع حوافر الحصان التي يتمايل معها اقدوره مد أبوزيد يده إلى طاقيته الحمراء وأمالها حتى وصلت حاجبيه وقال ..

- انت صوتك سمح يا اقدوره غني لنا شي غناوة علم ..

ومـــد اقدوره يده إلى (الخرج) المعلق بجانب العربية فأخرج منه زجاجة (عراقي) وامتص منها جرعة ثم أعادها إلى مكانها ومسح فمه بيده وقال :

- ايش تبي انغني لك يا ازويده ؟

- قول (تاعب اريد الصوب العقل يا علم، راس حاجته)

وســـرعان مـــا انطلق صوت اقدوره الرقيق يردد تلك الأغنـــية في نغمات جميلة منسجمة مع دقات سنابك الحصان التـــي تـــدق على الطريق دقات منتظمة جعلت أبوزيد يتمايل طرباً في ذلك الجو الخريفي البارد ..

***

اليوم المشهود

كان يوماً مشهوداً في حياة المدينة، ذلك اليوم الذي أشرقت فيه الشمس لأول مرة على مجمع المباني الكبير الذي عرف لعدة سنوات باسم (كازيرما توريللّي)، كان المشهد جديداً، فهناك شيء غير مألوف كان يجري في الساحة بين المباني، لقد طرأ تحول على تاريخ ذلك المجمع غير مجرى الحياة فيه، فمنذ الصباح الباكر اكتظّت ساحته الرحيبة بمجموع المواطنين الذين جاءوا لمشاهدة أحداث يوم جديد، كانت أصوات التلاميذ تحدث ضجيجاً عالياً وهم يرددون الأناشيد الوطنية، وكان هذا الضجيج يطغى أحياناً على كلمة الافتتاح التي كان يلقيها ناظر المدرسة في تلك المناسبة السعيدة، فيتوقف بين حين وآخر يفسح لهم الجو لإطلاق العنان لحناجرهم فترتفع أصواتهم تدوي في الآفاق، كانت تلك الكلمة تلقى بمناسبة بداية أول يوم في العام الدراسي، لأول مرة في هذا المكان الذي كان معسكراً لجنود الأعداء يشغل مساحة كبيرة من الأرض المجاورة لشاطئ اخريبيش، وبه ثلاثة صفوف من المباني ذات الطابقين متعددة

المـــداخل والـــنوافذ المستطيلة والتي تكون مثلثاً تتوسطه ساحة واسعة معبدة بالإسفلت .

لقـــد جـــاء فـــي كلمـــة الـــسيد الناظر التي كانت تغالب الضوضاء : أن هذا الصرح القديم قد تمَّ تشييده ليكون معسكراً لجـــنود العـــدو الوافدين من مختلف مقاطعات إيطاليا لمواصلة الحـــرب ضـــد شعبنا وترسيخ الاحتلال لبلادنا، وشاء القدر أن يصبح هذا الصرح مدرسة يتعلم فيها أبناؤنا ما حرم منه الآباء الذين حالت سلطات الاحتلال الإيطالي دون تمكينهم من التعليم، ووســـط تلـــك الـــساحة الفـــسيحة التي امتلأت طولاً وعرضاً بالمواطنـــين وتتـــصاعد في جوها الأناشيد وتتردد بين جنباتها الهـــتافات، وســـط كـــل ذلك الهدير كان سي عبدالرسول يقف مـــشدوها أمـــام ما يراه، فجميع ما يجري أمام عينيه أقرب إلى الحلـــم مـــنه إلى الواقع، أين كل هذه المظاهر من أيام الماضي الـــذي بـــدأت صوره تجري في ذهنه كأنها شريط من الأفلام التاريخية؟ كيف انتهت تلك الأيام التي شهدتها هذه الساحة على مدى سنوات عديدة عندما كانت تعج بعساكر الطليان الذين كانوا يملـــؤونها صخباً؟ لطالما دوّت في أرجائها أصداء الألحان التي كانـــت تعزفها الفرقة الموسيقية بقيادة المارشال سلفاتوري، ذلك

الرجل الذي كان مهووساً بالحركات الإيقاعية التي لم يغفل عنها حتى وهو يعبر الشارع، فكان يشير بيديه كأنه أمام فرقته، وكان الصبيان يقلدون حركاته دون أن يلتفت إليهم أو يعيرهم اهتماماً، ولطالما هدرت ضربات أقدام العساكر على الأرض في أوقات الاستعداد للعروض العسكرية، أين كل ذلك الصخب الذي كان يحدثه الجنود وهم يملؤون الجو غناءً وصفيراً؟ إذ كانوا يقفون وراء الشبابيك الحديدية المحاطة بالنوافذ ويتبادلون العبارات المخلة بالآداب مع الصبيان الذين يلعبون في الشارع، كان الصبيان قد حفظوا عن ظهر قلب كل النكات البذيئة التي تعلموها منهم وظلوا يرددونها على مسامعهم كل مساء عندما يطلون من النوافذ .

كانت الحياة تسير على هذا المنوال عندما كان سي عبدالرسول يعمل نادلاً في حانوت ذلك المعسكر حتى قامت الحرب العالمية الثانية وسط دعاية مكثفة تبثها أجهزة الدعاية الفاشستية التي كانت تبشر بالنصر الأكيد على بريطانيا العظمى، واتضح فشلها بعد فترة قصيرة من نشوب الحرب، ولم تعد تنطلي على الرأي العام في إيطاليا التي ضللته بعض الوقت باختلاق الأكاذيب، إذ سرعان ما ظهرت الحقيقة وبطلت

الدعايات الزائفة، فقد انتهت تلك الحرب الطاحنة بهزيمة إيطاليا وخروجها مدحورة من بلادنا، هكذا ظل سي عبدالرسول يعيش مع صور الماضي المحفورة في ذاكرته حتى انتهت مراسم ذلك المهـرجان الوطني الكبير، وأخذ التلاميذ يتجهون إلى فصولهم وهـم يـسيرون بخطوات ثابتة فوق الأرض التي طالما دنستها أقدام عساكر الطليان، التي أصبحت تشهد لأول مرة طوابيرهم وتهتز لوقع أقدامهم .

***

وفي مساء اليوم التالي كانت إدارة المدرسة الجديدة تشهد اجتماعاً دعا إليه السيد الناظر لمناقشة الاستعدادات والإمكانيات المتوفـرة لـسير التعلـيم وتوزيع الحصص حسب ما جاء في الجـداول التي أعدتها لجنة من المدرسين، كان الذين حضروا ذلـك الاجـتماع خليطاً من المدرسين القدماء ومن بينهم السيد الناظر إلى جانب المدرسين الشبان الذين يباشرون العمل لأول مرة، وأثناء المناقشات التي استمرت عدة ساعات وسط ضباب مـن الـدخان الذي ينطلق من الأفواه والأنوف ورشفات الشاي التـي تصدر عن تلمظ الشفاه استحساناً لمذاقه الطيب، استرعى انتباه الحاضرين سي عبدالرسول الذي كان يوزع عليهم أكواب

الشاي وهو يتنقل بينهم، وقد أحدثت خطواته على البلاط صوتاً عالياً، إذ كان ينتعل حذاءً عسكرياً ثبتت في أسفله مجموعة من المسامير ذوات الرؤوس المسطحة كان سي عبدالرسول متوسط القامـــة يـــرتدي بذلـــة كاكي صفراء تبدو غريبة الموديل لدى المدرســين الــشبان لأنها مكوّنة من جاكيت فضفاض به أربعة جيوب واسعة يتوسطها حزام من نفس القماش وبنطلون طويل بـــه آثـــار المكوى، كانت هذه البذلة تُسمى (سهاريانا) انتشر لباسها قبل الحرب العالمية الثانية وكانت منسجمة مع (الشنه) الحمـــراء التي تغطي رأسه وتبرز من تحت حافتها (معرقه) بيضاء تتوارى وراءها خصلات الشيب القليلة التي تتخلل شعره الأسود كان وجهه المستدير تزينه عينان واسعتان وأنف طويل وفـــم باســـم يعلوه شارب قصير مشذب على طريقة (شارلي شـــابلن)، وكان يتمتع بخفة الحركة وسرعة البديهة وقد أذهل المدرسين وهو يجيب على أسئلتهم بأحاديثه التي تتخللها الأمثلة الشعبية ذات المعاني المتعددة .

***

لقد أشاع سي عبدالرسول جواً من المرح بين الحاضرين أنـــساهم مـــرور الوقت ودفعهم إلى الطلب منه أن يحدثهم بما

يعرف عن زمن الطليان، كما جعل حضرة الناظر يستفسر منه عن عمله السابق :

- وين كنت تخدم يا سي عبدالرسول ؟

- كنت نخدم في هالكازايرما ما شاب راسي إلاَّ فيها .

- كنت عسكري مع الطليان ؟

- لا والله كنت نخدم في (السباتشو) حرفة (كماريري).

ومـــا كاد المدرسون الشبان يسمعون هذه الكلمات الغريبة حتى انفجروا بالضحك وهم يتساءلون عن معناها الذي ما لبث الناظر الذي يجيد اللغة الإيطالية أن شرحه لهم قائلاً :

- معنـــى الكلمـــة الأولى الثكنة والكلمة الثانية الحانوت، أما معنى الكلمة الثالثة فهو النادل.

ولما علم المدرسون الشبان أن سي عبدالرسول كان يعمل نادلاً في الحانوت العسكري بهذه الثكنة رغبوا في معرفة المزيد عما كان يجري من أحداث خلال أيام الاحتلال الإيطالي، ووجد سي عبدالرسول فرصة للحديث عن هموم الماضي، فسكت قليلاً كأنـــه يبحث في ذاكرته عن حادثة تاريخية لها صدى في نفسه، ولم يلبث أن عثر بين تراكم الذكريات في ذهنه عن حادثة طالما

أرَّقـــته ذكـــراها كلما طغت على سطح الذاكرة التي توارت في أغوارها، فتنحنح وبدأ الكلام :

فـــي صـــبيحة أحـــد أيام الآحاد كانت مراسم رفع العلم الإيطالي تجري أمام واجهة هذه الثكنة وقد وقف طابور الشرف أمام مدخلها يؤدي التحية بالبنادق بينما البوق يرسل أنغام السلام الملكي وأحد الضباط يرفع العلم بحركة بطيئة منسجمة مع تواتر تلك الأنغام، وكان كل من تصادف وجوده في الشارع واقفاً تلك اللحظـــة احتراماً لرفع العلم، وأثناء ذلك مرَّ أحد المواطنين ولم ينتبه لما كان يجري في ذلك الحشد من الناس والعسكر، ومضى فـــي طريقه دون أن يتوقف، غير أنه ما كاد يراه أحد الضباط حتى جرى خلفه وهو يصيح مطالباً إياه بالوقوف، وحينما التفت الـــرجل مذهـــولاً بإدارة ذلك الضابط بصفعتين على وجهه ثم انهال عليه ركلاً (بالقنبالي) حتى سقط على الأرض يتألم من شدة الضربات التي انهالت عليه بصورة مباغتة دون أن يعرف ســـببها، ولما سأله الضابط عن السبب الذي دعاه لعدم الوقوف احتـــراماً لعلـــم إيطاليا المجيد، ولما لم يفهم الرجل ما يُراد منه اســـتدعاني الـــضابط لأتولى الترجمة بينه وبين المجني عليه، واتضح من إجابة الأخير أنه ليس من سكان المدينة ولا يعرف

شـــيئاً عن هذه الأمور الغريبة التي لم يسبق له مشاهدتها، وعند ذلك طلب مني إنذاره بعدم تكرار تلك الفعلة الشنيعة، وما كدت أبلـــغ ذلـــك الرجل بما قاله الضابط حتى التفت هذا الأخير إليَّ وقـــال وهـــو يشير إلى الرجل الذي لازال قابعاً على الأرض يمسح آثار الدموع السائلة على وجنتيه :

– دعه يذهب بعيداً لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى في هذا المكان !

وقـــام الرجل ومشى بخطى بطيئة وهو يتحسس موضع الصفعات على وجهه والضابط يراقبه وهو يجر رجليه في تثاقل حتى غاب عن ناظريه، وعند ذلك قال بلهجة تقطر حقداً:

– لازال أمامنا وقت طويل لتأديب هذا الشعب الجاهل ..

وأردف سي عبدالرسول :

– هـــذه حادثـــة واحدة من جملة أحداث كثيرة جرت على تراب بلادنا التي شهدت مآسي مؤلمة لا أراكم الله مثلها يا أبنائي.

❋❋❋

وتبادل المدرسون الشبان نظرات الاستغراب، فقد تركت

هـــذه الحكايـــة آثـــاراً سيئة في نفوسهم بعد أن رواها لهم سي عبدالرســـول، الـــذي بدت على ملامحه آثار حزن دفين، ولما كانـــت هذه الواقعة تمثل حلقة من تاريخ الاستعمار الغاشم الذي ذهـــب إلـــى غير رجعة، فقد دفعت المدرسين الشبان إلى طلب المـــزيد من المعلومات عن الاسم الذي أطلقه الطليان على هذه الثكـــنة، ولمـــا كـــان ناظر المدرسة أحد الذين عاصروا عهد الاحتلال فقد حدثهم عن حقيقة ذلك الاسم الذي يريدون معرفته، وقـــد تهلـــل وجهـــه وسرّه حرصهم على معرفة وقائع التاريخ الوطنـــي، فطلـــب مـــن سي عبدالرسول إعداد دور (شاهي) إضافي ثم نزع نظارته وأشعل لفافة من نوع (كريفين) وأخذ ينفث دخانها نحو النافذة المشرعة على ساحة الثكنة ويتطلع إلى المدرسين الذين ران عليهم الصمت، وقال :

في سنة ألف وتسعمائة وثلاثة عشر، وذات صباح تدثرت فـــيه الـــسماء بـــرداء من الغيم الرمادي الكثيف، أعدت القيادة الإيطالية حملة تمَّ اختيار عناصرها بعناية من بين أفواج الفيلق الـــرابع الـــتابع للواء الثاني الخاص، وأسندت قيادتها إلى أكبر الجنـــرالات رتـــبة وذلك للهجوم على تجمعات المجاهدين في مـــنطقة (تاكـــنس) الجبلية في محاولة للقضاء عليها وتوجيه

ضربة قوية للمقاومة الوطنية الصامدة، غير أنه ما كادت تصل هـذه الحملـة إلى مشارف الجبل حتى تعرضت لهجوم عنيف ومباغت شنـه المجاهدون على مقدمتها فانهار خطها الأمامي وتفـرق جـنودها يلوذون بالفرار في سفوح الجبل، وشعر قائد الحملة باحتمال حدوث هزيمة منكرة تحيق بقواته، فأراد أن ينقذ الموقـف الحـرج، ويتلافى ما قد يزعزع تماسكها فتحرك من فوره للحاق بالفلول الهاربة لإعادتها إلى مواقعها الأمامية إلاَّ أنه ما كاد يمضي خطوات قليلة حتى شعر برصاص رجال القناصة مـن المجاهدين ينهال عليه في هجوم لم يحسب له حساب، كان أولـئك الـرجال مـسلحين ببـنادق (الموزر) و(المارتين) وغيـرهما مـن البنادق التي غنموها من القوات الإيطالية في المعارك السابقة، لقد كان لهذه المفاجأة أثرها الرهيب في قلوب عساكر الطليان الذين أذهلتهم ضراوة المعركة وأحدثت بلبلة في صـفوفهم وزاد من شدة تأثرهم مقتل قائدهم الذي سقط صريعاً علـى أيدي المجاهدين الأشداء، ولم يكن ذلك القائد الكبير الذي لقي حتفه في تلك المعركة الخاطفة يوم السادس عشر من شهر سـبتمبر سنة 1913 إلاَّ (الجنرال) المدعو (توريلّلي ألفونسو) الـذي حضر من بلاده مزهواً برتبته العسكرية ومزوّداً بعقيدة اسـتعمارية ليلقـى نهايته في سفوح الجبل الأخضر بعيداً عن

وطـــنه، ويطلقون اسمه على هذه القلعة التي كانت تبث الرعب فـــي نفـــوس المواطنين ثم أصبحت الآن مدرسة وطنية تعرف باســـم (مدرســـة النهضة الابتدائية)، والتي ستكون منارة إلى جانب المدارس الأخرى لنشر التعليم الذي طالما حالت سلطات الاحتلال الاستعماري دون انتشاره .

***

لعبة الكراسي

لم يشهد شارع بن غشير مثيلاً لتلك الليلة التي أعلنت فيها نتائج الانتخابات التشريعية التي جرت لانتخاب أعضاء المجلس التـشريعي والتي فاز فيها مرشح الدائرة الانتخابية السايح ابن الـشيخ جـاب الله ذلك العجوز الذي عُرف بالصلاح والتقوى، كانـت المصابيح التي تتدلى من واجهات البيوت تملأ الشارع نـوراً وكـان بيت الشيخ جاب الله مفتوحاً على مصراعيه إلى جانـب بيوت الجيران التي ظلت هي الأخرى مفتوحة لاستقبال أفـواج المهنئـين مـن سكان المحلة الذين يتوافدون على ذلك الـشارع للتهنئة وحضور مأدبة العشاء التي ساهم في إعدادها الجيـران ابـتهاجاً بـنجاح ابن جارهم فذبحوا الخراف وأعدوا الطعـام المكـوّن من الأرز واللحم اللذين يتصدران كل مناسبة سواء أكانت فرحاً أو مأتماً كما جرت العادة في المدينة، وبينما كـان المهنـئون يلتهمون الطعام الذي تفوح منه رائحة السمن الوطني، كان أولاد الجيران يعدون الشاي الأخضر على مواقد الفحـم التـي تفور فوقها (السخاخين) الكبيرة وأمام كل واحد

مـــنهم صفرة خشبية مستديرة عليها صفوف من كبايات الشاي الزجاجية وإلى جانبها أواني السكر والشاي والنعناع ...

كان أكثر المواطنين اهتماماً بمسار الانتخابات ومعاركها ونتائجها في كل موسم انتخابي هما محمد موسى صاحب محل القرطاسية وصديقه الحميم خليل بوجعفر المدرس المتقاعد، وقد حـــضرا تلك الليلة لتهنئة الشيخ جاب الله بفوز ابنه الذي ساهما فـــي الدعايـــة له ومؤازرته خلال أيام التصويت، وقد استبشرا خيـــراً بنجاحه باعتباره من شباب الحي الذي يعول عليه لخدمة الـــبلاد بعد سماع خطابه الذي حدد برنامج عمله المليء بوعود تـــتعلق بتحقيق مطالب المواطنين، وتحدث الصديقان مع الشيخ جاب الله والحاضرين عن نقص الخدمات والبطالة والإصلاحات المطلـــوبة فـــي جمـــيع المرافق وتمنى الجميع أن يوفق النائب الجديد في أداء مهمته التي أُوكل إليه القيام بها، والتي عجز من ســـبقه من النواب التقليديين الذين انتخبوا على أساس عشائري عن تحقيقها ..

تـــوالت الأيـــام ومـــرت الـــشهور واحداً تلو الآخر وظل المواطـــنون يتـــرقبون بفـــارغ الصبر الإصلاحات التي وعد بها الـــسايح ابـــن جـــاب الله الـــذي صوتوا لصالحه وأيدوه بكل ما

اســتطاعوا مـــن جهد ودعم، وطال انتظارهم ولم تظهر أية بادرة تدل على اهتمامه بما وعد به من خدمات، فلم يتم رصف الشوارع المتــربة وتجديــد شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي ولم يُعيـن أحد من العاطلين عن العمل، بل لم يسمع أحد صوت ذلك النائب يدوي تحت قبة المجلس التشريعي كما كان يقال عن النواب من دعاة الإصلاح في تلك الأيام ..

وكانــت الصدمة قاسية عندما اكتشف كل من يتابع سيرة ذلك النائب منذ دخوله المجلس التشريعي أنه جمع ثروة فتزوج وأقام حفلات دعا إليها بعض المسؤولين في السلطة كما اشترى سيارة جديدة من نوع (أوستين) واستبدل زيه الوطني بملابس أوروبية وظل يمضي في الشارع رافعاً هامته وكلما مدّ له أحد يــده لمصافحته اكتفى بأن يضرب اليد الممدودة له بالحلقة التي تحمل مفاتيح السيارة والتي يعبث بها بين يديه دون خجل، كان لا يفــارق الــسيارة طول النهار وهو يقتحم بها شارع السوق الضيق ويزاحم عربات الحمالين الذين يلجأون إلى نقل عرباتهم من جهة إلى أخرى حتى يفسحوا له الطريق وهم ساخطون على تصرفاته الرعناء .

كان حضرة النائب المحترم السايح يأتي إلى السوق يجلس

في محل التاجر المعروف باسم (الجغل) الذي أثرى بعد عمله في مخازن المعدات التابعة للجيش البريطاني بمنطقة الفويهات، والـــذي برع في عمليات الغش والتلاعب بالأسعار، لقد ارتبط الـــنائب بعلاقة قوية مع ذلك الرجل الذي احترف التجارة دون ســـابق معرفة بها وقوي نفوذه في السوق بسبب ثروته الكبيرة، ولما كان الجغل يأمل دائماً في الفوز بالعطاءات التي تعلن عنها الـــسلطات الحكومـــية بـــشأن تزويد مؤسساتها بالمواد الغذائية وغيـــرها من السلع الاستهلاكية فقد وجد في هذا النائب الشاب خيـــر عون له على تحقيق أطماعه، وتـــمّ الاتفاق بين الاثنين على أن يتولى السايح مساعدة الجغل في الفوز بالعطاءات التي تعلـــن عنها الدوائر الحكومية عن طريق اتصالاته بالمسؤولين وتقـــديم الرشاوى التي يتقاسمها الموظفون فيما بينهم، وبموجب الخـــدمات التي قدمها السايح للجغل نظير عمولة يتقاضاها عن كـــل صفقة واستطاع السايح أن يفوز ببعض العطاءات لتزويد المستشفيات والمدارس الداخلية وغيرها من المؤسسات الرسمية بالمـــواد الغذائـــية واللحوم والخضروات وغير ذلك من المواد والسلع التي يقوم بمضاعفة أسعارها رغم قلة جودتها .

انـــتهت الـــدورة الأخيـــرة لجلـــسات المجلس التشريعي

وبانتهائها صدر مرسوم بحل المجلس وإجراء انتخابات جديدة، وبذلك خرج النواب المحترمون متأسفين على زوال تلك اللعبة الدستورية التي فتحت لهم أبواب الدوائر الحكومية لقضاء مصالحهم ومكنتهم من الإثراء بأسهل الطرق ثم حرمتهم من الامتيازات التي تمتعوا بها طيلة الفترة التي قضوها في النيابة، وخرجت إحدى الصحف الحكومية بمقال تشيد فيه بما حققه المجلس التشريعي من إنجازات بفضل التعاون بين السلطتين التشريعية والتنفيذية !!

كان الصديقان محمد وخليل يجلسان أمام محل القرطاسية وهما يتصفحان جريدة (البلاد) لمتابعة ما يستجد في عملية الانتخابات المزمع إجراؤها عندما لاحظا سيارة أوستن تقف بجوار الرصيف المقابل وعرفا أنها سيارة النائب السابق إلا أن الذي نزل منها لم يكن صاحبها السايح وإنما كان المدعو شعبان الهرش ذلك الرجل الأبيض البدين الذي لا يظهر إلا في مواسم الانتخابات لتقديم خدماته للمرشحين، وبعد أن أطلق عليهما السلام وجذب كرسياً وجلس عليه قبالتهما وهو يمسح حبات عرق سالت على شدقيه في تلك القيلولة، وما إن استرد أنفاسه حتى شرع في الحديث عن الانتخابات

الماضـــية ومـــا حدث فيها من تزوير بسبب تدخلات السلطة لحرمان المواطنين الصالحين من الفوز فيها وتمكين المقربين إلـــيها مـــن دخـــول المجلـــس التشريعي، ولم ينسَ أن يذكر للصديقين أنه عاصر عملية الانتخابات منذ بدأت الحياة النيابية في البلاد، وأنه ساند بعض المرشحين الوطنيين، ورغم أنه لم يذكـــر لهما صراحة أنه جاء إليهما لعقد صفقة معهما إلا أنهما ارتابـــا في كلامه وظلا ينتظران ما يفصح عنه حتى يعرفان لحساب من يعمل هذه المرة، ولاحظ هو أنهما لا يعيران كلامه أي اهتمام فسارع إلى القول :

– أنـــا قاصدكم وحال الغاية اتساعدونا في التصويت للمرشح الوطني .

– منو هذا المرشح الوطني اللي اتقول عليه ؟

– ماهـــوش غريب عليكم، هو السايح ولد جاب الله جاركم يا سي خليل .

– انت تعرف السايح من قبل يا سي شعبان ؟

– لا والله كان اتريد الحق انا مانعرفاش يا سي محمد .

– اماله كيف اتزكي في راجل عمرك ما عرفته ؟

ـ انا سمعت الجغل يقول السايح راجل وطني لابد انساعدوه .

ـ نحنا ما عندناش شك في وطنية السايح وصاحبه الجغل !!!

قال ذلك الأستاذ خليل وهو يغمز صديقه محمد الذي كان يـــداري ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه، بينما طأطأ شعبان رأسه، لقد أدرك الصديقان أن هذا السمسار يعمل لحساب الجغل الـــذي لـــه مصلحة في نجاح السايح، ولهذا سارعا إلى انتهاء الحديث معه فقالا له :

ـ خلينا انشوف المرشحين الآخرين قبل، وبعدين ساهل ..

ولـــم ترق هذه الإجابة لشعبان الهرش فقام من مكانه دون أن ينبس بكلمة واحدة واتجه نحو السيارة القابعة بجوار الرصيف .

❋❋❋

بـــدأت حملة الانتخابات وظهرت أسماء المرشحين في جميع المدن والقرى والواحات وتوالت قوافل السيارات تتحرك علـــى جميع الطرق وفي جميع الاتجاهات وهي محملة بالشياه وأكـــياس الأرز وبراســـيم التمر والسكر والشاهي والملابس الوطنية المختلفة مثل جرود الصوف وأردية النساء وغير ذلك من الأدوات .

وبعد هذه الاستعدادات التي أظهرها المرشحون في تقديم الرشاوى إلى سكان المناطق النائية لكسب تأييدهم بالتصويت إلى جانبهم في المعركة التي يتنافسون فيها للفوز بمقاعد المجلس التشريعي تلى ذلك قيام المهرجانات في جميع الدوائر الانتخابية وبدأت الخطابات الجوفاء تملأ الساحات وأخذت السيارات تجوب الشوارع وهي تحمل صور المرشحين وترسل أصوات أبواقها التي تختلط بهتافات المنتفعين من هذه الحملة الصاخبة ..

كان مرشحو الدائرة الثانية ثلاثة هم السايح ولد جاب الله والمدرس سالم محمود ومخزوم بن الشارف، الأول معروف لدى الناخبين أما الثاني فقد قال عنه المدرس بوجعفر إنه من المدرسين ذوي السمعة الطيبة في محيط التعليم، والثالث لم يعرف عنه سوى أنه موظف بسيط يعمل في إحدى الشركات وأنه من المترددين على المساجد وهذه شهادة له بالصلاح كما يعتقد الناس، ولم يظهر في الساحة مرشح يعول عليه كما يريد الصديقان محمد موسى وخليل بوجعفر، إذ لم يكن بين المرشحين الجديدين من سبق له الترشيح في الحملات الانتخابية الماضية أو من يجيد الخطابة حتى يمكنه استمالة الناخبين

وتــسهيل مهمتهما في خوض المعركة ومع ذلك استقر رأيهما على هدف واحد هو العمل على إسقاط النائب السابق الذي خذل الناخبين، فإذا كانت العادة قد جرت بأن يعمل من يدير المعركة الانتخابــية على إنجاح المرشح الذي ارتضاه بسبب وطنيته أو بــسبب أمــواله فإنهما قررا العمل عكس ذلك بالسعي لإحباط جهــود المدعو السايح جاب الله وعدم تمكينه من التمتع بكرسي النــيابة مهما كان الأمر، وهذا اتجاه غير مسبوق في المعارك الانتخابــية وإن كان أضعف الإيمان كما يقال، وفي غمرة تلك الحملة الانتخابية الجديدة التي شملت جميع أنحاء المدينة تحرك شعبان الهرش وأعوانه يطوفون على الأحياء الشعبية ويقومون بشراء الأصوات وتحريض المواطنين على التصويت لابن جاب الله الــذي يقولــون عنه بأنه خير من يمثل الناخبين ويدافع عن مــصالحهم، وفــي نفس الوقت انطلق الصديقان محمد موسى وخلــيل بوجعفــر يسيران في اتجاه معاكس لرغبة النائب الذي يدعو لانتخابه الهرش المدعم بأموال الجغل، لقد أجريا اتصالات عديــدة بالأهــل والأقــارب والجيران يدعوان لعدم التصويت لمرشــح الجغــل الــذي أدار ظهره لمصالح المواطنين الذين وضــعوا ثقــتهم فــيه ونكث بوعوده لهم وأثرى على حسابهم، وخــاض الــصديقان معارك كلامية حامية مع بعض الناخبين

المدعومين بأموال الجغل واستطاعا التغلب عليهم ودحض دعايتهم بالكلمة الصادقة والحجة البالغة وهما سلاحهما الوحيد الذي يجابهان به خصماً مدعماً بطغمة من المنتفعين، وفي أحد الاجتماعات انهالت عليهما الانتقادات والأسئلة من بعض الناخبين الساخطين على عمليات التزوير التي حالت في السابق دون فوز من يثقون في إخلاصهم لخدمة المواطنين :

- من يوم بدأت الانتخابات ما القينا من يصلح لخدمة البلاد ..

- بطلنا التصويت خلاص فكونا من هالمسخرة .

- ملينا من الوعود الكاذبة والخطابات الفارغة .

ولما كان الصديقان يأملان في أن يكون أحد المرشحين الجديدين أصلح من النائب السابق فقد أخذا يحاولان إقناع المترددين بالتصويت لمن يرغبون في التصويت له من بين الاثنين دون أن يحددا من هو أصلحهما، وساد هرج في الاجتماع واختلط الكلام بين مؤيد ورافض .

- نحنا ما نعرفش من هو اللي يصلح منهم .

- تبونا نقعد انجرب في النواب لعند يوم الحشر ؟!

- دلونا على الراجل الصالح .

وإزاء هـذه الاعتراضات من بعض المواطنين لم يجد الصديقان بداً من القول بأن مهمتهما التي يقومان بها هي العمل بكل ما يمكن من جهد بالتعاون مع الجميع لسد الطريق أمام المرشح المدعم بأموال الجغل والذي أثبت عدم صلاحيته لتمثيلهم في المجلس التشريعي لابد من العمل على إسقاطه مهما كان وذلك بالتصويت لأحد المرشحين الآخرين حتى يفوز بعضوية المجلس المذكور، وفي ختام الاجتماع قال محمد موسى :

- صوتو للي يعجبكم من الاثنين المدرس والا الموظف .

ثم قال خليل بوجعفر :

- المهم ما يصوت حد للسايح ولد جاب الله، هذا هو المطلوب منكم .

***

كان يوم التصويت من أشد الأيام قلقاً في نفوس المرشحين الذين يترقبون نتائج المعركة التي خاضوها بكل ما يملكون من أساليب اللعب على العقول، وكان الناخبون قد بدأوا يتوافدون على مراكز الاقتراع للإدلاء بأصواتهم وأعضاء

اللجان الانتخابية يسجلون الأسماء ويوزعون بطاقات التصويت علـــيهم للدخــول إلى حجرات التصويت لوضع أصواتهم في صـــناديق الاقتـــراع ذات الألوان المختلفة والتي تنتظر ابتلاع البطاقات وهي قابعة في تلك الحجرات المغطاة بستائر تحجب الداخلين إليها الذين لا يعرف أحد من منهم يدلي بصوته طوعاً واختياراً ومن منهم يدلي بصوته مباعاً، واستمر الناخبون في التوافد على أماكن الاقتراع وقد شكلوا طوابير طويلة انتظاراً لأداء مهمـــتهم والإدلاء بـــشهاداتهم فـــي حـــق من ينتخبونه وارتـــضوه ممـــثلاً لهـــم في المجلس التشريعي، وكان أعوان المرشـــحين يـــتابعون حـــضور الناخبـــين ويذكرونهم بألوان الـــصناديق التي تخص مرشحيهم وبضرورة وضع البطاقات بها، وبينما كانت عملية التصويت تجرى على قدم وساق مرت عجـــوز تـــرتدي رداءً أحمر بالياً وشقت طريقها وسط ميدان البلدية المزدحم بالناخبين وهي تغني بصوت عالٍ أغنية علم: « عـــويل ما عليه ملام، عليك يا لعلم يا ولدْ »، وسارت في اتجاه البحر حتى توارت عن الأنظار وصدى صوتها يرن في أســـماع المحتشدين الذين لم يفهم أغلبهم ماذا كانت تعني بتلك الأغنية .

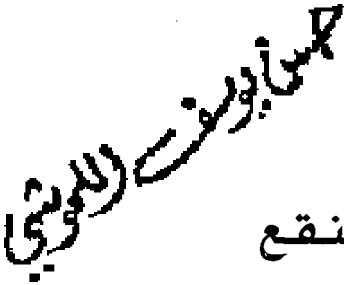
وظلــت الساعات تمر بطيئة والضوضاء تملأ أماكن التصويت حتى حانت ساعة إقفال جميع المراكز عند الغروب كمـــا كـــان محـــدداً لها، وتمّ نقل صناديق الاقتراع إلى مبنى المتـــصرفية تمهـــيداً لفـــرز الأصوات هناك، وقام كل مرشح بتوكـــيل نائـــب عنه يتوجه إلى ذلك المبنى ليقضي ليلته هناك قـــريباً مـــن الصناديق التي يحرصون على حمايتها ويخشون التلاعب فيها قبل بدء عملية الفرز المنتظرة .

❋❋❋

وفـــي صـــباح الـــيوم التالي بدأت عملية فتح الصناديق وانكـــبت لجان الفرز على حصر الأصوات، بينما كان أنصار المرشحين يتجمعون أمام مقر المتصرفية انتظاراً للنتائج التي ستسفر عنها هذه العملية التي طالما خيبت آمال المواطنين في السابق، كانت كل فئة تأمل في فوز مرشحها حتى تجني ثمرة جهـــودها، واستمرت عملية الفرز حتى الساعة الرابعة مساءً حين أعلن عن نهاية تلك العملية وتوافد الحاضرون يتزاحمون كل واحد منهم يريد الاقتراب من مدخل المتصرفية حتى يسمع النتيجة عن قرب، وظهر رئيس لجان حصر الأصوات يحمل بـــين يديـــه قوائم تحمل أسماء المرشحين الفائز منهم والساقط

حسب الأصوات التي تحصّل عليها كل منهم، وعند ذلك هدأت الأصوات وتعلقت العيون بذلك الرجل الذي يحمل القوائم التي يتطلعون إلى معرفة ما تحويه من أخبار لا يدرون كيف يكون وقعهـا على نفوسهم، وأعلنت النتائج التي كانت مفاجأة سارة للـبعض وصدمة قاسية للبعض الآخر، سارة بالنسبة لمن فاز مرشـحهم وهـم جماعـة المدرس سالم محمود وعلى رأسها الصديقان محمد موسى وخليل بوجعفر وهما اللذان قادا الحملة الانتخابـية لإنجاحه رغبة منهما في إسقاط المرشح المرتشي، وقاسية بالنسبة لمن سقط مرشحهم السايح وهم جماعة شعبان الهـرش الـذي لم يتمالك نفسه وانهارت أعصابه فحُمل إلى السيارة لتنطلق به إلى المستشفى المدني، وبينما السيارات التي تحمـل جماعة النائب الفائز أخذت تعبر شوارع المدينة وسط هـتافات الأنـصار تفـرقت جماعة المرشح الساقط وتشتت أنصاره في الشوارع يجرون أذيال الخيبة .

***



حافة المستنقع

كـــان الشتاء يلف المدينة بغطاء من الصقيع الذي يحمله شهر ديسمبر والذي تبدأ لسعاته منذ الليلة الأولى من الأربعين ليلةً التي يسمونها (الليالي) والتي يميزونها بتفاوت شدة البرد فـــيها وظهـــور السحب البيضاء والسوداء ونزول الأمطار .، وكان سي جمعة قد فرغ لتوه من أداء صلاة العشاء وأخذ يتهيأ للنوم مبكراً كعادته عندما سمع طرقات على باب البيت ونحى السجادة جانباً ووقف مشدوهاً، من يكون هذا الطارق الغريب؟ الذي يزوره في الليل خاصة في مثل هذه الليلة الممطرة التي يأوي فيها الناس إلى النوم مبكرين، ولم يدع له الطارق فرصة للتفكير إذ أعاد الطرق على الباب، وفتح سي جمعة الباب ليجد أمامه شقيقه عيسى :

- يـــا ســـاتر مـــا الـــذي دعاك للحضور في هذا الجو من (المفلوقة) (*)؟ قال جمعة ..

- جئت مع جاري خالد في سيارته الهمبر .

قال عيسى وهو ينحني للدخول من مدخل البيت الواطي، وجلـــس الأخـــوان على (الحصير) القديم المفروش في الممر الذي يفصل بين الحجرتين الصغيرتين .

- أريد منك أن تأخذ ابنك ليقيم معك، أعني في بيتك .

وفوجئ سي جمعة بهذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه من شقيقه:

- هل فعل عمر عملاً مشيناً؟ سأل جمعة في دهشة .

- كلا لم يفعل شيئاً منكراً فهو طيب الأخلاق .

- إذن لماذا تريد التخلص منه؟ سأله جمعة ..

- لم يعد في إمكاني استضافته لن أقبله في بيتي فالولد أصبح مراهقاً ولا يمكن إبقاؤه مع بناتي الشابات اعذرني يا أخي.

- لكن أنت في بيتك الكبير متسع لإسكان الولد مع ابنك .

- حتى لو كان البيت كبيراً فلا أستطيع قبول ابنك مع بناتي .

- أنـــت تعلـــم أن هـــذا البـــيت مكون من حجرتين واحدة مخصـــصة للبنتين والأخرى أنام فيها مع زوجتي وابني الصغير (علي) .

- أعرف ذلك جيداً ولكن لا حيلة لي في هذا الأمر .

قال عيسى هذه الكلمات ولم يصبر حتى يسمع رد شقيقه جمعـــة الذي وقف غاضباً وهو يسمعه يغلق باب السيارة التي تحركت تحت وابل المطر .

جلس سي جمعة في فراشه ولم يشأ إيقاظ زوجته التي كـــان شـــخيرها يملأ الحجرة الضيقة، وأخذ يفكر في فعلة شـــقيقه التي زادت في همومه وعادت به الذاكرة إلى عشر سنوات مضت وظل شريط حياته يمر بذهنه بكل ما فيه من تفاصـــيل، تذكـــر كيف تمكن من الحصول على هذا البيت الـــصغير الـــذي فـــرح به في حينه بعد عدة طلبات وعدة اتـــصالات بالمـــسؤولين في قصر (الولاية) الذين تسلّموا مقاليد السلطة المحلية من الإدارة البريطانية التي كانت تدير حكـــم البلاد، كانت سلطات الولاية في تلك الفترة قد أعدت مـــشروعاً للإســـكان الـــشعبي جندت له كل ما في جهازها الإداري من مهندسين وخبراء ومساحين من إدارة التسجيل العقـــاري، وتمّ اختيار موقع (السلماني) بناءً على توصية الخبـــراء لتـــشييد عـــدد من المساكن الشعبية، كانت قطعة الأرض المـــسطحة التـــي تـــمّ اختيارها لا تبعد كثيراً عن

المـــستنقع المعـــروف باسم المنطقة والذي تمتد حافته من طـــريق ســـيدي عبـــيد شرقاً حتى منطقة سيدي سعد غرباً المعروفة باسم (السكابلي)، وتمّ بناء البيوت الشعبية، التي هللـــت لهـــا بعض الصحف واعتبرت إقامتها خطوة تتلوها خطوات أخرى لحل مشكلة الإسكان في المدينة، وتمّ توزيع البيوت الشعبية على المواطنين الذين أمكنهم الحصول عليها بعـــد عناء ومن ضمنهم هو جمعة الشرقاوي، كانت الإقامة فـــي تلـــك البـــيوت الـــضيقة غير مريحة بسبب قربها من المستنقع الذي يتحول في الشتاء إلى بحيرة تتجمع فيها مياه الأمطار وتتسرب إلى حوضها مياه البحر التي يدفع بها المد إلى الأرض المنخفضة فتزيد في عمق تلك البحيرة التي تجد فيها النوارس مرفأً دافئاً تحط فيه رحالها وتنتشر على مدى اتساعها فتجعل منها بساطاً أبيض تزيده الشمس لمعاناً عند شروقها بعد توقف المطر، أما في فصل الصيف فيبدو الأمر مخـــتلفاً، حيث تجف المياه المالحة في الأماكن غير العميقة مخلفة وراءها طبقة كثيفة من الملح تبدو تتوهج تحت أشعة الشمس عند شروقها، وكان الشيء الذي يزيد في قلق السكان هي الروائح الكريهة التي تنبعث من جثث الحيوانات الميتة التـــي يلقـــيها سكان المناطق الأخرى في جوانب المستنقع

وتظـــل تتجمع حولها الكلاب الجائعة ويحوم حولها الذباب، إضـــافة إلى تكاثر البعوض الذي يتخذ من نبات (الديس) الذي ينمو في المياه الضحلة على حافة المستنقع مكاناً يأوي إلـــيه ويجعلـــه قواعدَ تنطلق منها أسرابه الكثيفة لمهاجمة السكان ومنعهم من السهر خارج بيوتهم هرباً من القيظ، ولم تكـــن المعانـــاة قاصرة على القلق من المستنقع، لأن هناك مشكلة تؤرق السكان وهي مشكلة الضيق الذي يعانون منه ولا يجـــدون لـــه حلاً، إذ لم تعد البيوت الشعبية الصغيرة تـــستوعب العـــائلات التي تكاثر عدد أفرادها، ولم يعد في الإمكـــان احتمال تكدس الأولاد والبنات في مساحات ضيقة وهـــم يتكومون على الأرض معاً، كانت مشكلة سي جمعة إحـــدى هذه المشكلات العويصة التي جعلته يلجأ لشقيقه كي يـــساعده فـــي إيواء ابنه عمر في بيته الواسع ليخفف عنه المعانـــاة، ولكن ها هو شقيقه يطلب منه إعادة ابنه إلى بيته الضيق ولا يدري كيف يتصرف في هذه الحالة ..

تداعت كل هذه المشاهد في ذهن سي جمعة وهو جالس علـــى سريره وتذكر كل ما مرّ به منذ أن انتقل إلى هذا البيت المـــزعج، وظل يفكر في كيفية العثور على حلٍ ولو بصورة

مؤقتة، وقفزت إلى ذهنه فكرة رأى أن فيها حلاً يلجأ إليه، وهو إيـــداع ابنه في إصلاحية الأحداث حتى تنفرج الأزمة، إلا أنه استبعد هذه الفكرة التي لا تليق به، ثم عثر على حل ارتاح له وتهللت أساريره فرحاً، لماذا لا يقيم كوخاً أمام البيت يحل به هـــذه المـــشكلة وقد يستعمله حتى لتخزين بعض الأمتعة التي تضيق بها الحجرتان .

وفـــي صـــباح اليوم التالي كان أول عمل قام به سي جمعـــة هو ذهابه إلى سوق (التركه) الذي تباع فيه الأشياء القديمة والملابس المستعملة ومن هناك اشترى بعض القطع من الخشب وبعض ألواح الصناديق الخشبية المفككة وألواح (الـــزينقو) القديمـــة والمسامير، وبمساعدة الجيران الذين هبوا لنجدته استطاع إقامة الكوخ الذي جعله ملاصقاً لجدار البـــيت والذي عمل فيه حتى ساعة متأخرة من الليل ..وما كـــادت تـــشرق شمس اليوم التالي على الكوخ حتى جاءت الجـــارات يـــباركن لعائلة سي جمعة الدار الجديدة على حد قـــولهن، لقد أُعجبن بهذا الحل الذي توصل إليه سي جمعة، وتمنت كل منهن لو يتوصل زوجها إلى حل مماثل لإراحتها من مشكلة الضيق ورفع المعاناة عنها، وفي مساء ذلك اليوم

سمع سي جمعة أصوات الجارات وهن يتشاجرن مع أزواجهن، كان الوقت يقارب المغرب، وكان جميع الأزواج قد عادوا من عملهم لتوِّهم مرهقين، وتعالت الأصوات في بيوت الجيران وطغى الضجيج ولم يتبين سي جمعة الذي خرج إلى الشارع سوى قول بعض الجارات :

- دير براكه كيف سي جمعة فكنا من الضيق ..

وأشفق سي جمعة على حالة الجيران وتمنى لو يجدوا حلاً مماثلاً لحله الذي توصل إليه ودعى لهم مادّاً يديه إلى السماء كي تعينهم على حل مشاكلهم ..

كان قد مرّ أسبوع على إقامة الكوخ حين فوجئ سي جمعة الذي كان يقوم بإعداد (الشاهي) للفطور بسيارة لوري تحمل شعار البلدية تقف أمام بيته وينزل منها ثلاثة من رجال الحرس البلدي وبعد أن ألقوا عليه التحية المعتادة وهو ينظر إليهم باستغراب بادره الأول الذي يحمل رتبة ملازم :

- لقد جئنا لإزالة هذا الكوخ بأمر من مفتش البلدية .

- ولماذا تزيلون هذا الكوخ هل ضايقكم أيها السادة ؟

- نحن جئنا إلى هنا بتكليف من المسؤولين ولدينا أمر بالإزالة .

- أليست المدينة مكتظة بالأكواخ في كل مكان؟ لماذا تريدون إزالة هذا الكوخ بالذات ؟

- صحيح المدينة مليئة بالأكواخ ولكن الأمر يختلف هنا .

- ما هو وجه الاختلاف يا ناس ؟

- لأنك أقمت الكوخ في مكان غير مسموح ببناء الأكواخ فيه .

- لماذا لا يسمح ببناء الأكواخ هنا ؟

- لأن هذا المكان يقع قريباً من مدخل المدينة وبناء الأكواخ هنا يسيء إلى سمعة بلادنا ..

قال الملازم هذه الكلمات ثم نادى على العمال الجالسين في مؤخرة السيارة، فنزل أربعة عمال اثنان منهم يحملان معدات الهدم الفأس والمطرقة الكبيرة، وتقدّم الأربعة نحو الكوخ لمباشرة مهمتهم وهنا انتبه سي جمعة إلى أن اليوم كان يوم عطلة رسمية فقال موجهاً كلامه إلى الملازم :

- هل تعملون حتى في العطلات الرسمية ؟

- نحن نعمل في حالات الطوارئ عملاً إضافياً .

- تعني أن اليوم أجره مضاعف إذا عملتم يوم عطلة رسمية ؟

- بالــضبط هــذا هــو نظــام العمل في البلدية وغيرها من المصالح .

ثــم أشـــار الضابط إلى العمال ببدء العمل وسرعان ما أخــذت ألواح الخشب تتطاير تحت ضربات الفأس والمطرقة، بيــنما سي جمعة يضرب كفاً بكف وهو ينظر إلى عملية الهدم متحسراً على مجهوده الضائع، الشيء الوحيد الذي لم يعلمه أحد مــن الجيــران هــو أن سي جمعة كان قد استدان ثمن الخشب والــزينقو مــن صـــاحب محل بيع الأخشاب بعد أن وعده بأنه سيسدد الدين عند استلام الراتب .

❋❋❋

❋ منطقة (المفلوقة) هي الشارع الذي يصل بين رأس عبيده والمدينة الرياضية محاذيــاً لمبنـــى (الـــسيلوس)، يقال إنه سُمي بذلك لأنه كان شبه وادٍ يفصل الطريق بين المدينة وضاحية البركة .

لحظات الوداع

كانت قد مضت أربع سنوات على تعيين خليل في المكتبة الإيطالية التي تقع في شارع طبرق خلف مبنى البريد الرئيسي، وقـد أصـبحت أجمل أيام حياته هي التي يقضيها بين الأرفف المحملـة بالكتب المختلفة صباحاً ومساءً وفي كل الفصول بما فـيها فـصل الـشتاء الذي يظلم فيه جو المكتبة قليلاً فتضيء زواياها المصابيح الكبيرة، كما أصبح يحفظ أسماء كبار الكتاب في العالم وعناوين مؤلفاتهم، وقد أتيحت له فرصة الاطلاع على أجمل الروايات العالمية، واكتسب خبرة في إدارة شؤون المكتبة جعلته يحظى برضا صاحب المكتبة السنيور لورينزو الذي كان معجـباً بإخلاصـه في العمل وأمانته، لقد كانت صلته بالمكتبة قديمـة مـنذ أن كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية يتردد عليها ليـشتري مجلـة الصغار التي كانت تنشر قصص (بنوكيو) صاحب الأنف الطويل المضحك، ولهذا أصبح وجهاً مألوفاً لدى رواد المكتبة من الإيطاليين والمالطيين وحتى بعض الأرمن من بقايـا الاحـتلال التركـي، كل هؤلاء قد حظي بإعجابهم لأدبه ولباقته إلى جانب إتقانه للغة الإيطالية ..

كـــان كل شيء يمضي على ما يرام، حتى كان ذات يوم طـــبع فـــي ذاكرته شعور لن ينساه، فقد أوفده صاحب المكتبة لإيـــداع شيك في (صندوق التوفير بليبيا)، وهناك ظل ينتظر طـــويلاً فقد كان الصراف يقوم بإنجاز معاملات الإيطاليين ولا يلتفت إليه، وعندما قدّم له الشيك دفعه إليه بغضب وقال له :

- أنـــت عربـــي علـــيك الانـــتظار حتى أفرغ من معاملات الإيطاليين !!

وعـــندما عاد من البنك وسأله صاحب المكتبة عن سبب تأخره وأخبره بما حدث قال له :

- لا تبالِ يا بني فأمثال هذا الصراف كثيرون وسأتصل بمدير صندوق التوفير وأحتج لديه.

كانـــت هذه الحادثة قد تركت في نفسه شعوراً بالمرارة أيقظـــه من أحلامه الوردية وسط ذلك الجو الذي اعتاد عليه في المكتـــبة وبـــين روادها، فهو لم يكن ينكر في نزعة العداء بين الطليان والعرب لأنها لم تخطر بباله، حتى ذلك اليوم الذي دخل فـــيه ذلك المبنى الشامخ المسمى (صندوق التوفير بليبيا) وهو أحد المصارف الكبرى ..

❋❋❋

في صبيحة أحد الأيام كان الصيف لايزال في بدايته وقد بـدا الجو منعشاً، وكان خليل مشغولاً بفرز مجموعة من الكتب الجديـدة المـستوردة المنتثرة على الطاولة الكبيرة أمامه عندما تناهـى إلى سمعه صوت خطوات تلمس أرضية المكتبة بحذر، كانـت تـبدو خطوات خجولة، فالتفت إلى مصدرها ليرى فتاة شـابة لـم تسبق له رؤيتها من قبل وأدرك وهو يتأمل جمالها وشـعرها الأشقر وقوامها الرشيق أنها زائرة جديدة وظنَّ أنها سـائحة من شمال أوروبا، إلاَّ أن ظنه لم يكن في محله، فما إن قال لها مرحباً كعادته عند استقبال الوافدين الجدد :

- تفضلي أيتها الآنسة فقد تشرفنا بقدومك ..

حتـى ردّت عليه بلهجة إيطالية تدل على مستوى رفيع من الثقافة :

- شكراً، هل يمكنني التجول في هذه المكتبة التي تبدو جميلة؟

- بكل سرور، هل أستطيع تقديم أي خدمة لك ؟

- شكراً، إنني أبحث عن دليل المدينة ؟

- تفضلي فهو في الرف الثاني على يمينك بهذا الممر ..

ودلفــت إلــى ذلك الممر الطويل الذي أشار إليه، كانت الأرفــف عــن اليمين وعن الشمال مزدحمة بالعديد من الكتب المختلفة، وظلّت تستعرض كل رف حتى وقع نظرها على كتاب متوسط الحجم مكتوب على غلافه الأصفر (برقة اليوم) تأليف أ. تونينيتّــي، وهــو دليل سياحي مصوّر، فأمسكت به وراحت تقلــب صــفحاته وتمعــن النظر في الصور التي تظهر معالم بنغازي إلى جانب آثار الإغريق في مدينة شحات وغير ذلك من الأماكن السياحية الأثرية، ثم قالت :

- سأشتري هذا الكتاب، فقد حدثني شقيقي عنه، فهو يعمل هنا في بنغازي .

- في أي جهة يعمل شقيقك، ومن هو؟ ربما أكون أعرفه .

فاجأها السنيور لورينزو الذي جاء مستفسراً عندما سمعها فتحدث عن شقيقها .

- استيفانو بلليني الذي يعمل في شركة الإنشاءات البحرية ..

وهنا صاح السنيور لورنزو مغتبطاً وأخذ يشد على يدها كأنه يعرفها من قبل :

- إنه لشيء رائع المهندس استيفانو صديق لنا أليس كذلك يا خليل ؟

- طبعاً فهو أيضاً من الرواد الممتازين !

- تشرفنا بقدومك أيتها الآنسة، ما اسمك ؟

- ماريا بلليني، حضرت إلى هنا لقضاء إجازتي الصيفية ..

- أعرف أن شقيقك يقيم بهوتيل فيينا في شارع درنه !

- بلى أنا أيضاً أقيم معه في ذلك الهوتيل الصغير، فهو هادئ ومريح .

- يبدو عليك أنك لازلت طالبة ؟

- فعلاً أنا طالبة بجامعة بولونيا ..

- لقد علمت من استيفانو أنكما تنحدران من مدينة بولونيا ..

- نعـــم فنحن من تلك المدينة الجميلة وبيتنا هناك، لا يقيم فيه حالياً سوى والديَّ العجوزان

- أرجو لك إقامة طيبة في بنغازي، فهي جميلة أيضاً ..

- شكراً على شعورك الطيب ..

❋❋❋

ظلت ماريا تتردد على المكتبة التي ارتاحت إلى ترحيب صـــاحبها وإلـــى جوها الهادئ الذي وفّر لها وقتاً طيباً لقضاء ساعات فراغها، إضافة إلى التعرف على روادها من الإيطاليين والمالطيـــين وبعض الأرمن، لقد كانت تتجاذب الأحاديث معهم رجـــالاً ونـــساءً وتستمع إلى آرائهم حول كل ما يطالعونه في الكـــتب المختلفة، لقد أصبحت معروفة لدى الجميع الذين بهرهم جمالهـــا، فقـــد كانت تشبه زهرة (بوقرعون) التي تفتحت في ســـهل روته سيول المياه كما يقول شاعرنا الشعبي في وصف الجمال، كما بدت تستأثر باهتمام خليل الذي كان أكثر الآخرين إعجابـــاً بهـــا والـــذي لفـــت نظرها ببراعته في التحدث باللغة الإيطالـــية خاصة عندما حدثها عن بنغازي وأهلها بكل عاداتهم الطيـــبة وتقالـــيدهم العريقة وكرمهم وطريقة حياتهم التي تتسم بالعطـــف والمـــودة فيما بينهم، كما أسرها بأسلوبه في التعبير بأجمل ما في لغتها من مفردات، ولهذا كان لحديثه الرائع أجمل الأثر في نفسها لأنه عرّفها على أشياء كثيرة كانت تجهلها عن هـــذه البلاد التي تراها لأول مرة والتي لا تعرف عنها سوى ما يتـــردد بـــين الإيطاليين في بلادها الذين يستقون معلوماتهم مما تنـــشره الصحف هناك، وهو القول الشائع بأن الليبيين قوم من الـــبدو الرحّل المتخلفين الذين يعيشون حياة بدائية، لقد استمعت

إلـــى حديث خليل بانتباه وأصغت إليه وهو يعدد محاسن بلاده قبل أن تقول في استغراب :

ـ لـــم يخطر ببالي أن أجد عربياً يتحدث اللغة الإيطالية بهذا الشكل المذهل ؟!

ـ هـــناك كثيرون من أبناء بلادي يجيدون الحديث بلغتكم، بل إن هناك من هم أكثر مني معرفة بها ..

ـ كيف تعلمتم اللغة الإيطالية بهذه المقدرة التي تثير الدهشة ؟

ـ لقـــد تعلمناها في الحدود المسموح لنا بها، أي في المدرسة الابتدائية فقط !

ـ هـــل كانت تكفي الدراسة الابتدائية لجعلكم تتحدثون بها في طلاقة ؟

ـ نحـــن لـــم نكـــتفِ بهذه الدراسة الناقصة، لقد اعتمدنا على أنفـــسنا في التحصيل العلمي بشتى الطرق وفي الاستفادة من التحاور مع الإيطاليين أنفسهم ..

ـ لقـــد جعلنـــي حديـــثك الشيق أتطلع بشوق إلى التجول في الأحياء العربية والاختلاط بالناس عن قرب، فأنا لم أشاهد

ســوى الحي الغربي الذي يسكنه الإيطاليون والذي يشبه المدن الأوروبية ..

❋❋❋

لما تغيبت ماريا عن المكتبة يومين قبل أن تطل عليها في صــباح مشرق كان غيابها قد شغل السنيور لورينزو الذي افتقد طلعتها التي تعوّد عليها، كما كان خليل أشد شوقاً لرؤيتها، ولهذا مــا إن رآها تدخل حتى تهلل وجهه وهو ينظر إليها، فقد أذهله منظرها وهي ترتدي بلوزة وتنورة من الحرير الأبيض وقد بدا شــعرها الــناعم مسترسلاً فوق كتفيها وبعض خصائله تتأرجح فوق جبينها الوضاء، وما إن أطلقت تحية الصباح حتى بادرها السنيور لورينزو متسائلاً :

– لقد افتقدناك طيلة اليومين الماضيين، أين كنت يا بنيتي ؟

– كنت أقوم بجولة في المدينة مع شقيقي استيفانو ..

– هل استمتعت بمشاهدة الأحياء الشعبية ؟

– لقــد ركبنا عربة يجرها حصان سمين وكان الحوذي الذي يــرتدي الزي المحلي يجيب على أسئلتنا التي يعرف الرد

علـــى بعضها، كان يفعل ذلك وهو يلسع الحصان بالسوط كلمـــا تباطأ في الهرولة تارة ويمسح على شاربه الطويل تارة أخرى، كان يبدو أنه شخصية ظريفة ..

ـ ألم تتجولا على رجليكما ؟

ـ بلـــى، لقــد دخلـــنا حياً قديماً لا أذكر اسمه الآن، كانت به شـــوارع واســـعة وأزقة ضيقة ذات منعطفات أشد ضيقاً وكانت البيوت والمساجد هناك مشيدة على الطريقة العربية في المعمار تضفي على المكان خصوصية ..

وتوقفت ماريا عن الحديث لحظة ونظرت إلى خليل الذي كان يتابعها باهتمام، وقالت :

ـ هل أجدت الوصف يا خليل؟ كيف ترى ذلك ؟

ـ بلى، كلامك صحيح فقد أحسنت الوصف .

وقال السنيور لورينزو ضاحكاً :

ـ يبدو أن كلامك قد أعجب خليل، هل لفت نظرك شيء آخر خلال هذه الجولة ؟

ـ لقــد لفتت نظري أشياء كثيرة سأحدثك عنها إذا تسع وقتك لسماعها ؟

- قولي سأصغي إليك فإن حديثك يبدو ممتعاً !

وعقّب خليل على قول السنيور لورينزو قائلاً :

- هـل شاهدتي سوق الظلام الذي يقصده السواح إذا جاءوا لهذه المدينة ؟

- هل تقصد ذلك السوق المسقوف الذي يشبه (الغاليريا) في بلادنا ؟

- بالضبط هذا ما يعنيه خليل بقوله.. قال السنيور لورينزو .

وسـكتت ماريا قليلاً كأنها تستجمع ما علق بذاكرتها ثم استرسلت في الكلام :

- لقـد دخلـنا السوق وشاهدنا المحلات التي تغص بالأقمشة المستوردة والمحلية والملابس الليبية المختلفة الأنواع، إلى جانـب محلات العطارين بما فيها من أنواع أدوات الزينة الـشرقية ومحـلات بـيع الـذهب، ورأينا أصحاب تلك المحـلات وهـم يجلـسون بداخلها وقد أمسك كل منهم بمروحة محلية يدعونها (النشاشه) كما علمت منهم، لقد كانوا يحركونها يميناً ويساراً ليطردوا الحر بما توفره من هواء قليل.

وقال خليل :

- كان هذا السوق يفتقد إلى التهوية، حتى الفتحات نصف المستديرة القريبة من السقف لا تكفي لترطيب الجو في أيام الصيف الحارة .

وسكت قليلاً، ثم أردف :

- أرجو أن لا أكون قد أفسدت عليك تسلسل أفكارك ؟

- كلا لم يحدث ذلك، فالمشاهدات لازالت قريبة في الذاكرة لاسيما زحام السوق وصياح الدلالين الذين يحملون على أكتافهم وفي أيديهم الحلي الذهبية والفضية وينادون عليها، هذا ما شاهدته في ذلك السوق الذي يعد من أجمل المعالم التي رأيتها في هذه المدينة .

- هل هناك المزيد من المعالم التي أثارت إعجابك؟، تساءل السنيور لورينزو ..

- أجل، بعد الخروج من ذلك السوق الشرقي انعطفنا إلى سوق آخر مجاور له به مقاهٍ ومطاعم ودكاكين لبيع اللحوم وباعة خضروات وفواكه ..

- هل صادفك شيء سبب لك ضيقاً ؟، تساءل خليل .

– كلا يا خليل، لم أجد خلال جولتي في هذه المدينة ما سبب لي ضيقاً على الإطلاق .

قالت ذلك وهي تنظر ملياً إلى خليل ذلك الشاب الوسيم الذي أذهلها بأحاديثه الممتعة وثقافته وحسن معاملته .

وقال السنيور لورينزو معقباً على حديث ماريا :

– أنا أعرف ذلك السوق الذي يسمونه (سوق الخضارة)، فقد كنت أذهب إليه لشراء الخضروات والفواكه إنه سوق شعبي نظيف .

واستطردت ماريا :

– لقد تجولت ورأيت أشياء كثيرة لم أكن لأعرف عنها شيئاً لولا مشاهدتي لها ..

– لقد أسهبت في الحديث الممتع الذي يدل على شفافية الإحساس، أليس كذلك يا خليل؟ هل سبق أن استمعت إلى حديث بهذه المتعة ؟

– كلا، نعم إن كل ما قالته ماريا يعبر عن ذوق مرهف .

– شكراً على هذا الإطراء، أنا لم أذكر سوى ما رأيته بعيني.

- وصفك يدل على موهبة مبكرة قد تصنع منك كاتبة مرموقة ذات يوم ..

- شــكراً يــا خليل على شعورك الطيب، من يدري لعل ذلك يتحقق ذات يوم ..

قالــت ذلــك في امتنانٍ وهي تتبادل النظرات مع خليل الذي ظل مأخوذاً بحديثها الممتع وكلماتها التي تتدافع في تناسق وعذوبــة، وقــد لفهمـــا صمت لم يقطعه سوى صوت السنيور لورينزو الذي قال :

- لــيس ذلــك بمستحيل فأنت طالبة بكلية الآداب التي تنبت الكتاب والشعراء، لقد قضينا سويعات كادت تنسينا موعد الغذاء، ألا تشعران بالجوع مثلي؟ إلى اللقاء في المساء..

***

كانـــت المكتـــبة مـــزدحمة بالرواد كما جرت العادة في الـــساعات الأولـــى من المساء التي يخرجون فيها للتجول في الحديقـــة العامة والجلوس في المقاهي، وكان من بين الرواد في ذلـــك المساء الذي خفت فيه حرارة الجو الآنسة ماريا وشقيقها استيفانو الذي كان منشغلاً بالحديث مع بعض الحاضرين، بينما

كانـــت هي تستعرض الكتب كعادتها، وفي أحد الرفوف عثرت علـــى كتاب مجلد له غلاف مزخرف بالصور من سلسلة كتب المشاهير من أدباء العالم وأعلام الموسيقى شدها عنوانه (أوبرا لاترافياتا)، فقلبت صفحاته ثم توجهت نحو خليل الذي كان يقف في مكانه المعتاد بين رفوف الكتب وسألته :

- هل اطلعت على هذا الكتاب الملفت للنظر ؟

- نعـــم، لقـــد قـــرأته أكثـــر من مرة إنه يحتوي على أجمل الأوبـــرات العالمية كما ترين (لاترافياتا) المأخوذة عن رواية (غادة الكاميليا) للكاتب (إسكندر دوماس الابن).

وأطـــبقت ماريـــا الكتاب ووضعته في مكانه وهي تهز رأسها في إعجاب ثم تساءلت:

- بالمناســـبة هل لديكم مسرح وطني هنا؟ أعني هل تزاولون التمثيل ؟

وفوجـــئ خلـــيل بهـــذا السؤال الذي ذكّره بالمسرحية الوطنـــية التـــي شـــارك في تمثيلها مع فرقة الهواة ولم تسمح الـــسلطات الإيطالـــية بعرضها، الأمر الذي سبّب إحباطاً لتلك الفرقة الناشئة، فقال متحسّراً :

- نحـــن لـــيس لدينا مسرح خاص بنا، بينما هناك مسرحان أولهمـــا مـــسرح (بيرينتشي) وثانيهما مسرح (الدوبو لافـــورو) الـــتابع للحزب، أما بالنسبة للتمثيل فلدينا فرقة هواة المسرح التي أنتسب إليها ..

- يبدو أنك كنت مولعاً بالتمثيل أليس كذلك ؟

ونظـــر خليل ملياً إلى وجه تلك الفتاة الجميلة التي تتسم أسئلتها بالبراءة والشفافية ثم تنهد وقال :

- بلى كنت مشغوفاً بفن التمثيل حتى صُدمت بما حدث لأول مسرحية شاركت في تمثيلها، ولم يُقدر لها أن ترى النور .

- لماذا حجبت عن العرض تلك المسرحية؟ ما هو السبب في ذلك؟

وقـــال خليل في تأثر بدا على محياه ولم يغب عن فطنة ماريا :

- الـــسبب فـــي منعها من العرض هو مضمونها الذي يجسد صـــفة حمـــيدة مـــن صـــفات العرب والذي دفع السنيور (توبنينـــي) مديـــر مسرح (الدوبو لافورو) إلى عدم الرضا عنها ورفض عرضها لأن عنوانها (الوفاء العربي) لم يرق له .

ـ ألــم يكن في إمكانكم إقناع ذلك المدير ليسمح لكم بعرض تلك المسرحية ؟

ـ لا يمكــن لأحــد أن يقنع السنيور توبنيني سكرتير الحزب الفاشستي الذي يجاهر بعدائه لنا !

ـ يبدو أنه من أشرس رموز الحزب الحاكم ! أليس كذلك ؟

ـ إضــافة إلى ذلك فهو رئيس تحرير صحيفة (برقه) التي يصدرها الحزب والتي كتب فيها مقالة عنوانها (خبزنا) طالــب فــيها بطرد الموظفين الليبيين من دوائر الحكومة رغم قلة عددهم !

ـ ماذا يقصد من هذه الدعوة السخيفة ؟

ـ الأمر واضح، فهو يرى أن الليبيين يشاركون الإيطاليين في خبزهم اليومي ولذلك يجب التخلص منهم وإحلال الطليان مكانهم .

ـ لم أكن أعرف أن الكراهية تصل إلى هذا الحد المقيت ؟!

قالت ماريا ذلك ثم أطرقت قليلاً كأنها تبحث عن المزيد من الأسئلة وأردفت :

- هـذا عن المسرح وماذا عن الصحافة؟ هل لديكم صحافة ليبية ؟

فأجابها خليل بلهجة تقطر مرارة :

- توجد لدينا صحيفة عربية واحدة تشرف عليها السلطة ولا تنشر سوى نشاط الوالي وتعليمات الإدارة في ما يتعلق بتسيير الأمور والنظام .

- وماذا عن المجالات الثقافية الأخرى ؟

- هـذا ما يثير القلق حقاً أيتها الصحفية التي تبحث عن المتاعب !!

وضحكت ماريا من وصفها بالصحفية لكثرة أسئلتها التي تدل على رغبة في المعرفة، وقالت لخليل لقد وجدت فيك معيناً على التزود بالمعلومات .

- ما يدعو للغضب أن هناك أيضاً مجلة عربية مصورة تُعنى بنشاط الدوائر الرسمية والترويج لمشاريعها، وليس بها سوى مساحة صغيرة تنشر فيها بعض القصص والأشعار العربية التي يتمكن رئيس التحرير الليبي من تمريرها

بـــصعوبة وفـــي غفلة عن عيون الرقابة التي لا تكترث أحياناً بهذا النوع من النشاط المحدود .

- هـــذا شـــيء مؤسف حقاً، ربما يسمحون لكم في المستقبل بمـــزاولة نشاطكم الثقافي من يدري لعل السلطات تتساهل معكم .

- ليـــتهم يتـــساهلون معنا بالسماح لنا باستيراد الكتب العربية الممنوعة والتي تجلبها مكتبة وطنية عن طريق التهريب.

وإلـــى هـــذا الحد توقفت ماريا عن التساؤلات التي كانت تطـــرحها على خليل وتصغي إليه في اهتمام وهو يجيب عليها بـــتدفق وعفوية حتى لا تزيد في إحراجه، فقد أحست من خلال تلـــك الإجابات أنها قد أثارت كوامن نفسه وجعلته يبوح بصدق مـــشاعره نحـــو بلاده، كما أحسَّ هو الآخر أن هذه الفتاة التي تتفجـــر حيوية وتفيض مشاعرها بالبراءة تدفعه بشفافية روحها إلـــى الاسترسال في الحديث معها دفعاً للملل وتنفيساً عن الهم، وأعقـــب ذلـــك فترة صمت لم يتخللها سوى ما كان يدور بين الرواد من أحاديث .

***

كانت آخر جولات ماريا في المدينة زيارة مصيف جليانه مـــع شقيقها استيفانو الذي أراد أن لا تفوتها زيارة ذلك الموقع الرائع، فقد قضت هناك يوماً ممتعاً تسبح في تلك المياه الشفافة التي تتوهج في أعماقها الرمال الذهبية وشاهدت المطار البحري الـــذي كانت ترسو فيه طائرة شراعية بيضاء تبدو وسط زرقة البحيرة كأنها مراكب لها جناحان تطير بهما، وقد سجلت كل ما شاهدته ذلك اليوم في كراسة الملاحظات التي سجلت فيها كل ما شـــاهدته مـــن معـــالم المدينة خلال زياراتهما للأماكن الشعبية والأســـواق العامة، وعندما حضرت مع شقيقها إلى المكتبة في المـــساء كانت تشعر بأن في جعبتها الكثير من المعلومات التي ســـتكون مدار حديثها مع خليل، وفي داخل المكتبة أخذ شقيقها يتبادل الأحاديث مع الزبائن، بينما قامت هي بإلقاء تحية المساء علـــى صـــاحب المكتـــبة، ثم اتجهت إلى حيث يوجد خليل بين رفـــوف المكتـــبة فحيـــته وشرعت تحدثه بإعجاب عن جليانه ومصيفها وبحيرتها، وبينما كانت منهمكة في الحديث لاحظت ما طرأ على ملامح خليل فجأة، فقد تجهم وجهه وغاضت ابتسامته وهـــو ينظـــر إلى مدخل المكتبة التي أطل منها في تلك اللحظة شـــاب إيطالـــي طويل القامة نحيل الجسم كان يمسح بيده على شـــعره الأشـــقر وهو يخطو داخل المكتبة في كبزياء ويتفحص

وجــوه الحاضرين، وفجأة صدرت عنه شهقة عندما وقع نظره على ماريا تلك الفتاة الجميلة التي يراها لأول مرة في المكتبة، والتـــي كانـــت واقفة بجوار خليل فلفت ذلك انتباهه، وفي نفس الوقت أشعل الغضب في صدره، كيف يجرؤ ذلك العربي الذي لا يطـــيق رؤيـــاه على التحدث مع تلك الشابة الإيطالية الجميلة التي لم تسبق له رؤيتها؟ أليس من المؤسف أن يحدث مثل هذا الأمر بين جمع من الطليان؟ وبدون خجل تقدم نحو ماريا دون معرفة بها متسائلاً :

- عفوا أيتها الآنسة هل كنت تتبادلين الحديث مع هذا العربي اللعين ؟

وجَّــه هــذا السؤال الغريب إلى ماريا وهو يشير إلى خلــيل، وظلــت هـــي صامتة، فقد فاجأها السؤال الذي لم تكن تــتوقعه مــن رجــل لا تعرفه، ولاحظ شقيقها ما بدر من ذلك الــشاب الــذي يُدعى مارشيلّو والذي كان يلتقي به أحياناً عند المجيء إلى المكتبة، فتقدم نحوه متسائلاً :

- ماذا حدث؟ ماذا تريد من شقيقتي ؟

- هل هي شقيقتك؟ كيف تسمح لها بسماع ترهات ذلك العربي الجاهل ؟!

ـ ومــاذا فــي ذلك من خطأ؟ هل هناك ما يمنع الحديث بين الناس في محل عام ؟

ـ لا يليق بالإيطاليين أن ينزلوا إلى مستوى العرب، هذا خطأ فادح .

ومــا إن أتم مارشيلّو كلمته حتى اندفع خليل نحوه وهو يلوّح بقبضة يده، ثم وقف مواجهاً له وقال متوعداً :

ـ اســمع يا مارشيلّو إذا لم تكف عن الاستهانة بي فسأضطر للــرد علــيه بما لا تتوقع، لماذا تعمد إلى استفزازي كلما حضرت إلى المكتبة ؟

ـ كيف يمكن لعربي مثلك أن يتجرّأ على تهديد إيطالي يعتبر سيده ؟!

ـ أنــا لــم أهــددك، أنا أحذرك فقط من مغبة تصرفاتك أيها الأحمق !

ـ أنت لا تستطيع عمل أي شيء، أنا الذي سأتولى تأديبك أيها الوغد .

وعــند ذلك قام خليل بدفع مارشيلّو حتى ألصقه بالحائط وكــادا يشتبكان بالأيدي لولا تدخل السنيور لورينزو الذي حال

بيـــنهما وتفــرقا وهما يتبادلان السباب والوعيد، وأخذ السنيور لورينـــزو بذراع مارشيلّو وظل يربت على كتفيه ثم اقتاده نحو مـــدخل المكتـــبة وهـــو يحاول تهدئته، بينما ظل خليل متحفزاً لملاحقته، وأيقن مارشيلّو أن خليلاً جاد في تهديده وأنه قد يلحق بـــه هـــزيمة وســـط جمع من الرواد الذين ظلوا يترقبون نهاية المعركة في صمت فخرج من المكتبة وهو يلوح بيده مهدداً :

- سأريك من أنا أيها المأفون ..

وجـــاء الـــسنيور لورينـــزو إلى خليل الذي كان لايزال ينـــتفض غضباً فأخذه من يده وانتحى به في زاوية المكتبة وهو يربت على كتفه برفق وقال له :

- لـــو كـــان مارشيلّو الأحمق يعرف قيمة التراث الحضاري الـــذي خلّفـــه أجـــدادك فـــي الأندلس ما كان يجرؤ على الاستهانة بك واستفزازك كلما حضر إلى هذه المكتبة !!

ونظـــر خليل نظرة امتنان إلى السنيور لورينزو صاحب المكتـــبة ولم يسعفه لسانه في تلك اللحظة بما يمكن أن يرد به علـــى تلك اللفتة الكريمة التي صدرت عن ذلك الإنسان المهذب الذي يتحلّى بالحكمة ..

***

عـــندما عـــاد خليل من العمل في مساء اليوم التالي وجد بـــاب المنـــزل مواربـاً، وسمع من خلال النافذة المفتوحة أناساً يتحدثون في المربوعة فساورته الظنون: من هم هؤلاء الناس؟ ومـــاذا جـــاء بهم؟ وفيما كانوا يتحدثون؟ غير أنه لم يكد يدخل حتـــى رأى والـــده الحـــاج ميلاد يتحدث مع صديقيه منصور وجبـــريل، وبيـــنما أخـــذ يسلم على صديقيه خرج والده وتركه معهمـــا، وبعـــد تبادل التحيات المعتادة أخبره منصور أن والده اســـتدعاهما وأخبـــرهما بما حصل بينه وبين الشاب الإيطالي وطلـــب منهما إقناعه بالتخلي عن علاقته بالفتاة الإيطالية مهما كـــان الأمـــر، حتى لو أدى ذلك إلى ترك العمل بالمكتبة تفادياً للصدام مع ذلك الإيطالي الذي لا يتورع عن إهانته، واستغرب خلـــيل كيف وصل الخبر إلى والده الذي لم يكن يعلم شيئاً عما حصل بينه وبين مارشيلّو لأنه لم يخبره بذلك !!

وقبل أن يسأل عمن أخبر والده سارع جبريل إلى القول:

- كان جاركم المالطي المدعو كارميلو هو الذي أخبر والدك بمـــا حـــدث بينك وبين الشاب الإيطالي لأنه كان حاضراً بالمكتبة أثناء المشادة .

وتذكر خليل أن كارميلو كان حاضراً فعلاً ولكنه لم يتوقع أن يخبـــر والـــده وأدرك أن الأمـــر لم يعد سراً فأخبر صديقيه بحقيقة ما جرى بينه وبين ماريا منذ حضورها للمكتبة، غير أن صـــديقيه بـــدا عليهما أنهما لم يقتنعا بما ردده على مسامعهما، وبادره جبريل قائلاً :

- يـــبدو مـــن كلامـــك أنك متورط في علاقة مع تلك الفتاة الإيطالية دون أن تدرك عاقبة ما أقدمت عليه !

- مـــا حـــدث بينـــي وبين تلك الفتاة الزائرة لا يعدو كونه مشاعر ارتياح كتلك التي تنشأ عادةً بين الناس من خلال توافق أفكارهم، ولا أرى في ذلك ما يدعو إلى الارتياب يا أخ جبريل !

- إن مـــا تـــسميه مشاعر ارتياح يا أخ خليل ما هو إلاَّ بداية تقـــارب لا يلبث أن يتحول إلى عاطفة يصعب التحكم في تطورها ولا يمكن معرفة نتائجها !

- لا تهـــول الأمر يا أخ جبريل أعتقد أن في إمكان خليل تفـــادي الاختلاط بتلك الفتاة مادامت المسألة لم تتطور بعد، هذا رأيي .

ـ هـل تريد مني يا أخ منصور أن أقول لتلك الفتاة أرجوك يا مريا ابتعدي عني لأن جوارك معي لا يروق للآخرين؟ هذا مستحيل !

ـ نحـن لا نـريد لـك أن تتعرض لمثل ما حصل لصديقنا رمضان حينما اكتشفت علاقته بتلك الأرملة الإيطالية التي اتفق معها على الزواج وانتهت بإهانته وطرده من العمل في متجر شقيقها وترحيلها إلى إيطاليا ..

ـ هـناك فرق بين الحالتين يا أخ جبريل ولا يمكن المقارنة بيـنهما، فالذي حصل بيني وبين ماريا هو مجرد تعارف ينتهي بنهاية إجازتها بعد أيام قليلة ..

ـ مازلت أرى أنه في إمكانك تفادي التقارب منها ومن غيرها من الإيطاليات حتى لا تتعرض لعواقب وخيمة ..

ـ وكـيف يمكن تفادي الاختلاط بها وبغيرها من الإيطاليات والابـتعاد عنهن في محل عام تقتضي طبيعة العمل به الـتحاور مع الزبائن رجالاً ونساءً ! هذا أمر مستحيل يا أخ منصور!.

وبهذا الرد الحاسم أنهى خليل حواره مع صديقيه اللذين

خـــرجا من عنده غير مقتنعين بكل ما قاله لهما رغم أنه يبدو محقـــاً فـــيما قاله عن طبيعة عمله، فهما قد شعرا بأن كلامه يوحــــي بأنــــه لا يكتـــرث بما يجري حوله ولا يقدر عواقب اســـتفزازه للإيطاليين الذين لا يتورعون عن أهانته ومعاملته بقـــسوة، كما أدركا أن جهودهما في سبيل إقناعه بالتخلي عن تلـــك العلاقـــة التـــي يعتبـــرها مجرد تعارف قد فشلت بسبب إصـــراره على التعنت، وقررا إخبار والده بما بذلاه من جهود ذهب أدراج الرياح .

***

كـــان الوقت مساءً عندما أخذ مارشيلّو طريقه إلى هوتيل فييـــنا وفـــي ذهـــنه فكـــرة تلحّ عليه وتدفعه إلى مقابلة ماريا ومصارحتها بما يعتمل في نفسه ويكدر صفوه، فهوه لم يعد في إمكانه احتمال ما يراه ولم يعد يطيق الصبر على ما يجري في تلك المكتبة أمام عيون الجميع، إنه أمر مزعج لا يمكن تصوره ولا يمكن السكوت عليه، هل بلغ الاستهتار بتلك الفتاة الإيطالية أن تنهـــره عندما يتبع خطواتها وهي تتجول بميدان البلدية في اللـــيلة الماضية، كانت منشغلة بالتفرج على واجهات المحلات التي تعرض فيها بعض الأدوات المحلية المصنوعة من الجلود

المنقوشـــة، ولم تعبأ به وهو يحاول التحدث إليها، لقد فكر فيما حــدث وقــرر بينه وبين نفسه أن يكرر المحاولة معها إذ ربما كانت لا ترغب في الحديث معه بميدان عام، وها هو يمضي في الطريق إليها .

توقــف عــند باب الهوتيل الداخلي وطرق على الزجاج علامة الاستئذان فجاءه صوت صاحبة الهوتيل من الداخل .

ـ تفضل أيها السيد، تفضل .

كانت تلك المرأة النمساوية التي تعد في الخمسينيات من عمــرها لازالت تحمل مسحة من الجمال، ونظر إليها مارشيلّو وهي تتبادل الأحاديث مع النزلاء الذين بدأوا يخرجون للتنزه في المدينة، وقال :

ـ مساء الخير يا سيدتي، هل يمكن مقابلة الآنسة ماريا بلليني؟

ـ إنها على وشك الخروج هل استدعيها لك ؟

ـ لا داعي لذلك سأنتظر ها هنا، هل يمكنني الجلوس ؟

ـ تفضل يمكنك الجلوس لانتظارها هنا

وأشارت إلى الصالون.

وجلــس ولــم يطل انتظاره فقد لاحت ماريا وهي تهبط الــدرج في رشاقة، وكانت مفاجأة غير متوقعة لها عندما رأت مارشيلّو يتطلع إليها، ثم يقفز من المقعد الوثير محيياً .

- مساء الخير آنسة ماريا .

وردّت تحيــته وهي َتتوجس خيفة من حضوره الذي أثار قلقها، غير أنها تمالكت نفسها حتى لا تتوتر أعصابها، وانتظر مارشيلّو أن تدعوه إلى الجلوس، ولكنها لم تفعل فقال:

- هل يمكنني الجلوس والتحدث معك قليلاً ؟

فدعــته إلى الجلوس فأسرع إلى ذلك متلهفاً على الحديث معهــا وجلست على مضض منتظرة ما يريد قوله وإن كانت لا تــستبعد أن يكرر على مسامعها ما سبق أن قاله لها في الميدان وهــي تتفادى الاستماع إليه، وقال في لهجة من يتوسل إلى من يخاطبه .

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك، فقد دفعني شعوري كإيطالي أن أحذرك من الاقتراب من ذلك العربي التافه الذي يعمل بالمكتبة، أنت لا تعرفين ماذا يريد منك ؟

- أنا لا أجد مبرراً في تحذيري من الاقتراب من ذلك العربي الـــذي تعنـــيه والـــذي لـــم أرَ فـــي سلوكه ما يدعو إلى الارتياب!!

- أما أنا فأرى أنه يحاول استمالتك بأحاديثه الملفقة، إنه يجيد الثرثرة .

- هـــذا غير صحيح لم أرَ في أحاديثه شيئاً مما تدّعيه فهو لا يتحدث إلاَّ في نطاق عمله مع جميع رواد المكتبة .

- يبدو من كلامك أنك معجبة جداً بذلك العربي المغرور !

- لا أســـمح لـــك بالتمادي في التدخل بما لا يعنيك، بأي حق تتكلم كأنك وصي عليّ، أنا لست طفلة يمكن التغرير بها، اغرب عن وجهي .

لقـــد تفـــوّهت بهذه العبارة محذرة إياه من مغبة تصرفاته التي صممت على وضع حدٍّ لها، ووقفت تريد الإفلات من ذلك اللقـــاء الـــصاخب، كما وقف هو الآخر غاضباً فقد أذهله ردُّها العنيف، وبينما أخذ طريقه نحو الخروج وهو يجر أذيال الخيبة.

صـــعدت ماريـــا إلـــى حجرتها حيث جلست وحيدة وقد تـــدافعت في ذهنها التساؤلات، هل يمكن أن يكون ذلك الشاب

العربي الوسيم قد استهواها؟ إنها لا تشعر نحوه سوى بالإعجاب ولا تـــرى فـــي تـــصرفه مـــا يبعث على عدم الاطمئنان إليه واستحـــضرت في ذهنها صورة خليل بأناقته وقدرته على جلب انتـــباه الـــزبائن بأسلوبه المهذب في الحديث وثقافته التي تشد الـــسامع إلـــيه، أليس من الممكن أن تكون قد وقعت تحت تأثير مشاعر قوية قد تؤدي إلى ازدياد تعلقها به؟ وهل يمكن أن تصل هذه العلاقة البريئة إلى الحد الذي لا يمكن التراجع عنه؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ وتوالت على ذهنها التساؤلات ولم تصل إلى إجابة توضح حقيقة شعورها وتحدد نوع العلاقة التي تربط بينها وبين خليل، ذلك الشاب العربي الذي ظهر صدفة في حياتها ..

❊❊❊

كانـــت المكتـــبة لازالت غارقة في السكون الذي يغمرها عـــادة فـــي الساعات الأولى من الصباح عندما حضرت ماريا لتـــبدد ذلك الصمت وتشيع بصوتها العذب جواً من البهجة وهي تطلق تحية الصباح، وفي تلك اللحظة شعر خليل بالسرور يملأ جـــوانحه كمـــا كـــان كلمـــا أطلت تلك الفتاة بوجهها الصبوح وابتسامتها المشرقة، كان قد تعوّد على انتظارها كل صباح منذ

أن تعرّف عليها، وتوقف عن العمل وأخذ ينظر إليها وهي تتجه إلـــى المكتب للجلوس مع السنيور لورينزو قليلاً قبل أن تباشر جولـــتها بين أرفف الكتب، ولم يطل انتظاره فقد جاءت إليه بعد قليل وهي تتدفق حيوية وقالت بصوتها الرقيق :

- هل تعلم أين قضيت السهرة البارحة؟ آه كم كانت ممتعة!

- لو كنت أعلم ذلك لسبقتك إلى مكان السهرة لأتمتع بها مثلك.

- لقد دعانا السنيور لورينزو وزوجته أنجيلا للعشاء في مطعم جميل يُسمى (الكهف الأزرق)؛ لأنه معد بجوار كهف به مـــدخل شبه مستدير وبجانبه مبنى صغير به مطبخ لإعداد الأطعمة، وأمامه ساحة مربعة تحيط بها وأحواض الزهور من كل جانب وقد صففت على أرضيتها الموائد البيضاء.

- هـــذا كلـــه يبدو جميلاً يثير الرغبة في مشاهدة ذلك الكهف لمن لا يعرفه، هل لديك وصف لأشياء أخرى ؟

- دعنـــي أكمل الوصف، كان هذا المكان كله مطلياً باللون الأزرق الـــذي يلمـــع تحـــت أضواء المصابيح الكبيرة المعلّقـــة في السقف الخشبي المزدان بالنقوش المحفورة في الخشب.

- وهل طالت تلك السهرة الممتعة إلى ساعة متأخرة ؟

- نعم لقد استمتعنا بالسهرة في ذلك الكهف الأسطوري !

- كـــان ذلك الكهف محفوراً في ربوة عالية عندما كان ذلك الموقع محجراً قديماً يزود المدينة بأحجار البناء .

- ومـــا هـــو اسم المكان الذي يوجد به ذلك الكهف، إنه يبدو جمـــيلاً عـــندما تـــراه وأنت قادم في العربة التي يجرها الحـــصان بـــين الأشـــجار المبثوثة على جانبي الطريق المرتفع قليلاً .

- ذلـــك المكـــان يُسمى (البركه) وهو من أجمل ضواحي المديـــنة الغنية بالأشجار التي ينعم في ظلها كل من يزور تلك الضاحية ويجلس في المقهى الشعبـي الذي يتوسط الميدان الصغير .

- لقد عرفت من أحاديث رواد ذلك الكهف الأزرق أنه توجد بتلك المنطقة آثار تركية فأين هي من موقعه ؟

- بلـــى، ذلك الكهف الجميل الذي قضيت به سهرة ممتعة لا يـــبعد كثيـــراً عن دار الحاكم التركي والقلعة الكبيرة التي

تحـــوي عـــشرات العنابـــر المطلة بنوافذها على الجهات الأربـــع إلى جانب المسجد المشيد على طراز المعماري الإسلامي بمأذنته العالية .

ـ لـــو كنت أعلم بموقع هذه الآثار لقمت بزيارتها ولكن فات الأوان .

ويبدو أن ماريا قد اكتفت بهذا الحد من الكلام فتوقفت بعد أن أفرغت ما في جعبتها وأخذت تقلب صفحات الإعلانات في جريدة (الكوريري دي بنغازي) لتتأكد من موعد سفر الباخرة، بيـــنما ظل خليل يتابع أناملها الرقيقة وهي تقلب تلك الصفحات ويفكـــر ويتـــساءل بيـــنه وبين نفسه : كم هي جميلة هذه الفتاة الـــوادعة التـــي يـــشعر في حضورها بالارتياح، ما هي حقيقة شـــعوره نحوها؟ هل هو مجرد شعور بالارتياح سينتهي بنهاية إجازتهـــا؟ أم أن مـــا يحـــس به نحوها عاطفة قوية أكثر مما يتـــصور؟ وإذا كـــان الأمـــر كـــذلك كيف يمكن الحد من هذه العاطفة؟ إنها تبدو غير مقبولة لأنها تقوم على عدم التكافؤ كما يرى أهلها حتى لو بلغت حدّاً لا يمكن التراجع عنه ! وتواترت التداعيات واختلطت الأفكار بذهنه وظل شارداً وهو سارح في خياله حتى سمعها تقول :

- لقــد حــان موعد انصرافي، انظر إلى الساعة أين وصلت عقاربها ؟

وعندما رفع رأسه ونظر إلى ساعة المكتبة وجدها تشير إلـــى الثانية عشرة ظهراً، وخرجت ماريا وهو في إثرها حتى بلغ عتبة المكتبة، فتوقف وأخذ يتابع خطواتها وصوت حذائها الذي ينقر الأرض ويصل إلى أسماعه حتى بلغت نهاية الشارع الـــصغير وانعطفـــت يـــساراً في شارع فيرينزي المؤدي إلى هوتيل فيينا .

***

كان الميناء يضج بالحركة عندما وصلت ماريا مع شقيقها اســـتيفانو الـــذي جـــاء برفقتها ليودعها بعد أن أنهت إجازتها الـــصيفية وقـــررت العودة إلى إيطاليا لمواصلة الدراسة، وفي مبنى (الدوقانا) جلس الإثنان مع بعض الركاب لانتظار موعد تحـــرك الباخـــرة التـــي كانـــت راسية وسط الميناء والبحارة يتحـــركون على ظهرها استعداداً للإبحار، وبينما كانت تتبادل الحـــديث مع شقيقها عن الأيام التي قضتها في بنغازي وما فيها من ذكريات جميلة، كانت تتناهى إلى أسماعها أصوات الحمالين

الذين يقومون بإفراغ شحنات البضائع من القارب المسطح الذي يسمونه (الماعونا) ويضعونها في الحاوية التي يدعونها (البراقه) فتتولى الرافعة نشلها من جوف القارب وإنزالها في عربات قطار الشحن الرابض بجوار الرصيف، كانت تلك الأصوات التي تعلو وتنخفض حسب ارتفاع وهبوط الريح تحمل أهازيج الحمالين وتوسلاتهم لطلب العون (يا امهوّن هوّن علينا)، وتذكرت في تلك اللحظات ما كان خليل يشرحه لها عندما كانت تسأله عن بعض العبارات العربية، وطافت بذهنها صورة خليل فشردت بفكرها وظلت ساهمة حتى انتبهت إلى صوت السنيور لورينزو الذي جاء مع زوجته لتوديعها :

ـ لقد وصلنا في الوقت المناسب فالباخرة لم تتحرك بعد .

وهنا قامت ماريا وشقيقها للترحيب بالمودعين وقلت السنيورة أنجيلا :

ـ رأيت أن أحضر إلى هنا حتى أكون إلى جوارك في آخر لحظة تغادرين فيها المدينة .

وقالت ماريا :

- شــــكراً يا سنيورة أنجيلا على مشاعرك الطيبة أنا أعتبرك أماً ثانية لي .

- لقــد تعودت على صحبتك وأشعر أن رحيلك سيترك لديَّ فراغاً كبيراً يا عزيزتي .

وقال السنيور لورينزو :

- حتـــى لو افترق الناس بفعل ظروف الحياة لابدَّ أن يكونوا على اتصال ببعضهم بالمراسلات

ولاحظــت ماريــا حضور خليل الذي وصل لتوّه فقالت بصوت مرتفع أرادت أن يصل إلى سمعه .

- لــن أنــسى الأيــام الجمــيلة التي قضيتها في هذه المدينة وســعدت فيها بصحبتكما وبمعرفة خليل الذي كان يتمتع بالذكاء وحسن الخلق، إنها أيام ممتعة سأظل أتذكرها كلما خطــرت ببالي أيام الإجازة الرائعة التي قضيتها في هذه المدينة الجميلة .

وفـــي تلــك اللحظــة وصل القارب الآلي الذي سينقل الــركاب إلى حيث ترسو الباخرة فتوجه الجميع إلى الرصيف وبدأ الركاب ينزلون إلى القارب وأخذت ماريا تصافح مودعيها

بمـــا فيهم خليل الذي صافحته لأول مرة منذ أن تعرفت عليه، ومـــا كـــادت تسحب يدها التي احتضنها خليل بين يديه حتى لمحـــت مارشـــيلّو يـــركض باتجاه خليل وبيده خنجر فأطلقت صرخة مدوية :

ـ انتبه، خليل، انتبه .

ومـــا إن الـــتفت خلـــيل حتى رفع مارشيلّو يده بالخنجر محـــاولاً أن يسدد له طعنة قوية فأسرع خليل للإمساك بذراعه وأهـــوى مارشـــيلّو بالخنجر يريد إصابته في صدره، غير أن قبضة يد خليل التي أمسكت بذراعه في قوة شلّت إرادته ومنعته مـــن إحكام الضربة فجاءت الطعنة خفيفة أصابت خليلاً بجرح صغير في كتفه الأيسر ونجا من تأثير ما كانت ستسببه له تلك الإصـــابة كمـــا أرادها خصمه مارشيلّو الذي سرعان ما اختفى وسط الزحام .

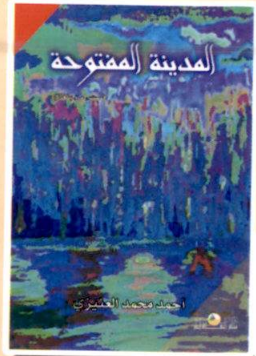
وبشعور مفاجئ طغى على ألم الجرح وجد خليل نفسه يصيح وهو يلوح بيده اليمنى :

ـ وداعاً ماريا وداعاً .

وهكـــذا رغـــم حيرتهما في معرفة حقيقة العاطفة التي ربطـــت بيـــنهما فاضت مشاعرهما عنوة وضجت الأعماق في لحظات الوداع التي زلزلت كيان كل منهما .

***

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام